مكتبة نوميديا 191
Telegram@Numidia_Library

محمد ديب

ثلوج من رُخام

رواية

منشورات الشهاب

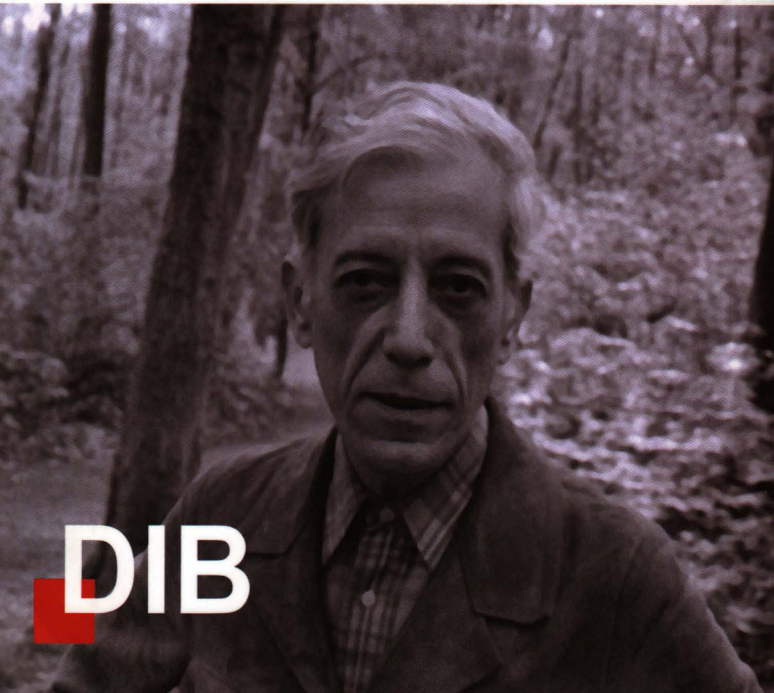

ثلوج من رخام

محمد ديب

ثلوج من رخام

رواية

ترجمة محمد ساري

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2011.
10، نهج ابراهيم غرفاء، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-883-5
الإيداع القانوني : 2011-5501
أنجز طبعه على مطابع Chihab Print - باتنة - الجزائر

صدر هذا الكتاب في إطار

تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

الزائرة

دخلَت. لمْ أُصدِّق عَينيّ. تقفز على رِجْل، اليدان مضمومتان عند الظهر، تُواصل، تَتقدّم على الرِجل نفسها. تلعب لعبة الحَجْلة، أو أنها تتصرّف كما لو كانت تلعبها حقا. تدفع رمية غير مرئية، لمْ أصدِّق عينيّ.

غُرفة في مكان ما، غُرفة عادية في الطابق الثاني عشر، بفنلنديَيها الممدّدَين، المريضَين، زيادة إلى الشَقِيّ الثالث، الفرد الذي يقول، أنا. هو، إنّه أنا. أكونُه مثل غَيري، مثل أيّ شخص آخر. إنّ حياتي دالة على هذا، أو إنْ شئتم ؛ ضامنة. إنّي بمستشفى في عمارة تحوي اثنتي عشر طابقا، ولكنّي لسْت إلا شبه مريض، أنا تحت المراقبة الطبية.

كيف وصلَت إلى غاية هنا ؟ لا زلتُ تَحت وَطأة الاندهاش. استقبلتها بترحيب كبير :

- بايفا بايفا !

قلتُها في لغتها. لم تتكرّم حتى بالردّ عليّ، في أيّة لغة.

طيّب، على كل حال، أنتَ الذي تقول، أنا، ستكتفي بتقبيلها. انحنَيت باتّجاهها، ابتعدَت. في آخر لحظة. وأنا أستعدّ لتقبيلها.

لمْ ألِحّ. أعرف أنّ لْيِيل تنزعج من البُوس المصّاص. إنّ الطُرق التي تقودنا الواحد باتجاه الثاني مُنحنية دائما. لا، لم أكن لأحبّها لو كانت أقل سُمرة، وبشعر أقل سوادا في هذا البلد المليء بالرؤوس الشقراء إلى حدّ التخمة. وعيناها العنبَريتان كذلك لم أكن لأحبّهما لو كانتا أقل حرارة، أقل لمعانا بين جميع أوراق الأزهار في السماء الشاحبة، العيون الوحيدة التي يمكن لقاؤها هنا. كما لم أكن أريد لها جمالا أقلّ سطوعا مما هو عليه. **نيفَرتيتي**... ومع ذلك أهمس هذا الاسم في أذنها، **نيفَرتيتي**، نيفرتيتي. وأنا أنظر إليها، لم أتمكن من منع نفسي من نطق وتكرار هذا الاسم. نظرت إليها مرة أخرى. تكون نيفَرتيتي في مثل هذا العمر نفسَ الخوخ المجفف على ساقين. سيعرف المستقبل كيف يَجعل منها تحفة رائعة. للمستقبل وقته. أفكّر لنفسي : «نيفرتيتي، إنّها زائرتي هذا اليوم». نيفرتيتي في بلاد البرابرة، في أقصى الشمال، بَبَياضه المُبهِر.

كانت جدّتها تتبعها، ليست «روسيا»، وإنما جدّتها. لماذا : إنّ الذي يقول، أنا، لا يعرف شيئا ولا يريد أن يعرف لأنّ نيفرتيتي توجد هنا. أمسكت السيّدة العجوز هذه الأخيرة من كتفيها، وهي تراها تمتنع عن قول صباح الخير، ثمّ ترفض أنْ

تُقبّل. تريد للطفلة أنْ تتصرّف بلباقة أحسَن. هزّت نيفرتيتي القيد، مرتابة، وتحدَّثَت عن شيء آخر بصوت أرعد زجاج النوافذ. وكان هذا كافيا ليدفعنا خارج الغرفة التي أهملناها لمذنبي المرض، بسرعة أهملناها. هي، ليبل، واصلَت احتجاجَها أثناء الطريق، بذلك الصوت المدوّي. اقترحْتُ عليهما أنْ نذهب إلى المقهى.

كنّا قادرين على الذهاب إلى مكان آخر، إلى الحديقة، إلى الخارج، عند مدخل المستشفى. في هروبنا، أوّل فكرة خَطرَت على بالي هي المقهى. مشَت ليبل وحيدة، في المقدّمة، لا تريد أنْ تمنح يدها لأحد، لا لجدّتها، ولا لي أنا. رافقَتْنا النظافة نفسُها في الرواق الشاسع الطويل، تتبعنا في كل مكان.

وتوقَّفَت بغتة مقابل الأريكة التي جَلسْنا عليها بالأمس، هي، روسيا، وأنا. ركضَت وارتَمت فوقها وانتظرَت منّي أنْ أقلّدها. هذا التكرار لفعل : طريقة لترويض الأشياء ؟ لخلق جوّ من الألفة ؟ في العمق، إنّ الأشياء لا تعرفنا جيدا، نمر عليها بسرعة، وهي تبقى. أتفاوض في لغتي، لأنّني لا أعرف لغتها، كي أقنع نيفرتيتي لتتبعنا إلى غاية المصعد. تفرّستني، أذهلَها عدمُ فهمي.

سبقَتنا إلى داخل المصعد، سارعَت إلى الضغط على الزر، هي وليس شَخص آخر. أرفعها، أوجّه أصبعَها، لا يوجد غيرنا داخل المصعد، يمكن أن نسمح لأنفسنا بمثل هذه النزوة. ضغطَت على الزر المناسب بإصرار يَعني لتلك الأداة : أنا هنا، وأقود.

يتطلّب هذا خيالا، كثيرا من الخيال، لنتصوّر هذا الفعل في بساطته.

وصَلنا إلى مقهى عميق وواسع في الطابق الثالث. قامَت السيّدة العجوز التي ترتدي الرمادي خصِّيصا للصيف باختيار طاولة لنا، ليس بسبب نقص الطاولات الشاغرة، ولكن يبدو أنها تعرف ومع ذلك لا تتذكر ما هي الطاولة التي ينبغي الجلوس إليها، فأجلستنا وسط تيار هوائي قوي. وهذا دليل على أنّهم يعالجونني جيدا، فلم أتحرّك من مكاني. صعدَت ليبل على الكرسي بردف واحد، وبعد ذلك ألحقَت الثاني، فقَد رفضَت مساعدتي. أثناء ذلك، ذهبَت الجدّة لجلب قطعة حلوى وردية اللون، مغطية بالسكر المجمد، من الواجهة الزجاجية لمحل الخدمة الذاتية وحطّتها أمام حفيدتها. وبعد ذلك، أخرجَت سكينا صغيرا من حقيبتها اليدوية، وراحَت تقطّعها إلى أجزاء صغيرة. تمدّدت قشدة كثيفة عبر سُمك السكر الذي بدأت الحرارة المحيطة تذيبه. ما أعرفه أنّ نيفرتيتي لا تحبُّ هذا النوع من الحلوى. الصَمت، الظل، الندَى، سيغني طائر طوال الليل. تكتفي بمضغة واحدة ثمّ تدفع الصحن بعيدا عنها. ليسَت نَهمة لمثل هذه الأشياء، على كل حال، فهي لا تأكل إلا قليلا. إنها من الخالدات.

عندئذ، أخرجَت السيدة العجوز قنينة من قفّة كانت رابضة عند قدميها، تحوي سائلا بتقزحات بنفسجية بلون ياقوت أحمر. نعرفه : إنّه عصير عنبيات، مصنوع بالبيت. دفُقَت

مقدار مغرفة في الكأس الكرتوني وعبّت ليبل السائل بجرعة واحدة. فطلبَت سقيَها ثانية، شربَت بإمالة رأسها إلى الوراء، ثمّ ربتَت براحة يدها على الكأس ضد شفتيها كي تُسقِط آخر القطرات. أتصوّر أنه لمْ تبقَ أيّة قطرة يمكن إسقاطها، ومع ذلك واصلت الربْت وكانت ضفائر شعرها تتراقص قرب أذنيها. الآن تملك شعرا طويلا يسمح بإقامة ضفائر لها. ليس الأمر سهلا : يزلج الشعر بين الأصابع بسبب نعومته ؛ كما المياه، ستقول لي. ولكن بقليل من التركيز، نصل إلى المبتغى، يجب جَمْع شَعر الأمام والخلف من جهتي الوجه. يَحدُث لي أحيانا أنْ أنسج لها، تلك الضفائر، ولكن روسيا تحسن فعلها أحسن مني، أحسن بكثير.

همهمَت الجدّة لأنّ ليبل أفرطَت في شرب عصير العنيبات. إنّ الذي يقول، أنا، يواصل مراقبة الواحدة، ثمّ الثانية، فلا يقول شيئا. بينه وبين هذه المرأة، يتواصل بالإشارات، وليسَ الكلمات. والأمر نفسُه مع الطفلة الجالسة في الجهة المقابلة من الطاولة. في فستان النوم الذي يرتديه، يوجد جيب، وبداخل الجيب، توجد حلويات بسْكويت جافة. يمدّها لها. خطفَتها من يده، فاتّقدَت عيناها الشبيهتان بعيون الطيور الكاسرة، أو شيء مثيل لها، ثمّ استرجعت عينيها البريئتين. يَضحك ؛ فقامَت برسم حركة احترام بالرأس، احترام حقيقي. بدأت تفتّت البسكَويت في صحنها الورقي. الصَمت، الظل، الندى، سيغني طَائر طوال الليل. من يريد التفريق بيننا، ولماذا ؟

بعدما أنهَت عمل التفتيت، وضعَت ليبل أول قطعة في فمها، وبدأت تقضمها ببطء لترى. نصف تينة ونصف عنب مثلما يقال. قضمَت قطعة ثانية.، دائما في مرحلة التجريب. أنظر إليها وهي تفعل. ثمّ تتابعَت القطع، الواحدة وراء أختها بسرعة. تقوّس جسدُها قليلا، تأكل بتمهّل، بتمييز، العين ممدّدة تندرج مباشرة في هيئة جامدة التقاطيع لملكة مقدّسة والوجه الذي يفرض الصمت حوله يوقف الزمان. فلا ينقص، بين الأصبعين المرفوعين، بابتسامة قبلية، غير زهرة ورق البردي. يوجد طرف البِسكَويت، فتتفتّق الابتسامة، ربّما. فعلا بدَت لي من الخالدات.

سألت :

- هل هو لذيذ ؟

أجابتني بنعَم واضح من الرأس. لقد فهمَت. على كل حال، بيني وبينها تمر بعض الكلمات، أقصرها، وهي ليست مجرد إشارات فقط. لقد حفّزَتها منذ البدء هذه المحادثة لتقتطع جزءًا مما تبقى لها من البِسكَويت وتقدّمه لي :

- قطعة صغيرة لبابا.

بدوري، بدأت أفهم لغتها. قلت وبدي مفتوحة فوق الطاولة :

- قطعة كبيرة لبابا وقطعة صغيرة، صغيرة جدا، لليبل.

مالت برأسها ذي كتلة الشعر الأسود الكثيف إلى الوراء، فضحكَت بملء شدقيها. لقد فهمَت. والإكليل غير المرئي الذي انحطّ على هذه الكتلة من الشعر ؟ قد يكون قد سقط أرضا وتحطّم كلية في هذه الساعة. أيتها الطفلة، عندما تضحكين هكذا، تتحولين إلى الرضيع الذي لا تزالينَه في عيوني. أعود معك إلى المعنى الأول والنهائي لكل كلمة.

احتجَّت وضحكَت من جديد :

- لا، قطعة صغيرة لبابا !

تُفتّتُ القطعَ المُتبقية إربا إربا، وتصرخ أمام هذَين الفنلنديَين الحريصَين، اللذَين لم يريا أبدا مشهدا مماثلا :

- قطعة صغيرة لبابا !

وتستأنف :

- قطعة صغيرة لبابا !

لا نواجه التيارات الهوائية في هذا البلد. شيء مضرّ حتى وإنْ كنّا تحت الدرجة الخامسة والثلاثين في الظل، وهي الدرجة المسجلة اليوم. أضحى تغيير المكان أمرا ضروريا : وهو الشيء الذي قمنا به، وهو أحسن شيء بالنسبة لنا. ولم يغيّر هذا الأمر من شيء. غيّرنا المكان مرة أخرى، بدا الوضع أفضل. خمس وثلاثون درجة. سندفع ضريبة الجفاف. انتهى تناول الفطور وسط هذا الترحال.

الآن ومن نفس القفة تستخرج السيدة العجوز ثلاثة كتب، ثلاثة ألبومات لم تكن ليبل لتفارقها أبدا. من المستحيل توقع ما يمكن أن نراه يخرج من هذه القفة : دزينتان من البيض، من يعرف، باقة ورود، من يعرف، تنين ينفث لهيب نار، وربما القمر ؛ شيء وراءه شيء وجميعها معا في كل لحظة وكلها من الأشياء المعجزة. تقترح عليّ السيدة العجوز الألبومات بألوانها الساطعة، وكانت حركتها وعيونها بتلك الزرقة اللبنية المرفقة بابتسامة متأسفة هي بمثابة الكلام. قلت :

- اسْباسيبا.

تأجّجت نظرتها، أجابَت، بخجل، ربما لسمع صوتها الخاص :

- بوجالستا.

بدا أنّ وجهها لم تقطّعه السنون ولم تحفره بالأخاديد مثلما فعلت مع جلدها الذي مدّدته في أماكن على شكل شرائط قبل أن تحفر عليه أخاديد صغيرة على شكل سواقي. رفعَت نفحة هواء شعرا رماديا فوق رأسها.

كانت هذه الكلمات الوحيدة مني ومنها، باستثناء الإشارات والإيماءات، فحافظ الكلام على حداده. حولي أيضا، لم تمنح لي المحادثات الجارية إلا ضوضاءها، لا غير. ومع ذلك قرأت للصغيرة ليبل التي تسلّقت بمفردها على ركبتيّ، ولم تنتظر أية دعوة. لم ترِد إظهار ذلك ولكنها كانت ترتجف متعة.

فبدأتُ القراءة، وأصغَت مباشرة، استمعَت إليّ أقرأ في لغة مجهولة حكايات قد تعرفها جيدا. أرى رأسها، من جانب، منحنيا على الكتاب الذي أمسكه بين يديّ، أرى كتلة الشعر التي تسقط على عينيها، وفي امتداد ذلك، الدائرة الخالصة للخدّ دون الأنف في الخلف، مع أنه موجود، أعرف ذلك، وأنا أنظر إليها على تلك الوضعية فأرى كيف يمكن لتمثال أنْ يسمَع. ليبل كما التمثال. أستعين بالصور : مُلغزة، لم يعد النص المطبوع يفيدني في شيء. على هذه الصوّر، شيّدت قصصي وحفظتها عن ظهر قلب كي أستطيع تكرارها في أغلب الأوقات الضرورية. لأكرّرها بالحرف. رغم أنها لا تفقه المعاني، إلا أنّ طفلتي المتشَيْطنة تحفظ كل كلمة أتلفظ بها، تحتفظ بها في أذنيها. الويل لي إنْ أنا ارتكبت زلة ما في حكايتي : تنتفض، تعيد الكلمة وتطلب مني الإعادة من البداية. لذلك كان عليّ أن أراقب نفسي، أن أحرس نفسي من كل انزلاق، من كل خطوة خاطئة.

ولكني شيئا فشيئا نسَيت مخاوفي، وإلى غاية هذا الجدار اللغوي المنتصب بيننا. هي أيضا، وبلا أدنى خطأ. رويدا رويدا، اكتشفنا كلاما مشتركا عبر الآخر، الكلام الأجنبي. كلام يكفينا، يوحدنا. بدا من غير المقبول في هذه اللحظة لأي تبن أن ينزلق بيننا.

فتغيّرت المواقع، أصبحت ليبل هي المتحدّثة وأنا المستمع. الآن هي تحكي، أو أنها تواصل حكي نفس الحكاية في لغتها

فيما كنت أقلب الصفحات. تحني رأسها مثل السابق، أراها دائما من الجانب، وجنتها الفرعونية التي ابيضّت ثم احمرّت وتمدّدت عينها تحت الانفعال. تحكي وتحكي. بخفة لامستُ بشفتي شعرها الذي تنبعث منه رائحة الحيوانات الغابية. تركتني أفعل ؛ ملأ صوتها كامل المقهى. عجزَت عن تدوير حرف الراء في بلد يشترط ذلك، كانت تروِّضه على طريقتها ويلتفت الجالسون حولنا، فضوليون، كي لا يفوتهم شيء. أعرف ما هو الشيء الذي يُفتَقد في هذه اللحظة : حياة أمي هناك في بلدي. إنها تموت في هذه الدقيقة.

غُرفة المرضَى، عدنا إليها. طلبَت ليلى الجلوس على سريري. لمَ لا ؟ رفعتها، إنّ أسِرَّة هذا المستشفى عالية، وأضفت مع نفسي، ضيّقة كما التوابيت. بمجرّد استقرارها، نزعت حذاءها، وجلست على راحتها. كيف أفهمها أنه ليس لها مكان هنا، وأنّ عليها أن تعود إلى البيت مع جدّتها. لن يكون الأمر هيِّنا. غامرتُ بمحاولات للشرح. استمعَت إليّ بكامل عينَيها : ولكن هل تفهم ما كنت أقوله لها ؟ انتظرَتها السيّدة العَجوز عند الباب. أريتُها لليلى. ويا للعجب، ليلى العصية الترويض، أضحَت متصالحة فجأة، قبلت دون احتجاج، دون مقاومة، أن أنزلها أرضا وألبسها نعليها. انحنيت وأدخلت القدمين في الحذاءين، ولسبب غامض تضبّبت عينايّ بالدموع. كانت الجدّة قد خرجت إلى الرواق.

عندما وصلَت ليبل إلى الباب، التفتَت، نظرَت إليّ نظرة صارمة شبه هلعة.

- بابا، سوف لن تبقى هنا.

أسمعك بُنيّتي ؛ ما تقولينه واضحا جدا. حتى وإن كان غير كذلك، تتكلم نظرتك من أجلي. أضافت :

- يجب أنْ ترجع إلى البيت.

لا أرى إلا ظهرها، لا أرى إلا إشارة اليد التي تلوّح لي بها. هذه الإشارة. شخص يموت بعيدا. قبل ساعة من الزمان، وربما أقل، لن يكون من هذا العالم وسوف لن نعرف. يمكن أنْ يكون الشخص أمّك، ولكنك سوف لن تعرف. يمكن أنْ تكون أنتَ وربّما ستعرف.

فالو

العناية، الاهتمام : الوفاق الذي لا يقال وإنّما يُمتحَن. قد لا يحميك هذا بتاتا من الخطر، مثلما يتجلى، شيء قد لا يُصدَّق، كما أنّه لا يقيك ضد المآسي. التواطؤ فوقَ وتحتَ الكلمات، ومَع ذلك، ورغم كل شيء، أحيانا، تحدث حالات سوء التفاهم ؛ سوء تفاهم بشع. ورغبة في التجديف.

حدث ذلك ذات ظهيرة، بوقت قصير قبل دخولي المستشفى. طلبَت منّي شيئا، ولم تستخدم إلا الحدّ الأدنى من الكلمات، بل كلمة واحدة في النهاية، حِرصا منها على عدم التشويش. يا للكلمة التعيسة ! أشغلتُ ذهني، عدتُ إلى قاموسي. كنّا وحيدَين داخل المنزل، شيء قلّ ما يحدث، لا أظن أنه حدث لنا أبدا : لا أحد نَستعين به. كرّرَت هذه الكلمة **فالو** ؛ وليست أخرى. لمْ أفهَم، لا، لم أدرك ما أرادَت قوله. انتظرَت. لم أكن مجبرا على إيجاد ما تقصده.

حينئذ، فقدَت رباطة جأشها، وصرخَت بتلك الكلمة، نفسها دائما، بقوة أكبر، صرخة مدوية :

- فالو ! فالو ! فالو !

نظرتُ إليها، عاجزا. لقد أغضبَها جمودي، فصرخَت في وجهي، هزّتْني، ضربَتني، وهي تَجْهَش بالبكاء.

إنها حقا مأساة. ورغبة في لفظ الروح.

أخذتُها بين ذراعيّ. وفيما كنت أواسيها وأنا أتجوّل برفقتها عبر المنزل بقَصد تهدئتها، قادَتني إلى غاية حُجرة. وهناك، أشارَت بعينَين مبللتَين إلى قفل النور، ثمّ رفعَت رأسها باتّجاه المصباح المشتعل. اشتعل النور بداخلي أيضا. هذا هو قصدها إذن ! النور. **فالو**. وأدركت ماذا حدث. إشعال النور، لقد تمكّنَت من ذلك بالقفز ورفع ذراعها باتجاه القفل. ولكنها فشلَت في إطفائه، لم يكن ذلك ممكنا.

أطفأتُ النور : هذا ما كانت تنتظره منّي.

يتطلب الكثير من الوقت كي أنسى ماذا تعني لفظة **فالو**. لا تتخذ الأحداث دائما مثل هذا المجرى المأساوي. أتذكّر أنّه ذات صباح طلبَت مني ليبل شيئا ما في المطبخ ولم تعرف تسميته إلا في لغتها. بسرعة أدركَت عجزي في التعرّف عليه. فرأت أنّه من واجبها أن تصفه لي. أخذت فرشاة أسنانها بيد وبدأت تحركها أمامي. أثارت كلمة أومينا التي استخدمتها من بين كلمات كثيرة أخرى انتباهي، فزارني الإلهام. داخل خزانة الأواني المعلّقة عاليا فوق حوض المطبخ، تناولت قدحا معدنيا مزينا بتفاحات بيضاء **أومينا**، تفاحة على عمق أحمر،

فوضعته بين يديها. إنّ الفرَحَ الذي غَمر وجهها غمرني أنا أيضا. أذهلها الإعجاب، فشكرتني بالقفز والصراخ :

- يحي بابا ! يحي بابا !

سيخرج من النار من يقول : « لا ربوبية إلا الله». بدون ذلك القدح، لا يمكن أن تغسل أسنانها.

إنّ الحديث بالكلمات بالنسبة لليل شيء معروف وبديهي. ولكن أنْ تنطق الكلمات بنفسها، أنْ تخوض لغتها الخاصة، شيء جديد تكتشفه معي. أنْ تلعب الكلمات، وتُتقِن اللّعب، لعبة طريفة بينها وبين الكلمات. جاء الأمر هكذا بكل بساطة، منذ أيام قليلة فقط، حينما تقدّمَت إليّ لتضَع تحت أنفي يدَها الصغيرة بضمادة موضوعة فوقها مثل ترقيع وأعلنَت :

- كوشْكا.

فهمتُ توّا. لقد خدشتها القطة الصغيرة التي أتينا بها منذ أسبوعين. ألصقَت روسيا هذه الضمادة على راحة يدها. ولكن ليل لم تكن تشتكي، ولا تبحث عن مؤاساة ما.

أنا الذي قلت مواسيا :

- كوشْكا، آه على القطة اللعينة !

بعد ذلك مباشرة، أرتني اليد الأخرى.

- كاشْكا.

تأملت ما بدا لي ضربة مخلب أخرى وقلت بنفس اللهجة المواسية :

- هووو، كوشْكا، القطة اللعينة ! مسكينة ليبل...

- كاشْكا ! صرخَت، بنَظرة ساخرة، وهي تهزّ شعرها الأسمر.

أكرّر خلفَها دون تغيير النبرة :

- كوشْكا...

تفرّستني بشفقة، مُحتجّة من جديد :

- آه ! كاشْكا !

إلهي، أخيرا أدركت الاختلاف. يد تتزيّن بخدش أحدثته القطة، كوشْكا، واليد الثانية عليها نثار من حساء الشعير، كاشْكا. تأخّرْت في إدراك المعنيَين.

إمّا أنّ الكلمات ليس لها وزنٌ كبير. إمّا أنّ التواطؤ خالص لأنه أخرس، هذه اللحظات مثلما توجد أحيانا، لحظة خاصة : تلك التي تكون فيها داخل سريرها، هذا السرير مثلما أراها تُجهد نفسها لتسوية فراشه، تغيّر ما بالرأس إلى القدم، وما بالقدم إلى الرأس، تنجز ذلك بعناية خاصة بها، بلا ضجيج، الرضاعة محكمة في الفم، وبعد ذلك سريرها مثلما تنام عليه بعد أن تكون قد أنجزت مهمتها على أحسن ما يرام، ملتزمة الصمت دائما. حينئذ، تراقبني عبر القضبان، وأنا جالس أعمل في الطرف الآخر من الغرفة. تواصل التزام الصمت، كما تواصل

مص الرضاعة، تلصق عينيها عليّ كي لا تزيلهما، عينان تبدوان من بعيد بلمعانهما المعدني، خاصة بسوادهما الساطع. أرفع رأسي من فوق ترجماتي وأتأملها بدوري. في السكينة التي تسود المنزل، من أسفله إلى أعلاه، دون أن ينطق أحدنا بكلمة، لا هي ولا أنا، نكتفي بتبادل النظرات، نظرات هادئة تماما كالسكينة التي تحوطنا. ويوجد كل شيء هنا، - وإلى الأبد.

أحيانا، ينتابني شعور غريب بأنني أحضنها بعينيّ كما لو كانتا ذراعين، فيما كانت من جهتها تستسلم وتترك نفسها تُحمَل. نتجنّد معا في هذا اليقين، فتزيد من مصّ رضاعتها، بصوت مرتفع مثلما تقول روسيا، دليل على أنّها على وشك الإغراق في النوم، وأنا أستأنف عملي. لحظة وجيزة فقط، ويرتفع تنفسها، منتظما. لقد مُنح لنا قسط من الوقت خصيصا لنا، لم يكن الزمان بحاجة إلى وقت كي يمر. لنَفترض أنّ شخصا آخر يقتحم الغرفة فجأة، يكون الزمان قد أخذ كامل وقته، ونحن كلّ وقتنا أيضا. ستنام ليبل بعمق، فيمكن للآخرين أن يصِلوا، ليس لذلك أهمية تُذكر. سيكون كل شيء هنا في كل وقت. كل شيء سيكون هنا مُستمرا مع تواصل نوم ليبل وابتسامتها. سنحتفظ بالعزلة والنوم والابتسامة : ليبل في طرف، أمّي في الطرف الآخر، هناك في بلدي، وأنا بينهما.

إنّ الذي يقول، أنا، كالأعمى ينتقل من عقبة إلى عقبة، يَصطدم بواحدة، يصطدم بالثانية، يتكئ على واحدة، ثم على الثانية، يتعثّر ويسقط داخل جميع الحُفَر.

«إنها السماء، يخاطب نفسه، السماء التي تنفَتح !»

تتمدّد قرب قدميه، تنهض وتمشي طالما يَحميه عماه، يسانده، لفترة طويلة، ليس غير.

سيتقدّم، سيذهب بعيدا، أطول وقت ممكن، واحدة في طرف، والأخرى في الطرف الثاني، هو بين الطرفين. أعمى مثل المَلَك الذي يقوده، حظه الذي جعله أعمى.

في مساء ذلك اليوم، وبطلبها، أجلَستُ ليبل فوق إنائها الخاص (المبولة) أمام المقعد الذي تستخدمه كطاولة، وأراكِم فوقه مجموعة من الكتب. لديها مكانها المخصّص في المطبخ لمثل هذه الضروريات : قُرب صف النوافذ التي تنفتح على الغابة، من الطابق الأول. هنا وليس في مكان آخر ؛ وهي تَشتَرط إحْضارَ جميع كتبها. عفوا، إنّها بحاجة إليها. ابتداء من الغد، أو بعد غد، ستبدأ باستعمال مرحاض الكبار. ولكنها تنادي دوما كي نأتي لتنظيفها.

وضعتها إذن أمام النوافذ. وقالت لي على الفور :

- تُوهْمَا، بابا !

- لماذا ؟

أرتني الزجاج ولم أكن بحاجة إلى أنْ تترجم لي روسيا أقوالها :

- ألا ترى أنّ الليل قد سَقط ؟

كرّرت، وهي تتشمّم بازدراء :

- توهْمَا، بابا. أنت بليد، بابا.

نعم بنيّتي، لقد سقط الليل ووضعتك أمام هذه النوافذ الداكنة، عار عليّ ! فهمت حينئذ أنها إنْ كانَت تحب احتلال هذا المكان فبالنهار، من أجل «قراءاتها». أين كان رأسي ؟ أدرتها بإنائها والباقي باتجاه المصباح الكبير المشتعل، الذي يتدلى في السقف، ليصبح فوقها مباشرة. قالت بسخاء ظاهر :

- شكرا بابا.

روسيا

سبعة أيام : سبع مرات أربعة وعشرون ساعة، ويتكلم الذي يقول، أنا، يكتفي بالكلام فقط لأنّ شجاعة السكوت تنقصه. يجهل لماذا، يجهل كيف. لا يجهل لمَن يتكلم. لروسيا، روسيا الغائبة. قال : ضيّعتُ كلّ هذا الوقت في المستشفى، مجرّد ملاحظة، لم تصلي ولو مرة واحدة في بداية الزيارات لتبقين إلى النهاية. إما أنك تمرقين في آخر دقيقة، أو تنسحبين خلسة بمجرّد ظهورك. حَتمًا، يُوجد في مكان ما موعد لا ينبغي التأخُّر عنه، قضية مهمة يجب حلُّها، دائما هناك شيء ما. إنّكِ من تلك الشخصيات المنشغلة دوما، المُتجاوزَة، تريد أن تكونَ في كل مكان وفي نهاية المطاف ليست في المكان الذي يجب أن تكون فيه. روسيا، أنت الآن تُغلّبين القضايا الصغرى على الكبرى. سوف لن أبدأ بلَوْمك من الآن. حينما نبدأ باللوم، لا نعرف أين ستنتهي بنا الأمور. أردتُك، بحثتُ عنكِ، أخذتك مثلما أنت. ربّما أصبحَت نجوم سمائنا مظلمة بعدَ أنْ كانت مضيئة ؟ **لا يعرف السكوت، لا يعرف كيف.** لقد قضينا تلك الظهيرة معا على صخور المستشفى، منذ ثلاثة أيام.

ظهيرة رائعة، تذكير بالجنّة. هل أنا مخطئ ؟ كان هذا كافٍ ليمنح الواحد منا للثاني، أبعد من الكلمات، شَدْوا صادرا عن القلب ؛ أكيد أنّك تتذكرين.

حينما نتكلّم من أجل الكلام، من أجل الكلام فقط، من أجل المرافقة فقط. في واقع الأمر، روسيا لا تسمى روسيا، اسمها ماروسيا. ولكنّي سميتها من البداية روسيَتي، وبقي هذا الاسم «روسيا» لاصقا بها. بقي لها من أجلي، إن استعماله شخصي جدا، روس، روسيا russe rousse roussia. اسمي أنا بُرهان، اسمي أيضا اختزلَتْه إلى «بُرْه» لاستعمالها الشخصي. بُرْه تنطقه بُرغ، وهو اسم طبيعي عند الروس لأنهم يميلون إلى استبدال «هـ» بـ «غ».

لم تأتِ يوم السبت، لا كهَبَّة ريح، ولا تحت أي شكل آخر. أخبرَتني عَن سبب غيابها فيما بعد : لقد ذهبت في نزهة جماعية مع الطلبة الذين يتابعون دروسها. بالأمس، استعجلت ذهابها لتحضر سهرة نظمها بعض الأصدقاء. **كيف يمكن السكوت، كيف أستطيع السكوت، كيف أعرف متى.** لم تعد تأتي برفقة ليبل ؛ كانت تأتي بها، ولكنها لم تعد تفعل. قد تزعجها ليبل في ذهابها وإيابها. إنّها تفاصيل **لا يعرف كيف يسكت عنها، لا يملك قوة لذلك** لم أكن لأتوقف عندها لو كنت في الخارج، وغير قابع في هذا المستشفى، - هذا السجن. **قوة السكوت.** إنّ ليبل طفلة كبيرة الآن، آنسة، لا تحمل الحفّاظة في النهار، تلبس تبانا كالكبار.

إذن كنت في دورة المياه وها أنا أعود. الساعة الآن، لا أعرف : الواحدة بعد الزوال ؟ لم أصل بعد إلى الغرفة التي يوجد فيها معي المريضان، وأنا لست ثالثهما، لأنني ظاهريا لست مريضا، فرأيت. نعم، رأيت مَلابسي هنا مُعلقة على مشجب في الرواق، تعرّفت عليها بسهولة. يَبدو كما لو أنّها كانت تترقّب مروري، وتتساءل لماذا كل هذا الغياب بعيدا عنها، تنتظر أن آخذها وألبسها من جديد. لم تكن هناك قبل لحظات، وها هي الآن مُعلّقة تنتظرني. السؤال الذي أطرحه، الذي يُطرَح نفسه، هو كيف وصلت ها هنا. أتذكّر بأنني نُقِلت إلى هنا وأنا في غيبوبة كلية، بالبيجامة، عند فجر ذات يوم. تتوقف ذكرياتي قبل ذلك بقليل، تتوقف أمام ذلك الباب الذي كنت أبحث عنه في الظلام، تغادرني في اللحظة التي وضعت يدي على مقبض القفل. وبعد ذلك لا شيء. والآن تواجهني بدلتي، على مشجب، ومغطاة بالسيلوفان. كيف أمْكَنها أنْ تصل إلى غاية هنا ؟ يَهمّني كثيرا. سأخرج، لا شك في ذلك، سأخرج، وهذا هو المُهّم.

سأكون قد قضَيتُ ثمانية أيام ها هنا وليس سبعة. كيف تكون مدّة ثمانية أيام في المستشفى ؟ يجب قضاؤها لمعرفة ذلك، ولكن أصبح هذا من الماضي، وليس من انشغالاتي الآن. لا يكون الأطباء قد عثروا على شيء خطير برغم جميع بحوثهم وفحوصهم. أرجعوني، أطلقوا سراحي. تشاو ! إلى غاية الزلّة القادمة.

أنزلتُ المشجب دون أن أطلب رأي أحد، ورجعت إلى حيث أتيت، إلى دورة المياه، وهناك أغلقت الباب على نفسي وتخلّصت من بيجامة المرضى. بدأت أرتدي القميص فغمرني شعور بأنني أصبحت رجلا آخر. في تلك اللحظة، لا، من غير المعقول، ارتفع صوت، تدحرج، صوت ضخّمه الصدى ! أسمعه، يرنّ، يتدحرج، يخترق الصمت سكون الرواق العريض، فانتفَض قلبي داخل صدري. ليبل، إنها هي ! لا تأتي سعادة بمفردها. أمسكت تنفسي واسترقت السمع جيدا. إنّها فعلا هي. صِحتُ من داخل دورة المياه :

- أنا هنا ! سأصل فورا.

هل سمعَتني، وروسيا أيضا، التي تكون قد صاحبتها دون ريب ؟ أسترق السمع من جديد، ولكنني لم أقاوم فضولي، فتحتُ البات قليلا وأخرجتُ رأسي. إنهما هناك في آخر طرف الرواق. ولكن ليبل التي لا يزال مزمارها يدغدغ أذنيّ رأتني.

فركضَت بأقدر سرعة ساقيها.

- بابا ! بابا !

آه على هذه الصيحات ! إنها صيحات النصر التي من شأنها أنْ توقظ، ليس المرضى فقط، وإنما الأموات. اقتربَت، ودون أدنى تردّد، من بعيد، ارتمت بين ذراعيّ. وبعد ذلك جاءت روسيا. جاءت تحت قبّعتها الشمسية العريضة، بفستانها المكشوف الرقبة والكتفين والذراعين، وسحنتها التي أجّجها توهّج هذا اليوم، وبعيونها نجوم بلا حد، نجوم تبتسم، روسيا

أجمل من أي وقت مضى. أريد الاحتفاظ **لا يعرف السكوت، لا يعرف كيف** : هل هي الكيفية الوحيدة التي نتلقى بها الحب ؟ الاحتفاظ بهذه اللحظة، أن أكون مستعدا لأرمي بنفسي في اللهب الخالد من أجلها. إلا إذا اخترنا مملكة الظلمات الخالدة، حيث يمكن الاعتقاد بأننا في حماية آمنة، مع ما لدينا، حيث يمكن الولوج إلى حيث لا يوجد أي شخص سوى الشخص الذي نحب.

دخلت هي وليبل معي داخل دورة المياه، تنظران إليّ وأنا أنهي ارتداء ملابسي. أزفهما الخبر : عندئذ، وبخفة مرحة، دون أن تفقد دقيقة واحدة، التقطت ليبل ملابسي الساقطة أرضا.

ذهبتُ لأودّع الطبيبة الشابة التي اهتمَّت بي، امرأة جميلة، ليست من تلك النساء العملاقات، وهو أمر نادر. لم أجدها، فودّعت الممرضات فقط. وبعد ذلك عدت عند جيران غرفتي. لم أجد إلا ذلك الشيخ السقيم، أما الثاني فقد اختفى عن الأنظار. لا يُمكن للشيخ إلا أن يبقى حيث يوجد، لم أره إلا ممدّدا، إلا منهارا في نوع من الذهول. مددت له يدي فأمسكها في يده العظمية. أمسكها ولم يرخ شدّها. يكنّ لي احتراما كبيرا : عن طريق روسيا، قال لي بأنّه في حالة جيدة، وتمنى لي عودة مريحة إلى بيتي. قام بجهد يائس خاص بشخص غير مبال بالحياة. وروسيا تترجم، تترجم. اكتفَيت بالسماع، اندهشت لرؤية هذا الجسد المنهك ينتج، بهذا الصوت الخشن، هذا الكم من الكلام، ينتجه عمدا في ساعة ذهابي مثلما

لم يفعله من قبل، ليبقينا بقربه لمدّة أكثر. بحث الصوت عن أحداث بعيدة في ذاكرته. في تلك اللحظة انتابني حرج لم أجد له تفسيرا. فسرّح يدي، تركها تتحرّر، فسقطت يده هامدة على السرير، إلى جوار جسد لم يرفع الإزار إلا قليلا. احتفظت عند خروجي بإحساس تلك اليد المتشبّثة بيدي، والتي يبدو أنّ عودة نسغ ضعيف يسقيها. تطاردني الآن أيضا، بعد ساعة أو أكثر، همساته، ذلك الصوت الشبيه بصوت خشب ميت يحاول استئناف الحياة، استعادة اخضراره. وربما لم يعد موجودا، أو لن يكون موجودا بعد فترة قصيرة. ويمكن أنْ تكون أمّك. أو الاثنان معا في لحظة واحدة. ربما يكونان قد التقيا بالملائكة معا، ويكون الموت قد قام بتبييض وجههما معا ؟ مَرْحى للملائكة...

الطاكسي. ليبل بين روسيا وبيني. وسعادتها التي تخفيها في الحرارة الوحيدة التي نغمرها بها نحن الاثنان. لم تمر تلك السعادة بدون إدراك، بذبذباتها، برناتها التي تبعثرت في جميع الاتجاهات.

لم تتغيّر روسيا خلال هذه الأيام القليلة. ربّما كانت النظرة ترتسم، وبداخلها ذلك الظل الكثيف، وجه أبيض على جدار أبيض. كما لو أنها نظرة أخرى لا تدركها. تتنهّد من أجلها، أو يبدو أنها تفعل، في حنين غير قابل للشفاء، بعد ذات أخرى. ومع ذلك، يبقى ذلك الشيء المستعد للابتسامة عندما تثبت عينيك عليه.

كانت روسيا سابقا تقول لي : «أنت مرآتي التي أرى فيها الكون». وأعتَقد أني لم أعد كذلك ؛ الآن، ينتصب ذلك الظل بيننا.

في بعض الأيام، تقول هذا بشكل مختلف :

«أرى نفسي في مراياك، إذَن روحُك هي أنا».

وبعد هذا، المنزل، ولكن قبل الوصول إليه، أعيد اكتشاف الحقول، الريف الحقيقي، الأشجار، النباتات في رطوبتها المنعشة، اخضرارها الابتدائي، والتي تتحرّك، ترتجف، تلمع. بعد ضباب المدينة الحار، أصبح للهواء شفافية الزجاج، لوح الزجاج الذي نمرّر عبره الذراع بكل آمان. قريبا سيظهر المنزل. على الطريقة الروسية، بالخشب، داتشا بلون أخضر مائي وجميع تلك الأشياء التي نعتقد أننا نعرفها جيدا، وجميع تلك الأحاسيس ؛ الحديقة اللاصقة مع الغابة الممتدة بعيدا ؛ الكتلة التائهة حيث أعلّم ليبل القَفز ؛ حوض الرمل. جميع هذه الأشياء التي نتصوّر أننا نعرفها، أو ننتظر التعرف عليها، نفس الصور، والحياة العائلية التي تنتظر لتستأنف حياتها، تستعيد توهجها، أن ندخل إليها، أن نذوب فيها. قلت :

- يبدو أنّ كل شيء قد تغيّر وباقٍ على حاله في آن واحد.

قالت روسيا :

- هكذا هي الأشياء.

- تنسانا. كم يسهل عليها هذا الأمر !

- لأنها تبقى.

- تتعلق بأولئك الذين يبقون. وإلا فإنها ستنسانا.

قالت روسيا :

- يوجد شيء من هذا.

- بُمجرّد أنْ ندير لها ظهورنا. ولكن الناس ؟

- آه، الناس ؟

- نعم : آه، الناس !

نامت ليبل أثناء الطريق، رأسها على ركبتي، ولم تستيقظ إلا في اللحظة التي توقفت السيارة قرب المنزل. كانت منتعشة، أراحها النوم، ففتحت الدهشة عينيها على اتساعهما ولم تفارقني نظرتها. حكّت خدها المحمر على كم بدلتي، ليبل-القطة، كمن يفكر : «لا توجد مناسبات جيدة لمثل هذا».

دخلنا وقادتني ليبل-سيّدة البيت من اليد وهي تردّد :

- تعالى بابا. اجلس هنا... انظر، ولكن انظر بابا !

ركضَت لتحضِر «حيوانها اللطيف»، مثلما تسميه، مفضلها، سنجاب كله فرو.

- خذه بابا.

أغلقت ذراعيّ عليه، وكم من عنايات أخرى، أنواع عديدة من العنايات، بالإيماءات، بحركات غنج.

- افعل هذا، بابا ؛ افعل هذا...

تتساقط الرعاية كما هذه الدّرر، الضحكات التي تنثرها. وأنا لم أطلب إلا السقوط تحت آثار تلك الفتنة.

كانت منفعلة إلى حدّ أنها ترتمي على عنقي في لحظات لم أكن أنتظر مثل هذا التدفّق العاطفي. لم تتصرف بهذه الطريقة مع أحد. أحيانا، تحاول إحاطة ساقيّ بذراعيها، إن كنت واقفا، لترفعني.

لم ترَ - أكيد لأنها كانت نائمة- سيارة الإسعاف التي جاءت لتأخذني. أخبرتها روسيا عند استيقاظها وهي تتساءل عن مكاني، مُندهشة. قالت لي روسيا بأن النهار يشبه الأيام الأخرى، ولكن الليل لا يشبه الليالي الأخرى. فكانت ليلى تنام في البداية بنوم هادئ. ثمّ يبدأ الاضطراب، الذي يتحوّل عندها إلى كابوس. عادة ما ينتهي بها الأمر إلى الانتصاب على سريرها وهي تبكي وتصرخ.

- أذهب عند بابا ! أذهب عند بابا !

استيقَظت في الليالي التالية، حتى بَعد مجيئها إلى المستشفى، وفي جميع الليالي وهي تصرخ : «لنذهب عند بابا !»

روَت لي روسيا جميع هذه الأحداث قبل قليل ونحن داخل الطاكسي، لم تكلمني عنها قبل اليوم. وأضافت أنها كانت

مجبرة لأخذها إلى سريرها كي تواسيها، ولكن حزن ليبل لم يكن يهدأ، لم يكن يمر. تنام ثانية، وفي نومها تستأنف بكاءها.

في هذه الساعة، كانت نيفرتيتَتي تستسلم لبهجة هي انعكاس تام لبهجتي أنا. نفّذت أمري عندما طلبت منها أنْ تضع حذاءيها قبل أنْ تذهب إلى الحديقة. رجلاها المرهفتان : شيء إضافي يجعلني أتعرّف على نفسي فيها، شيء آخر إضافي. والعجيب أنّها ابتلعت قطعتين من الحلوى التي حضّرتها جدّتها، هذه السيّدة العجوز التي تحقق المعجزات في صمت، وهي المتعوّدة على الأكل القليل. أتَت الجدّة بلبيل إلى المستشفى، وحضّرت الحلوى احتفالا بعودتي. كانت تفعل الشيء الكثير، بتلك الأنفة الصامتة، والابتسامة، نفس الابتسامة المتأسفة، التي لا تغادرها أبدا !

عملت ليبل طوال بقية النهار على إرجاع صورة سعادتي الأقل اضطرابا. كنت الوحيد العارف وكانت متعتي مكتملة. لماذا نغمض العينين في الثانية المحددة التي تنفتح فيها أبواب الجنّة ؟ أبسبَب النور الكثيف الذي يتدفق منها ؟ ينبغي الدخول بعينين منفتحتين. عينايّ منفتحتان على اتساعهما.

تقول ليبل و هكذا

هكذا. أنا مهمَلة. مَن أهملني ولماذا ؟ إلهي كيف لي أنْ أعرف... في كل مرّة يغادرنا، يغيب عنا مدّةً. كما لو أنّه ميّت في تلك اللحظات. وحينما يعود إلينا يحي من جديد. لم يذهب بعد. ولكنه سيذهب. لا أكاد أتعرّف عليه في اليوم الأول، ليس نفس الأب عندما يعود لا أعرف من أين. من الموت، أكيد. لا أعرف أين يوجد. وبعد ذلك أتعرّف عليه، إنّه من جديد أبي الذي أعرفه. ولكنه لا يمكث معنا إلا مدّةً وجيزة ويعود إلى هناك، لا أعرف أين. ربّما سيتعب من فرط الذهاب والإياب. الذهاب للموت، ثمّ الظهور ثانية للحياة، ليموت من جديد، ثمّ يحي من جديد. كم يكون هذا الأمر متعبا ؟ كما الذهاب إلى المدرسة، والعودة منها لمرات عديدة. أَنا أيضا، أموت كل يوم. ولكن الطيور، الأزهار، الأشجار، السماء ؟ ولكن أمّي ؟ لا أعرف. آه ! كم أريد أنْ أكون طائرا ! نورَس. سأكون حرّة. سأطير بعيدا، سأرى بلدانا بناسها. ربما سأصل إلى غاية الجَنّة. على كل حال، ليس بمقدور أيّ ماكر أن يلحق بي، صدِّقوني. إذا حاول أحد أنْ يضرّ بي، ضربة جناح واحدة،

وها هي النورس تحلّق في العُلا. سأقهقه من الأعلى كما تفعل النوارس. سأسخر منه. أحيانا يناديني أبي نيفرتيتي، ربّما تعني النورس في لغته. بابا وأنا، يتكلّم كل واحد لغته. إنها لغة أخرى، ولكنّني أفهم كل ما يقوله حتى وإن لا أعرف الكلمات. كما أفهم كل ما لا يقوله أيضا. إنّ الأطفال الضائعين مُجبَرون على الفهم، والابتسام كي لا يبكون. هل أنا طفلة ضائعة ؟ سأبتسم، سأكون هادئة أكثر. والآن، أنتظر، بلا حراك، هادئة، أن تفكّر الأشياء في أمور أخرى، أنْ لا تهتم بي. يتطلب ذلك منها وقتا. وبعد ذلك الوقت، يُضاف إليه وقت آخر. الآن، أراقبها خلسة. ها هي هلعة. إلهي، إنها تفقد صوابها ! تستعجل لاسترجاع هيئتها الأولى، هذه السحنة غير المبالية التي تكتسيها عادة. فْلِكْ، فْلَكْ، فْلُكْ، الضرب في الماء، شيء مضحك !

ولكن في مكان ما، يوجد شيء. لا أستطيع مَعرفة ما هو، إنه ضائع فقط. إنّه شيء ضائع يوجد هنا باستمرار. يثير البهجة. إذا أردنا ؛ كما الثلج الذي نكتشفه في الحديقة عند استيقاظنا. لم يكن هناك شيء، والآن يوجد هذا الثلج الرائع كشيء ضائع وُجد هنا دائما. بعد العثور عليه، أتحدّث عن الشيء، يمكن أنْ نفعل به ما نريد. ولكنه يتغيّر مع الزمان، تماما مثلما يمرّ. بإمكانه أن يذهب مثلا للاستقرار في أوراق شجرة. إنّه لا ينام، حتى وإن كانت الشجرة تنام. في الصباح، هي التي تنادي في ساعة مبكرة النور في الأوراق. تعرف الشمس أنه يختفي هنا. وتبحث عنه حيث يوجد. حينما يتكلّم

مثلما يفعل الآن، أسمع ما لا يمكن سماعه. سأعرف كيف يكون ذلك الشيء، بشرط أن يكون أبي وأمّي متوفيين. إنه أشبه بأولئك الناس الذين يستولون على كامل النور بوجوههم ويأخذونه معهم. ويبقى الآخرون بثقب أسود في مكان الوجه.

في الوقت نفسه، تسقط الشمس، تسقط كثيرا. لقد امتلأ الحوض الرملي. لو تواصل الشمس على هذه الوتيرة، سينتهي بي المطاف إلى الغرق. أسبح. يتزايد السيلان أكثر فأكثر، أسبح، والأزهار أيضا، والمنزل أيضا، والأشجار أيضا، والفراشات أيضا. الكلّ يسبح. أنا سوداء من الشمس. تقول «ماني»، وليست وحدها، بأنني كنت سوداء وأنا رضيعة. ها أنا أصير سوداء ثانية. والحديقة بأشجارها الكثيفة كما الليل، أزهارها، فراشاتها، العشب في الأسفل، السماء في الأعلى، المنزل بينهما : جميعها سوداء. لا يوجد شيء آخر تحت عينيّ، لا يوجد إلا الكون، الصمت والضوضاء، وأنا. ليس للأشباح إلا الليل منزلا لها وفي وسط النهار، تلك التي تبقى هي أطفال ضائعون وترتجف. أنظر، أسمَع. ترتجف. أنظر، أسمع. وإلا ستُنسى كلّ الأشياء، وسأكون ضمن الأشياء المنسية. نعم، منسية في المكان الذي أتواجد فيه، في حوض الرمل هذا. إلهي، هل يمكن أنْ يكون شخص بصدد نسياني في هذه اللحظة !... ولكن شيء آخر بصدد أنْ يُذكَر وأنتظر ؛ قلبي على وشك الخروج من صدري كي أذهب للبحث عنه. هذا الشيء. مهما كان بُعدُه. يريد، يريد الذهاب، قلبي، ويتركني. إنّ الحياة تشغلني كثيرا، أقضي وقتا طويلا أنظر إليها فقط.

ومَع ذلك، لا أرى إلا ما يجري أمامي. وخلال ذلك، ماذا يحدث خلفي ؟ خلال هذا الوقت، يذهب قلبي. أنا مهمَلة. يجري قلبي ويتمزّق. يتوقف أحيانا كي يبحث عن الجهة التي يقصدها، أتوقف عن التنفس. ثمّ يستأنف ركضه. يكمن حزني في ما أنساه. أبي وأمّي هنا معه، مع الشيء الذي يوشك أن يُذكّر نفسه، وسأتذكّر، أنا أيضا، ولكنني لا أترك حزني يصعد أعلى من ركبتيّ.

وهكذا. جاء وجه أمّي يندسّ بيني وبين هذا الشيء. إنها النهاية. لا أستطيع رؤية الشيء، ولا شيء آخر، ولا يمكنه أنْ يعثر عليّ. تارة تكون أمي داخل المنزل، تارة في الخارج، مُنشغلة، وجهها أشبه بذلك الوجه القلق والجميل الذي رأيته في مكان آخر، بذلك البياض العادي الذي يعبر الحديقة، ليس في جميع الأيام، وإنّما في بعضها فقط. بداية الانتظار ثانية ؟ مواصلة الانتظار بهدوء ؟ من جديد، بعد هذا التوقف ؟ كما الأغنية التي تبقى بلا صوت في الثانية التي سيقول لك ما تريد معرفته. بدوري، بقيت بلا صوت. أنا طرشاء وبكماء. بدأت الحياةُ اليومَ بدوني. وستَرون بأنّها سَتنتَهي بدوني أيضا.

في انتظار ذلك، كما لو أنّه لم يحدث شيء، تتجوّل الدعسوقة بين قشّ العُشب، فتتحسّس لترى إنْ كان هناك ديدان. تحكّ، تحفر أعشاشا. تصنع واحدا لكل فرد من صغارها. وبعد ذلك تذهب للبحث عن أكلها وتغذي ذريتها. بدأ مطر الشمس يسقط. يسقط، إنه دافئ ولكننا لا نشعر به، فتنطلق صيحات

من جميع الجهات. دائما في الانتظار، مَن يتكلم بجناحيه ؟ من يتكلم بعينيه ؟ من ذلك الأخضر، الأزرق، الرمادي، الأصفر الذي يحلّق كما أفكار الروح ؟ ومَن يبكي، ويضحك ضحكة بيضاء في جسده الأسود ؟ من يُسجن هذه الحديقة داخل يديه الخفيفتَين ؟ مَن لماذا وكيف تحوطني، كما لو أنّها بلد طيور. نصاب بقليل من الجنون حينما نُحب عيونَ القطط المذهبة. قطّتنا ممدّة تحت الشمس، تتمرّغ على إبر الصنوبر، تنظر إليّ، العين في العين. أنا مجنونة بعينيها. يقول هؤلاء وأولئك : لا ينامون أبدا إلا بعَين واحدة. أنا أقول : ينامون بعيون مفتوحة على اتّساعها، بذهبها الذي يواصل رؤيته لنا. إنّ البهائم أقلّ بلادة. على خلاف الناس.

اشّشت ! يواصل الشيء، الشيء السابق للأشياء، شيء الجهة الأخرى من الأشياء. لا أراه، ولكنني أحس أنه هنا. ربّما أمكن لي رؤيته إنْ بقيت بلا حراك، إنْ نظرت طوال الوقت بلا حراك. إنه على وشك الظهور. كاد يظهر ولكن ذهني كان شاردا. سيظهر وسأتعرّف عليه. سيكون شيئا مثل... أب، أمّ، سعادة غير معبّر عنها بيأس. أقضي جلّ وقتي في البحث عنه. سأتعرّف عليه، وسأتعرّف عليها جميعا، وسيكون الوضع قويا، قويا جدا، قوة ستسحق قلبي. سيكون الوضعُ جميلا، سيكون مرعبا من فرط جماله.

وإنْ كان شيئا قبيحا ومُرعبا في آن واحد ؟ سيكون ملَكا غاضبا. سأقول له كلمات لم يتلفّظ بها أحدٌ قبلي. أراقب بعناية

قصوى كل حراك، كمن يسمع بعينيه. أسمع الملَك الغاضب إنْ وصل، مهما كان القبح الذي يكون عليه. أقول كلمات مثل : الربّ العليّ القدير أو المولى. أشياء من هذا القبيل. بالطبع، ليس لها أيّ معنى. ثمّ أستجمع كامل قوتي، أو هكذا بدا لي، وأهمس : «أيها الربّ، أو المولى أو أيّ اسم آخر، ساعدني». فأراقب كل شيء بعناية أكبر. ولكن الذي نقوله، والذي نفعله، هو دائما حكاية، ما نراه، ما نكونه، حكاية لا تنتهي هي نفسها من الحكي. في تحليقها المستمر، تتحوّل السنونوات إلى إبَر، وتخيط الحكاية بمفردها، أعني أنها تفعل ذلك دون يد للإمساك بالخيط. هكذا هو الحال. تخيط، تخيط. بحيث لا نكاد نعرف متى ستنتهي. ربّما ليس قبل ساعات، ساعة بعد أخرى لإتمام اليوم. وربّما كانت، بخيطها غير المرئي، تخيط الأوراق إلى الأشجار، المنازل إلى المنازل، الغيوم إلى السماء، تخيط الكون، ترقّع ثقوبه، كما الدونتيلا. في انتظار ذلك، تخيط وتضحك فيما بينها.

أبي، يخيط الحكايات، أو بالأحرى إنه صوته. طوال الوقت، وأنظر إلى فمه الذي يخيط وإلى الأسنان التي تخيط داخل فمه، أنظر، أكتفي بالنظر، لم أعد أسمع. الحال أنّ صوته خيّطني داخل الحكاية، حكاية دافئة مثل يد، مثل يده. وأمّي، ماذا تفعل ؟ أشياء عديدة. ما تفعله كل أمّ. أحيانا تخرج من المنزل، وتبتسم لي. تدخل. أصبحَت الحديقة كبيرةً جدا. أصبحَت دغلا. يمكنها أنْ تفعل ما تريد، إنها أمّي بالكامل. أحبّها، أحبّها، أحبّها. أنا خائفة، من فرط حبّي، أشعُر دوما بالخوف.

أمّا أبي فأعرف أنّه جالس إلى مكتبه، وهو ليس له وإنما مكتب أمّي. تتركه له حينما يأتي ويشتغل على مكتب أمي. يذهَب دائما وأفكر دائما : «هل هو بحاجة إلى أن يموت هكذا في كل مرّة ؟» طائر يغرّد الشمسَ وظلالها، الصمتَ وضوضاءه. من يصرّ على التفريق بيننا ؟ سوف لن يقوله، ذلك الطائر الذي يغرّد، وحينما سيذهب ليموت، سوف لن يقوله الطائر أيضا. حينما يحين الوقت، يغرّد. يوجد الأب ليكون بعيدا ولكي تفكّر فيه ابنته الصغيرة. نيفرتيتي مثلما يقول. في هذه اللحظة، يشتغل في الطابق العلوي، جالسا بقرب النافذة، في مكتبه الذي ليس مكتبه، إنه يوجد ويشتغل في قلبه. أتصوّر، أرى في عمق قلبي رأسه منحنيا فوق أوراقه. هو أيضا سيراني لو ينحني على هذه النافذة، لو ينحني جيّدا. حينما ترجع أمّي إلى البيت، بعد أنْ تكون قد تجوّلت قليلا في الحديقة، تقبله على الرقبة. أعرف، لقد رأيتها. أمّا أنا فلا يسرّني أنْ أقبِّل أحدا. أنا، أعمل على التفكير فيه. كيف يمكن لرجل وامرأة، ونساء، أن يعيشوا في منزل واحد ؟ نحن ثلاث نِساء : أمّي، ماني وأنا. ورجل واحد، بابا. كيف أمكن ذلك ؟

يمتلئ قلبي بالمفاجآت كلما فكّرت فيها، تنبت له أجنحة، وتصفّق، أتحدّث عن قلبي، تصفّق. هذه هي السعادة، من يعرف ؟ تصفق ويحلق قلبي معها. أنا أيضا، لو فتحت ذراعيّ، أظن أنني سأطير. سأذهب لأشرب مياهَ السماء. يقول أبي : «إنها لسعادة قصوى أن تكون لدينا مثل هذه الطفلة»، ويرتجف قلبي عند سماعي لهذه الكلمات، مثلي عارية تماما

خلال اغتسالي، يرتجف مثل طفل عار. إذن، أنا ذاتي سعادة. يقول أيضا بأن أمّه ستموت هناك في بلدها حيث تقيم لا أعرف أين ولم ترني أبدا. لذلك فهي لن تتعرّف عليّ أبدا، لن تعرف السعادة التي أمَثّلها. يقول أبي إنّها سوف لن تندهش إنْ رأتني من فرط تشبيهي لبنات هذا البلد هناك. يقول : « إنها فلافل حارة». أنا سعادة حارة كما الفلفل. ولكنها سوف لن تتعرّف عليّ، ولن أتعرّف عليها. سوف لن تعرف أنني سعادة وفلفل حار. أو ربّما حينما ترجع من الموت. ربما ذات يوم ؟ ولكنّني هل سأكون فلفلا حارا في ذلك اليوم ؟ بقيت لي أمّ أمّي. وسيموت أبي أيضا. أفضّل أنْ أموت قبل ذلك.

ننتظر دائما شيئا ما، ويمكن أن يكون أيّ شيء. كما يمكن أن يكون أجمل شيء في الكون. ويمكن أنْ يكون مُرعبا أيضا. حينها سيُصبح كل شيء مرعبا. يمكن أنْ لا يَحدث هذا أبدا. عيناي هي أنا وتمسّان الأشياء، تأخذانها. الآن، السماء خفيفة كما لو أنها غير موجودة. آخذها بعينيّ. لقد سقط نور الشمس وتكسّر إلى فُتات صَغير. ألتقطه بعينيّ. انتظرتُ طويلا هذا اليوم، أفضّل الدخول، الالتحاق بأبي وأمّي. إنْ كانت أمّي تغسل الأواني، سأقوم بمسحها، تلك الأواني في إنائها الأحمر. إذا كانت تفعل شيئا آخر لا أقدر عليه، سأشتغل مع أبي. وإذا كان يطالع كتابا فقط، أطلب منه أنْ يضع لي قرص بيتر بان، أو آخر. سوف لن يزعجه قرص. وحينما نكون على

طاولة الأكل، ينبغي عليّ أن أنظر جيدا إلى وجهيهما، وجه أمي ووجه أبي : لا يملكان واحدا فقط. لقد راقبتهما، إلهي، ولمرات عديدة ! ولكن يكفي أن أدير رأسي وكم هو مرعب الإحساس الذي ينتابني فجأة ؛ كما لو أنني لم أرهما أبدا، ولم أعرفهما أبدا. الواحد والآخر، أبي وأمّي، كما لو أني لم أرهما أبدا، ولم أعرفهما أبدا. وفي تلك اللحظة، أتساءل عما يحدث لي، أو عما سيحدث لي. أكيد أنه شيء مرعب. يبدو تقريبا من المستحيل أن ننظر إلى وجه. وجه بفمه الذي ينفتح، يتحرّك، يتلوى. لا نعرف ما يمكن أن يخرج منه. نُحب أنْ نرى ماذا، ولكننا نخاف من رؤيته. تفكّر أمي بأنّ رؤية فم شيء جيد حينما يكون الفم جيّدا، ولكن حينما لا يكون كذلك، نفضّل الاختفاء بعيدا عنه. أنا أيضا أريد الاختفاء بعيدا عن هذا الفم، الاختفاء تحت الأرض. إنه جيد حينما يضحك. أما أنا فأفضّله مبتسما. والعيون. هذه العيون التي تراقبك وهي تتظاهر بالعكس، أو أنها تتظاهر بالنوم وهي منفتحة. العيون، تلك الأشياء التي ترى، التي تعرف، التي تفكّر. إنها تثير في نفسي الحمى. ليس أسهل من السقوط داخلها، حينما تكون العيون تحبك، وتنسى أين سقطت. صحراء، يمكنها أن تتحوّل إلى صحراء، إلى لا مكان. أحيانا، وليس دائما، تتحوّل نظرة أمّي إلى صحراء، أحيانا إلى ذلك اللامكان الذي لم يعد يرى، ولا يعرف ولا يفكّر. أمّا نظرة أبي فتكون لطيفة جدا في بعض اللحظات، كما نظرة بهيمة مجهولة.

الآن، أرى عبر النافذة الليل يُشعل شموعه الصغيرة، بعضها في السماء، والبعض الآخر غير بعيد عن الأرض. نظن أنّ المنازل، خلف سياجاتها، تفتح عيونها بعد أن تكون قد نامت طول النهار. نحن أيضا، يمكننا وضع شمعة على الطاولة، ونقول : «نتناول الشاي برفقة نجمة». ها هي الأشجار في الخارج تشكّل الآن أمواجا، وأنّ منزلنا يسمع مثلما تسمع السفينة هدير الأموات. ربّما يكون الآن قد أبحر. ولكن هل ينام الليل حينما ننام ؟ ولكنه لا يملك سريرا لينام عليه !

أحيانا يتحدّث بمفرده في الحديقة، وأحيانا أخرى يضحك. يزداد بياضه وينفث حرارته على خدّي. ربّما سيخرج من ليله. ربّما سيأخذ يدي، وينام في سريري، هو الذي لا يملك سريرا ينام فيه، ويواصل حكايته. يا سيّدي الليل، قُل لي لماذا ولماذا يبقى القلب مع النور الذي يسهر ؟ لماذا ولماذا سيموت النور أيضا وسيأتي الظلام ؟ لماذا ولماذا لا يعرف الموت كيف يموت ؟ لماذا، لماذا...

صباح تَتَرية

ليبل، في الغد عند استيقاظها. **ألا يريد السارد أن يسكت، صوته، الصوت الذي يقول، أنا، سيواصل بمفرده. سوف يتكلم مثلما يفعل الشخص مع نفسه.** الترتيبات الجيّدة نفسها. آخذها إلى الطاولة، دائما مع نفس الترتيبات الجيدة، لا تقاوم، لا تنتفض ؛ لا تبحث عن تضليلنا وتفعل أيّ شيء. على الطاولة، تعتني بحسائها الشعيري ولا ترفع صوتها كما الأصباح الأخرى لتهتم في آن نفسه بالكل واللا شيء. إذا قلت لها شيئا، تسمعني، تسمع هذا الشيء الذي أقوله لها. تصرّ على إبرازه لي، وبأنها تأكل جيدا. مع أنها ليست جائعة، أعرف ذلك. هذه الطفلة لا تجوع أبدا. لا تجهل إلى أيّة درجة أحبها وكم أنا مُعجب بها. تؤكدها تلك الهيئة بين هيئتين التي لا يمكن أن تمنع نفسها من اتخاذها، تتحدّث من أجلها.

العادة المرسَّخة في المنزل هي أن لا نرى في ليبل إلا رأسا خشنا. لا يجب بالأخص أن نتركها تفعل. تفعل ماذا ؟ الشيطان وحده العارف. تفعل مثلما يقول لها رأسُها. وتُستحضَر المبادئ

القديمة، تربية قائمة على الردع والقوة، عانت منها المرأتان في عهدهما. قالت لي روسيا كم تعذّبت في صغرها. واليوم تستعين، بمعية أمّها، بهذه المبادئ القديمة في معاملتها مع ابنتها، دون وعي بخطورتها. ولكن ليبل من النوع الذي يحسن الدفاع عن نفسه. إنها مَفجَرة، ليبل. ديناميت ستنفجّر في وجهك مهما كانت الشرارة ضئيلة. لا، أبدا لن تُنزل الراية. لهذا السبب، عادة ما يطقطق الجوّ في الطاولة برعود مغنطيسية.

أين ذهبَت ليبل لتجلب هذا الطبع الحرون ؟ عند أجدادها التتار طبعا. نصفها الأوّل من روسيا التي لها بعض الأجداد من التتار. ولم أتفاجأ بالأمر حينما أخبرتني روسيا في العهد الأول من علاقتنا، برغم أنّ هذا الأصل لم يكن مؤشّرا عليه بأيّ خط ماثل عندها، هي الشقراء الصهباء بالكامل ؛ ما عدا ربما طيّ خفيف للجفن الأعلى. ونصفها الثاني منّي أنا. بالتأكيد هم نفس التتار قبل أن يسلكوا دروبا مختلفة (إن الصدف التي وزّعتهم على رياح التاريخ والجغرافيا جمعتهم اليوم فينا وفي ليبل، سنبقى «تتار-أوغوز» برائحة السهوب والزبدة الحادة لاصقة بجلودنا، هذه الرائحة التي ربّما ساعدتنا على التعرّف بعضنا ببعض : روسيا التي لم تتمكن من التخلّص منها، حتى وإن اغتسلت عشرين مرة في اليوم -الاغتسال هوايتها- وأنا. من جهة أخرى زعمَت روسيا أنها أحبّتني لرائحتي، وأنا لا أعرف لماذا. **يقول، لا أعرف لماذا ؛ كانت رغبته مضاعفة برغبة أخرى : رغبة اتّحاد، اتّصال يعود إلى نقطة الذهاب انطلاقا من نقطة الالتقاء، ركض جديد نحو الخلف، رغبة**

ستحوّلك إلى شبح تائه لا يشبع أبدا والذي يبحث في كل مكان. قَدَر. وكيف نندهش أنْ يحدث الموعد على هذه الأرض في الطرف الآخر من العالم بعد قرون من الركض ؟)

مرور الأيام الهادئ، الصَبر الطويل، الإيقاعات، الشعائر، الكمال، حسّاس إلى غاية ارتجاف أوراق الأشجار. ضوضاء تكتفي بالعبور، أمطار، خطوات الزمان الراكض على الحصى، في الحديقة، خارج المنزل. ننشغل بالحياة. وينشغل الزمان بحياتنا. إن الزمان الذي اتّخذتُه حليفا لي كي يُجهز على حبنا أعطى له الضربة القاضية. أعيش هنا وأنقل الأفعال والحركات إلى مكان آخر، في مستقبل لا مكان فيه لروسيا. بدأ المستقبل بدونها، يشتغل ضدنا. حينما يغرق الحبّ، ماذا بقي لك أنْ تفعل ؟

ليس لأن روسيا تجاهلت لطُرفة عين ما ابتعد بداخلي، ويريد التفكير في شيء آخر أو أنه ينام دون أن يجدها أكثر حضورا في أحلامه. لقد كنا سعيدَين معا، وتشابكت أيدينا، تلاحمت شفاهنا، أجسادنا، هي أصبحت ينبوعا بداخلي، وأنا اتخذت جذورا بداخلها، أعترف بأن الأمر ليس سهلا. لقد عرف كل واحد منا طعم وحرارة ونعومة الآخر، يبدو أنّ كل شيء سيستمر كسابق عهده، ولا شيء كسابق عهده. ألا يقرّبنا الحبّ إلا من وهْم حينما يحرّرنا من ذاتنا كي يعرّفنا على هذه التي تمتلك تقاسيم روسيا ؟ وَهْمٌ عنيد، لا نقدر على إبعاده بحركة راجعة من اليد.

الصيف، الصيف المقبل، الأصياف الأخرى، يقول لي صوت بأنها ستعيش بدوننا. حلم مرحلي ومؤقّت تكون الحياة فيه قد هدهدتنا، وحلمت بنا أو دعتنا إلى أن لا نستيقظ إلا تحت نداء بهائها وفيض بهجتها، يكون هذا النداء قد مرّ علينا. رغم أننا في شهر أوت، إلا أنه بدأ يزرع الرماد خلفه. تتخفّف السماء والأنوار والأوراق على الأشجار، والجوّ الذي يحوطنا. يتّجه كل يوم إلى ندرة أكثر. لا ينتظر البلد إلا وقت الانسحاب، في هروب عصي المقاومة، إلى أقصى حدوده، حدود سيجتازها بسرعة ولا حدود أخرى خلفها. لكي تصل هذه الساعة، ربما ينبغي للثلج أن يدخل الميدان، وهذا ليس وقته. ولكنه سيكون هنا عن قريب. ومهما يكن، فإننا نشمّ رائحته في الهواء، في جميع الأوقات، محلقة، شفافة، قوية. لحد هذه اللحظة، ليس للقلب أن يشعر بثقله. احْتَرِق يا ملَك النار، احتَرق في هذه اللحظات، ثمّ اغْرق في الدموع كي تجد البرودة ثانية.

في طرف الطاولة، على كرسيها الخاص، ليبل محاطة جيدا، أمها من جهة، جدّتها من جهة أخرى.

إنها هنا، تعبّ الحليب، تملأ فمها، تجمع كل الحليب الذي يستطيع الخدّان احتواءه، لا تبلعه. وتزيد، وتزيد ؛ لا شيء يمرّ، الدقيقة تحتاج إلى دقيقة أخرى : تلك التي لا يجب أن تصل، وإنما وصلت، دقيقة الأسوأ. تبدأ خيوط رقيقة بيضاء تتسرّب من بين شفتيها. دائرة فمها محاطة بخط إسفيداجي وهذا يقطر، يصل إلى الذقن الذي يتحوّل إلى مزراب. سيلان

حوّلها إلى مهرّج. إنها بيلي هرماني. تعرف ذلك. تعرف ما تفعله. تعرف ما ينبغي فعله.

كانت عيناها لاصقتين فيّ، وهي تحاول كتم فيض من الضحك. ثمّ تضحك، وتلفظ بقية الحليب المخزّن داخل فمها على شكل مطر لترشّ كل ما يوجد أمامها. إنها مهرّج فعلا، مهرّج حقيقي. صاحَت باتجاهي عبر الطاولة :

- كاتو، بابا، أنظر، بابا، عندي قناع !

وافقتُ. نعم بنيّتي، عندك قناع. لا يسلّي هذا المشهد غيري. تفرّسَتها جدّتها بسحنة مرعبة. التزمَت روسيا الصمت، ذلك النوع من الصمت الذي يسبق العواصف.

بقي التهديد معلقا فوقنا خلال فترة لا نهاية لها، ثمّ انقضت تلك اللحظة ومعها التهديد. ومع ذلك أحسَسنا برائحة كبريت كادَت تُلهب الجوّ. لقد نجونا بأعجوبة.

الآن، يجب على ليبل أن تذهب إلى حديقة الأطفال التي تسميها مدرستي، وهي فعلا مدرسة أيضا. على كل حال، بالنسبة لليبل، يجب أنْ نقول مدرسة، إنّها مصرّة. إنها في الدرج، وروسيا تلاحقها. نزلت ليبل سلالم الدرج، واحدا واحدا، هكذا تحب، واحدا واحدا. دون أن أراها من مكاني، أنا متأكّد أنها لا تكترث وتتصرّف مثلما قرّرت. لماذا نريد لطفل أن يطيع دوما في حين أنّه طبيعيا لم يوجد للخضوع ؟

أسمعها، يجب أن أكون أطرش كي لا أسمعها تصرخ :

- إلى اللقاء بابا ! إلى اللقاء ! ناكيمين !

وهكذا عند كل درجة. وبّخَتها روسيا، ومع ذلك، رنّت ضربة حادة في أسفل الدرج، وارتفَع صوتها مرة أخرى : «إلى اللقاء، بابا !»

تواصَل هذا الصَخب في الخارج، عند المدخل المرتفع، وأسفله، وفي الحديقة، حيث أفترض أنّ روسيا تنتظرها.

- إلى الـد-قا-ء با-با !

لا يزال فمّي مليئا، نهضت ونزلت أيضا.

وقفت قرب النافذة التي تنفتح على الحديقة في الطابق الأرضي. تبتعدان معا في الممر الرئيسي، ليبل خلف أمّها، ليبل التي تمشي ثلاث خطوات وتلتفت لتودّعني بحركة من يدها، وهي العارفة أين أوجد وكيف أراقبهما، تمشي ثلاث خطوات أخرى، وتشير لي بحركة أخرى. إنها لا تميّز شيئا عبر الزجاج الذي يعزلني عن الخارج إن لم يكن ذلك الستار الصغير الذي أرفعه قليلا. ثلاث خطوات أخرى وتلتفت، تودّعني بحركة من يدها. وصلتا إلى طرف الممر الرئيسي، هي وروسيا، واختفتا. بقيتُ في النافذة، كان شبحاهما بالنسبة لي لا يزالان حاضرَين في المكان الذي ذابا فيه، المكان الذي تذوبان فيه باستمرار. لقد عمل التكرار المستمر على ثبتهما في ذلك المكان. كما في الحنين، عدم تحقّق حلم، يتكرّر هذا المشهد كل صباح. وإن كان كل هذا عبارة عن حلم لا غير ؟

اللحظة التي يكون فيها النقص أكثر حدّة، مشهد مُستَعد للوقوع ثانية بعد فترة طويلة، شهور، سنة، - أو سنوات قبل ذلك. النقص، في اللحظة نفسها التي تتكرّر فيها، في اللحظة التي يمرّ فيها دون أن يمرّ ذلك الذي عاد. أقودهما إلى مطار رواسي، الوقت منتصف النهار، ستأخذان الطائرة للرجوع إلى بلدهما. شهور، عام تقريبا، الصيف، ثم الخريف، ثمّ الشتاء، وها هو الربيع الآن. تدخل ليبل في الرواق الزجاجي الذي يؤدي إلى شرفة الركوب، يتدحرج السجاد الآلي الأسود الذي لا يتعب تحت أرجلهما، ويقودهما، الواحدة والأخرى. تفقدان الاتصال مع الأرض الصلبة تحت عينيّ وانظر إليهما تبتعدان. الآن، تمنح ليبل اليد لروسيا. التفتَت نحوي وودّعتني باليد الثانية. من فوق سنواتها الثلاث فقط ومثلما كانت تفعل في الحديقة وهي ذاهبة إلى مدرستها. لم أرَ من روسيا إلا أسفل الفستان. انفصلت ليبل بقدم ولكن السجاد امتصها. يمتصها بقوة أكثر. وقبل أنْ يبتلعهما عمق الرواق، وضع مسافران أحذيتهما الخشنة على السجاد الآلي وحالا بيني وبين رؤيتهما. يُوجد دائما وفي كل مكان أشخاص لا يلاحظون شيئا أبدا. بمجرّد أن رأيت ليبل، انتبهَت والتفتَت، أدركَت أنها الرؤية الأخيرة. لم أرَ إلا ظهرها. وجمْت في مكاني، بقيَ نظري مصوبا في اتجاهها، وفجأة، أرى اليد الصغيرة التي تتحرك خلف الظهر ! كم هي عنيدة، ليبل، تبعث لي الإشارات إلى آخر لحظة. تلقيتها برغم المسافرين البليدين. لا تستسلم، لا تيأس، لا تهملني. انكمشت اليد خلف ظهرها، تواصل اليد، على عمق المعطف الأزرق البحري،

الانفتاح والانغلاق، مُحاولة المستحيل. صور، لحظات معزولة، راهنيات ؛ وتكرارها.هذا ما سيبقى. وماذا بعد ؟ سيأتي الموت يوما لينظر إليه ويطلب حقه، - ولكنه لن يكون موجودا، ولن يجد شيئا ينزعه منه. لا ترتبط عينايّ إلا بتلك الأصابع الصغيرة وبتلك الإشارات التي توجّهها إليّ. والتي ربّما لا تزال توجهها إليّ حتى بعد أن فقدْتُ رؤيتها.

ألعاب من أجل غفوة

فكّرت بأنني لن أرى ليبل ثانية، لقد افترقنا، روسيا وأنا، وعلاقتنا في الحضيض الأسفل. كانت القطيعة تتشكّل، حتمية، بلا رجعة، أمام هذا السجاد الآلي، بصمغه الأسود فيما كان ينزلق داخل الأنبوب الزجاجي ويحمل طرائده، الواحدة وراء الأخرى، ضحايا جسورة تتقدّم نحو سماء القدر المنجز، الذروة التي اختفت بداخلها روسيا وليبل في حركة موحّدة، صعود حتمي يشبه أكثر ما يشبه السقوطَ في الهاوية. بقيتُ جامدا أمام الممر الذي بدا كأنه يضيق باتجاه العمق، وكنت أراهما حاضرتين، يصعد الشبحان نحو الذروة التي لم تكن إلا هاوية. ويصرخ صوت الكوابيس، هائجا : «أبدا، أبدا... هكذا كان الحال، كنت أرى ما لا أراه. هذا هو، **الأذيّة المنبثقة من الكَسَح**.

اليوم، أنا هنا، معهما من جديد. لقد عدتُ وأصبحنا نقتَسم كل شيء، يلمع ضوء النهار. خلال شهور عديدة. لقد تجاهلنا بعضنا البعض خلال شهور، أقمنا بيننا قارة كاملة تقريبا. وها هو الصيف يلمع من أجلنا، متواصلا، شفافا، مظلما.

روسيا تحكي :

- قبل رجوعك بقليل، كنا عائدتين، ليبل وأنا، من المدرسة. سمعَت ليبل هدير طائرة. حينئذ، أشارت إلى السماء بأصبعها وصاحت : «بابا وصل ! بابا وصل !

ماذا نعرف عن الأطفال ؟ في سنّها، يبدو لي، أنّ ليبل راشدة، على مستوى مختلف عنّا، ولكنه رشد غريب آت من كون لا علاقة له بكوننا ولا يقل عنه بأي حال من الأحوال. قلت، يبدو لي، أزعم أنها كذلك، بشكل غريب. وإلا، متى تعلّمت كل ما تعرف ؟

تشير الساعة إلى العاشرة تقريبا ؛ لقد وضعناها في سريرها قبل قليل. إنه اليوم الذي تبقى فيه في المنزل. يَجب أنْ تنام قليلا مثلما تعوّدت أن تفعل في المدرسة-الحضانة. لقد بدأت تنقل إلى قَدم السرير كلّ ما يوجد في الرأس : الوسادة، الحيوانات الصوفية، الإزار، الغطاء. بعد هذا، ها هي تمارس تمارينها المألوفة. الساقان في الهواء تحركهما كما لو أنها فوق دراجة، الساقان متشابكتان مع القضبان الحديدية، الانقلابات، السقطات، التمدّد على الظهر. تجلس لتشرّع ساقيها على اتساعهما، ثمّ تغرس رجليها ويديها وجمجمتها داخل الفراش مبرزة مؤخرتها المغلفة في الحفاظة كي تقلد الكركدن. وبعد ذلك، تمدّد ساقيها وذراعيها، وتتحرك ببطء، بلطف، ومن جديد، تنكمش حول جسدها، وتؤدي حركة رقص : وبعد أن تكون قد دربّت كل قطعة من جسدها، تترك نفسها تنهار،

وتتمدّد مثلما قرّرت أن تفعل منذ البداية، رأسها عند قدم السرير، تديره نحوي ؛ أنا أمام الطاولة، في الطرف الآخر من الغرفة، أشتغل وأختلس إليها النظر بطرف العين. الآن، يراقبها النعاس، لا ينتظر إلا ثانية سهو من طرفها.

فوق أعلى الأشجار

نَمْ، رضيعي، نَمْ.

مهما كان الحال. كانت السيقان ترسم شكلا في الفضاء، ربما كان آخر شكل، يمسك تمدّده واتّساعه الجامح على أطراف أصابع قدميه مَزْقَة خلود معلّق وتنويما فاشلا. ثبات محفوف بالمخاطر، رائع إلى حدّ التخويف.

نَمْ، ستصفّر الريح

فوق أعلى الأشجار

ستهدهدك الريح.

ثمّ كبّات، هزّات، وثبات : ومن جديد التفجير. هذه المرة، دون أدنى شك، الاستعراض الأخير.

شُعاع شَمس

شعاع على المياه

مثل ابتسامة لك

انحطّت السيقان على الفراش، الرضاعة التي لم تغادر فمَها طوال هذا الوقت امتُصّت فجأة بجموح، «بصوت مرتفع».

على المياه ستلعبين

على المياه ستبتسمين

أصبحَت العينان اللتان تتأملانني حالمتَين، ويصل لمعانهما من بعيد، من بعيد جدا، نجوم في قلب الكون الأسود حيث تتلألأ عبر خفقات متقطّعة. رأيتُها من المكان الذي أحاول أن أعمل فيه، نجوم من الفحم بالنظرة التي تستطيع إثباتها عليك، انتصرَت مرّة أخرى ثمّ حاولت ابتلاع شعلتها.

متشابهان ومختلفان، يعمل الطفل والنهر بلا كلل على إعادة تنظيم سريرهما، متشابهة ومختلفة تلك الحياة التي تفتح طريقها، تخترع مجراها، ونحن، متشابهون ومختلفون، نعمل على تنظيم سريرنا. فبَعد أنْ فقدَت مياهَها في المروج، ثمّ وجدَت خيطها ثانية : الآن، حياتنا واحدة. واحدة ومتغيرة، نحافظ عليها، نحتفظ بها، نعيشها يوما بعد يوم، هذا اليوم الذي يضاف إلى الأيام السابقة، زيادة على تلك التي ستتبع. لقد ترجمت بضع صفحات أخرى ؛ إنّ الترجمة مهنتي. نشاط يؤدي إلى التفكير، حول موضوعه، وحول ما نفعله. يلتوي المعصم من فرط الكتابة دون أن تكون كاتبا، أو أن تكون كاتبا، وأحيانا كاتبا جيدا مثلما يُعرف البعض بذلك، أو يُعترَف بهم كذلك، إنها نشاط مفارق. نفضّل، نحن المترجمون، التقدّم خلف قناع مستلف والذي يكون بالنسبة إلينا الكاتب الآخر، دائما ذلك الأجنبي. وكي يكون الالتباس، أو الغموض، شاملا، مهيّجا، نفرض على أنفسنا تغيير القناع بشكل مستمر، ومن قناع إلى

القناع، نتبنى اليوم قناعا من جنسنا، وفي الغد قناعا من الجنس المضاد. سحر، غشّ، خداع الازدواج : عليك بالاختيار. يقدّم لك كاتب من خارج الحدود، ويواجهك منتج نص أهلي، - تحت هذا القناع.

كان ذاتَ مرّة وَقتٌ، وَقت الجنون العاشق وتبعية الروح التي نسايره، حيث بادَرنا معا، روسيا وأنا، ببعض الترجمات. كتابات قصيرة جدا، بلا قيمة حقيقية. إنها محاولة، العمل المشترك، في مثل هذه الحالة، حيث لا نستطيع الدفاع عنه إلا بصعوبة، خاصة وأنه يتخذ مظهر فعل إيماني إزاء الآخر وسط جميع الأفعال الإيمانية الأخرى التي نرغب بواسطتها تمتين الاتحاد، وختمه. Nonsense ! (مثلما يقول الإنجليز.) وهذا ينتهي دائما إلى إخفاق. أكيد أنّ اشتراكنا المؤقّت في العمل قد ساهم بفتح ثغرة تسرّب منها سوء التفاهم. تحت غطاء المواقف أو النظريات الشخصية المعبّر عنها في مسألة الترجمة، بدأنا نتوقف عند كل نقطة تفصيل وندخل في خلافات، والأصح أن نقول أنه جدل فارغ - حيث اتضّح لي أن روسيا قوية، أقوى منّي- بلا نهاية. جاء هذا الخلاف شيئا فشيئا، ومع ذلك بدأت الخلافات وإنْ كانت غير معلنة، لقد انفتحت أبوابها.

تعلّمتُ شَيئا عنّي في هذه المبادرة، أسجّله بالمناسبة ؛ إنْ كنت ميّالا إلى التصالح في أفعال الحياة اليومية، فإنّني أصبح صارما إلى حدّ الصلابة في العمل.

قضَينا كامل الليل تقريبا في المناقشة. إنها المرة الأولى منذ عودتي. كانت ليبل تتقلّب في سريرها باستمرار، وتتألّم. كنا نخنق أصواتنا، أو نجتهد لذلك، نتشاجر بلا صراخ. ليلة لا تُغتَفر، ليلة عبثية. لقد ذهب تصالح الأيام الأخيرة في مهب الريح، لم يصمد أمام السمّ المتسرّب إلى عروقنا. كانت ليبل تتنفّس الوخَم الذي كنا ننشره حولنا، ليبل البارعة في اكتشاف ما يصعب اكتشافه. كانت تستنشق تلك الروائح بملء رئتيها. إن لم يكن هذا الذي يؤثر في أعصابها طوال النهار ويربكها، أريد حقا أن أعرف ماذا. أصبحت عصية الاحتمال، تتصرّف بكيفية مستحيلة. هذه الليلة، ورغم احتياطاتنا، في أعزّ الليل، انتهى بها المطاف إلى الانتصاب باكية على سريرها. لا، إنها لا تفهم ما يحدث حولها : يا إلهي، لا أريد تصديقه ! فهي لا تبكي لحالها فقط. تبكي لأجلنا، علينا، بذلك الوجه المحمّر، المتشنّج.

هكذا، من ليلة إلى أخرى، نركض، روسيا وأنا، نحو مزيد من اللاإنسانية.

ها هو الصبح، أو بالأحرى الفجر، يفاجئني وعينايّ لم يغمض لهما جفن. كانت ليبل مستيقظة، أدرك ذلك. ولكنّني لا أسمعها. لا تتحرّك ولا تطالب، كعادتها، أن نأتي إليها. لا تناديني، ولا تنادي أمّها، لا تقول شيئا. حاضرة وغائبة – صابرة ؟– في سكونها، في صمتها، وتبقى كما هي.

بدأت أندهش. وفكّرت : يجب النهوض والذهاب إليها. أذهب نحو انتظارها. اتّخذت قراري. وصلت على بعد خطوتين من سريرها. تفاجأت بالنظرة التي ترمقني بها. نظرةٌ سَمّرَتني في مكاني. نائمة مثلما هي عليه، ممدّدة مثلما هي عليه، أكبر من حجمها الطبيعي. أقامَت عيناها الداكنتان اللامعتان حاجزا بيننا، جدارا. ماذا يعني هذا القرار الذي أقرأه ؟ عدوانية، لوم، غضب ؟

كيف لي أن أعرف ؟ سوف لن تساعدني على الإجابة عن السؤال. والحقيقة أمامي تبهرني. لم تبد حركة ولا إشارة، هي المتعوّدة على مدّ ذراعيها اتّجاهي بحماس فياض.

قدّمتُ يدا، غامرتُ بمداعبة. تركتني أفعل. لم تظهر أيّة رغبة في النهوض : لكانت قد وقفت على رجليها. لا هذه الرغبة ولا أخرى. أغمضَت عينيها شيئا فشيئا، أو أنها تجتهد لذلك. خفقت جفونُها كما لو أنها تطلب النوم من جديد. تركتُ يدي على صدرها. تركتها هكذا آملا في مساعدتها. لم تدفعها، ولكنها كانت مستعدة للغوص في النوم، لذلك التزمَت السكون. تحتفظ نيفرتيتَتي بحنانها لنفسها. أو ربما تحتفظ به لتحالف أجهله، هي التي أصرّت على البقاء خارج أيّ اتصال معي. ذهبت هي للبحث عن النوم، وعُدت أنا أتمدّد في مكاني. لم يحن بعد وقت النهوض.

أشغل وقتي باجترار الأفكار، مُنتظرا. استرجَعت الليلة التي انقضَت، وتلك الليالي المشابهة لها. جميع تلك الليالي بعفاريتها

التي تستبسل في ملاحقتنا، في تعذيبنا. أفكّر : "الجحيم. ونجرّ ليبل خلفنا. من يشفق علينا ويوقظنا من كابوسنا ؟ كيف الخروج منه ؟" دموع ليبل في هذه الليلة، من جديد تستأنف التدفق على قلبي، الآن يخنقني صمتها. لأيّة لعنة وُعدنا ؟ من أين تأتي المغفرة ؟ أحيانا، في كل حياة، تتكثّف عُقَد الظلام ولا تتوقف عن الاهتزاز وسط عتمتها. وبعد ذلك يمكن لكامل نور الكون أن يزورك ؛ وهي تبقى معتّمة، لا تمنح أيّ ثغرة لهذا النور ولا لغيره. ذلك أنّها عتمات تفكّر. تتملّص من جميع القيود. تلهب النار جميع الأشياء، الأفكار والأدوات، الأيام مثلما تقضيها، الذكريات المتبقية من هذه الأيام، ما تريد قوله وما لا تريد قوله. جميع الأشياء. من أيّ نوع عتمتها : إنْ أمكن معرفتها، سينقضي الكون في الدقيقة التي سنتَعرّف عليها. تُحَضِّن إحدى تلك الشعل في العينين اللتين وُلدت من أجلهما ؛ عيون ليبل.

زقزقات متكرّرة، تورو، تورو، تورو... نائم يقظ تائه في أعماق عوالم لامعقولة، فلم أنتبه في البداية. واصلَت نفس الترّهات، أشباح حزينة، تتخبّط حولي. وبعد ذلك سمعتُ. فجأة استرجعتُ صفاء ذهني. هذه الثغثغة، ليبل هي التي كانت تنتجها. هل هي طريقة في النداء، لنَذهب إليها ؟

استرقتُ السمع. لا تطلب شيئا. رغبة في اللعب. تلعب بمفردها. بدأت أفكاري تتدحرج من جديد، سعيدة.

ومثلما تفعل عادة، نهضَت روسيا، جرَت لاحتضانها، وبعد أن حطّتها بيننا، عادت إلى النوم. احتمت ليبل في لامبالاة هادئة، ولم تتحرّك. ليبل تتجاهلنا.

كنا على الطاولة. إنها ساعة الفطور الصباحي. في تلك اللحظة انفجرت فجأة. بكاء، صراخ، تهيّج غاضب، أمسكَت بالمغرفة المملوءة بمربى "كاشا" التي ارتأت جدّتها أن تحملها إلى غاية فمها ولفظتها بعيدا في زاوية من المطبخ. وعرفَت بقية الأواني، الصحن، القدح المعدني، نفس الطريق، وما أكلته، بدأت تردّه. دموع، بدا كما لو أنّ فمها المكشّر يبكي. كان كل وجهها يبكي.

ثمّ، ولم نعرف كيف، بعد بضعة دقائق، هدأت، فخيّم على الطاولة جوّ أكثر ارتخاءً. لقد أثمرت حركات الحنان التي قامت بها روسيا. وجاء الوقت الذي يجب أن تذهب فيه إلى المدرسة، أن يغادر الجميع المنزل، روسيا إلى المكتبة، والجدّة إلى المدينة.

استبقنا، ليبل وأنا، إلى الحديقة.

هبطنا قبل الجميع، فبدأت ترسم دوائر على الحصى بطرف حذائها وتحثّني على تأملها. دوائر كبيرة جدا. ثمّ أهملَت كل هذا بلا أدنى كلمة، وجاءَت لترتمي على ساقيّ اللتين أحاطتهما بذراعيها، شدّتهما بكامل قوتها وأخفَت وجهها بينهما. دام هذا الموقف عشر ثوانٍ على الأقل. وبحركة فظة أيضا، انفَصلت

عنّي، جرَت لتلتقط شيئا وتجلبه لتضعه في يدي بعينين مرتجفتين بالدموع. إنّها حصاة.

- بابا، إنّها لك. هي جميلة، أليس كذلك ؟

تلك الحركة، أضافت إليها هزّة رأس ترافق بها قولها كما لو أنها خافت أن لا أحتفظ بالحصاة، وتلك الدموع الإضافية لأنها لم تنسَ المشهد السابق، ولا حزن هذه الليلة. ولكن الدموع لم تنهمر، لقد منعتها العينان اللتان ترسلان إليّ تساؤلهما من السيلان.

ابتعدَت أكثر. تجوّلَت بحثا عن أحجار أخرى، منحنية الرأس. لم تتأخّر عن العودة. تسمّرَت أمامي، بعينيها اللتين أظلمهما الحزن، قالت قلقة :

- بابا، هل صحيح أنّ الأرض كروية الشكل ؟

حوّلَت نظرها عنّي، عضّت شفتيها. لم تصبر على عدم قدرتها على البكاء ومع ذلك امتنعَت عن البكاء، لا تريد أن تبكي.

أنا :

- هذا ما يقوله الناس العارفون بهذه الأشياء.

الآن، أتجوّل بدوري داخل الحديقة الفارغة، المهملة، التي لا تزال تسكنها أصداء قفزاتها وألعابها وصيحاتها. استجابت لنداء روسيا وابتعدَت برفقتها وبقيَت تحرّك يدَها اتجاهي إلى أنْ اختفَت. وسَط أشجار الصنوبر البنفسجية للغابة المنفتحة على

الحديقة، انطلقتُ كما لو أنني أبحث عن شيء، سأكون سعيدا لو عرفت ما هو. عِن أداة مفقودة. لسنا إلا في شهر أوت، ومع ذلك كان الجوّ معبّأبحمّى وفتور تليقان بالخريف. ولكن ليست الغابة. إنها الغيوم التي تتقدّم هناك في الأعلى عبر صفوف متقاربة هي التي تؤجّج قلقا بلا معالم واضحة. يبدو أنّها ذاهبة هي أيضا تبحَث عن أداة مفقودة، ربّما عن كائن مفقود. إنّ هذه السماء كتابة تخفي أخرى. هذا، بالنسبة لي كمترجم. أتفحّصها من على قمم الأشجار : تصورات، تخمين معاني مستعدة للإثبات. ولكنها لن تتأكّد صحتها في نهاية المطاف. أبدا ذلك المعنى المقصود، الذي يهم ويكتب لك.

تحت حماية ظلال الغيوم المتسرّعة، تمدّ الغابة التحتية هدوءها الكثيف المعتّم. متأكّدة من دوامها، هذه الغابة. متأكّدة من قوّتها. وصلَت مِن بعيد، يكفي أنْ تتذكّر، أو ترغب كي تحتل حديقتنا، تلتهمها وتواصل رحلتها بعيدا. يكفي أن تهزّ كتلتها ولو قليلا، فعلى حديقتنا السلام، -هذه الحديقة الفاتنة. تنبعث من بين الأشجار رطوبة حادة. أتركها تدغدغ صدري.

في هذه اللحظة، استدركتُ.

أعرف عما أبحث. الشيء الذي لا يزال يحب ما بداخلنا. بداخلي، وعلى روسيا أن تبحث عنه أيضا بداخلها. غمرت الشمس الغابة خلسة، أراها خضراء تحت ذهبها. تبتسم لي، روسيا غائبة، مثلما يحلو لها أن تفعل، تنير شفتاها اللحميتان المنفرجتان وعيناها ما يحوطني.

الجزيرة الثرية

هذا الصباح، جاءت الحضانة لزيارتنا في البيت. ليس كل الحضانة، وإنما جماعة ليبل فقط، تقودها ثلاث مربيات، ثلاث نباتات صلبة. تمّ الاستقبال في الحديقة، حول حوض الرمل. هؤلاء الفتيان والفتيات، أفراخ خرجت توّا من البيضات، بنفس البياض، نفس النعومة. بسرعة، عثروا عما يشغلهم. استولى الجميع على الأدوات المنتشرة هنا وهناك، الواحد على الرفش، الثاني على الدلو، الثالث على لعبة مهملة في زاوية ما. كل واحد لنفسه. كل واحد من جهته وفي هدوء تام. إفراط في الهدوء ! إنهم يلعبون، نعم، ولكننا لا يمكن القول بأنهم يستهلكون طاقة ما. أتذكر بعض الأطفال في سنّهم ؛ أكياس البراغيث. كنت واحدا من هذه الأكياس.

أنظر من نافذتي في الطابق الأوّل إلى خليّة الملائكة الصغار المنتشرين في الأسفل. أعجبَني هدوؤهم. لم تتمكّن الفتيات القويات الحارسات، هنّ أبعد من أن تكونّن قبيحات، من تحريك أجسادهن، وتدفئتها. كنّ بسُحن يكسوها الحَرج،

وحركات بطيئة، أرَدنَ فعل شيء ما، نحسّ بذلك، ولكنهن... لا يفعلن شيئا.

حان وقت اللّمجَة. خرجت روسيا وأمها من المنزل. وطفقتا تنشغلان وسط حشد الأطفال. تنتقل روسيا بابتسامتها وأريحيتها من طفل إلى آخر، من مربية إلى أخرى. كانت ابتسامتها بمثابة مصباح تقوده أمامها. نسيتُ كابوس الليل المزعج. أتابع بعينيّ كل واحدة من حركاتها، وأعترف : لا يوجد عليها أثر المشهد الذي قامت به مساء أمس. ربّما لا تحتفظ منه بأية ذكرى». واصلت المراقبة، فقلت لنفسي : «توجد روسيا الليل، بصَخبها ويأسها وجنونها، وروسيا النهار التي أراها أمامي. لا يمكن لواحدة من الاثنتين أن تكون الأخرى. ربّما ليست هذه ولا تلك. كيف سينتهي كل هذا ؟ وهل ستكون لكل هذا نهاية ؟» انتعش نوع من النشاط حول المرأتين. الآن، بدا لي كما لو أنني حلمت ساعات ليلة أمس، تلك الساعات الرهيبة.

قلّدت ليبل الآخرين، استقرّت جانبا. هذا برغم حضور لورا- لي أفضل صديقة لها الجالسة على العشب على بعد خطوتين منها. وها هي الآن، تغذّيها إحدى المربيات بالمغرفة الصغيرة. الماكرة، هي التي تستطيع الأكل دون مساعدة أحد. فضيحة ! أفهم تصرفها. لا تتعلق المسألة بمعرفة إن كانت تحسن الأكل بمفردها أم لا، أم أنها سقطت في طفولتها الأولى من جديد، ليس هذا هو المهم. أميرة يخدمها الغير، هذا هو المهم، وما

على بقية الأطفال إلا أن يقتسموا المربيتين الأخريين. يسري معها هذا الفعل في جميع الأحوال، وحتى في المدرسة، خاصة في المدرسة، ومهما كانت طبيعة المربية. لقد رأيتهنّ. يعتنين بها على أفضل ما يرام.

قبل منتصف النهار بقليل، ذهب قطيع الطيور الصغيرة تحت قيادة الرواعي الثلاث، استقلّ الجميع الحافلة وعادوا إلى الحضانة، يجرّون ليبل. ولكن ليبل ستأتي للبحث عنّي، وستصيح بمجرّد عودتها إلى البيت :

- بابا، بابا ! أنا هنا !

ستأتي للبحث عنّي، ولكنني أكون قد سمعت، بعد الرنّات المتسارعة للجرس الخارجي، اصطفاق الأبواب أمامها وهي تركض وترتمي عليّ بحماس، أحيانا وسط سلالم الدرج. تعقد ذراعيها حول عنقي وتبقيني مشدودا إليها للحظات عديدة. تقوم بجهود جبارة كي تكلمني في لغتي. وهي تظهر استعدادا جيدا لاكتسابها بسرعة. على كل حال أفضل مما يفعل أبوها في لغتها. لا يمكنني الافتخار بأنني أنجزت مثيلها من التطور. من وجهة نظري، إن المجهودات التي تبذلها بطولية فعلا. هل هي واعية بذلك ؟

أسجّل هذا، والباقي، ضد صدف الحياة الممكنة والمستحيلة، أكتب، يحثني أمل إبعاد جميع الأخطار عنا. الحياة شرسة، والكلام أيضا. الكلام حين يقارَن بالكتابة، الكتابة التي تُستخدَم لترويض الكلام والحياة، أو على الأقل تحاول أن

تفعل. قبل أن أعرف المواقف التي تجعلنا نقف، روسيا ضدّي، وأنا ضد روسيا، أعترف أنّني لم أفكّر يوما إلى أيّ حدّ يكون الكلام متوحشا وعصيّ الترويض. لو نكتب الكلام المرعب الذي نتقاذف به في تلك اللحظات ؟ نملك القدرة على الكتابة. أكيد أن الرغبة ستغادرنا عند أول تفكير. أريد القول، رغبة تلفظ هذا الكلام من جديد، ربّما حتى التفكير فيه.

إنّ الشيءَ غير المنجز بين شخصين هو وحده القادر على جمعهما، ذلك الشيء غير المصاغ الذي يبقى ولا يمنع أبدا أحدهما من سماع الاعتراف الذي يخفيه الثاني. لا توجد ألفة ممكنة إلا بهذا الثمن، هنا حيث تُقتسَم الحياة. ثمن التحفظ والحياء والمقاس الذي نلتزم به. كل ما تجهله روسيا. كل ما ترفضه وتخربه بمتعة. ومن هنا يأتي كل هذا الضرّ الذي يفعله كل واحد منا بالآخر.

سيكون لنا خروجنا، نحن أيضا، نزهة إلى مكان ما. روسيا مصرّة. لقد سبق أن نظمت واحدة لطلبتها الأجانب. عاد الطلبة إلى ذويهم وجاء دورنا. الجوّ جميل جدا، ذلك الجمال الرائع الخلاب. مثلما يعرف هذا البلد توفيره : بسخاء جنوني، بنوع من الافتتان. بمجرّد أن تبلور المشروع قبل أيام قليلة، أهملت عملها في المكتبة، ومنذ الصباح الباكر، أخذتني إلى الشاطئ لرؤية الجزيرة التي سنذهب إليها. كانت نقطة الإبحار، الأفضل بالنسبة لنا : رصيف ميناء تسلية. ولكنني لم أفعل إلا أن تخيلت تلك الجزيرة الموضوعة على سطح مياه بحر بسطوع

عصي الاحتمال. لم تجد روسيا صعوبة في موقعة وتسمية المطعم، نادي البحارين، حيث وعدت بأن تقودنا إليه لحظة الغداء. أضافت :

- إنه مطعم جيّد. بل أحسن من الجيّد.

فهمت أنّ المكان الذي تتحدّث عنه مألوف لديها. لم يبقَ لي إلا أنْ أضَع فيها الثقة الكاملة. مِن الضفة التي نقف عليها، وصفَت لي الهندسة الدائرية المقبَّبة، الخارقة للعادة على حسب قولها. لم أتمكّن من تمييز شيء عبر شاشة الشمس المبهرة. كانت عينايّ خلال ذلك غاصة بأشياء أخرى، كنت أستعيد ذكرى خاصة. ذكرى المشي فوق هذه المياه ذات شتاء. كان البحر الذي تطفو الآن فوقه تلك الجزر جامدا كلية. فأصبح عبارة عن لوحة سميكة تمتد على مدى البصر، لوحة صلبة. تقدّمت فوقها كمن يتجوّل في ساحة عمومية. كان شبحي الأسود ينعكس على ذلك البياض الساطع وسط أشباح المتجولين الآخرين، وتناثرنا كما قطع الشطرنج في نهاية اللعبة. كان البعض برفقة كلابهم : بهائم تُركَت في حرية تامة، سعيدة بالركض. (هل كانت قوانين سير الكلاب في المدينة مطبقة في هذا الفضاء المؤقت والمجرّد ؟ لست متأكدا من هذا. على كل حال، ليس في نظر ملاك تلك الكلاب ؛ وكانوا يتمتعون معا بتلك الحرية المؤقتة.) وكان الأمر نفسه بالنسبة لسير السيارات. تتدحرج السيارات الخفيفة والثقيلة بلا أدنى عائق فوق سمك الجليد.

كان من الضروري تموين سكان الجزر، والإبقاء على وسائل الاتصال.

مشَيت طويلا كي أقترب من كوخ خشبي لا يكون إلا مشيّدا فوق صخر. في عين المكان، في زاوية الملجأ، يعكف رجل، ربّما من حراس الغابة، على حفر الجليد بضربات فأس. تمكن من تشكيل حُفرة تدفّقت منها المياه، ولكنها جمدت بعد دقائق معدودة، وكانت تبدو مخلوطة بقطع زجاج مفتّتة. ولكن الرجل لم ييأس، تعنّت في مواصلة الحفر. انفتح باب الكوخ ليفسح المجال لفتاة، متبوعة بثانية، حوريتان، بمايوهات السباحة ذات القطعتين ومنشفة على الكتف وأحذية صوفية في الأرجل. لا يمكن لحرارة (أو برودة) هذه الظهيرة التي تصل إلى الدرجة السابعة والعشرين تحت الصفر أن تحميهما. لمْ يبدُ عليهما التأثر ولا التألم من شدّة البرودة. كانت ستكون رؤية افتتان، لولا ذلك الانخفاض المرعب لدرجة الحرارة.

رآهما الحارس، إن كان حقا كذلك، فضاعف ضربات الفأس، لتتمكن قوته المعاندة من إبقاء الثغرة مفتوحة يتدفق منها الماء، فأجهد نفسه لتكبيرها. تقدّم التمثالان الحيان، فغطس الأول داخل الحفرة. اختفى كلية لبضع لحظات. ثمّ خرج. ترك المكان للثاني الذي بادر هو الآخر إلى الغطس تحت الجليد. احمرّت بشرة الحوريتَين احمرارا شديدا. ثمّ، وبخُطًى وئيدة، التحقتا بالكوخ وهما تجففان جسديهما بمناشفهما. انغلق الباب وراءهما.

في ذلك المساء، كلّمت روسيا عنهما. أخبرتني أنّ تلك المجازفة تتطلّب سنوات من التدريب.

اليوم، بعد أربعة أيام، وجدنا أنفسنا في جزيرة أخرى، ربما لأسباب مؤسَّسة ولكنني لم أهضمها جيدا حينما عرضتها عليّ روسيا. جزيرة، أو بالأحرى حديقة تسلية. يوجد النمل البشري في جميع الأماكن. يفيض من جميع الجهات، يخرج من جميع شقوق الصخور، يتزايد جيشه من ساعة إلى أخرى، تضاعفه الشحن الجديدة التي تفرغها السفينة التي تقوم بالسفر بين الجزيرة والمدينة. أما الشاطئ، فإنه يمنح نظرة رائعة على قلعة الآلات والمصانع بمداخنها السوداء، وتنتصب القارة وراء هذا اللجّ وأمّك التي تحتضر في قارة أخرى بعيدة، بعيدة جدا. أحجمتُ عن طلب المزيد من أسباب هذا التغيير. سأتلقى منها الكثير، كل واحد منها مقنع أكثر من غيره. من أجل الغداء، وقفنا في طابور فاست-فود ننتظر دورنا.

كانت الصخور على شكل سلاحف عملاقة نائمة تمنح لنا مؤخراتها بعد الأكل. على الساعة الثالثة بعد الزوال، نوجد هنا في مخيّمنا، تحوطنا مخيمات مماثلة بكثبان ملابسها والأحذية المهملة، والأجساد المبعثرة هنا وهناك. نوجد هنا، الحرارة مرتفعة، الجوّ ساكن، ويبدو أنّ الوقت أبى أن يتحرّك. يبدو البحر عاجزا، ثقيلا، راكدا. ولكن بمجرّد أن اقتربَت منه ليبل إلا وابتعدَت راكضة. في مثل هذا اليوم وتبقى مياه البحر باردة جدا. بحر بلا ملح، أو يكاد ! لا يحتفظ بالحرارة.

رفض البحر أن يشاركنا غبطتنا ويتواطأ مع لحظات متعنا، فابتعدت عنه ليبل. وراحت تكتشف جيوب الرمال التي تشكّل الشاطئ. أشاهدها، ضفدعة بأيادي وأقدام أخاذة، تتسلّق الصخور التي تحيط ضفة البحر. وغير بعيدة عنا، كانت روسيا تتمدّد تحت الشمس، وتتحدّث مع أمّها المنشغلة بنسج الصوف. لحظات سكينة فعلية، هذه المحادثات التي ليس لي أن أفهمها، أن أسمعها، ولو بأذن ساهية. أينما تواجدت... تغمرك السكينة بمجرّد الوصول إلى هذا البلد.

لم يدم استكشاف مغامِرتنا طويلا، فجاءت إلى المخيم تطالب بلعبتها الورقية، من نوع السيّدة العجوز، وتتقدّم إليّ بإغرائها الجذاب تقترح عليّ أن نلعب معا. هذا ما كنت أنتظره، وهذا ما استجبت له فورا. فجلسنا على راحتنا. يجب إعادة تشكيل عائلات الشخصيات، الأب والأم والأطفال، بالأوراق الموزّعة. أظهرَت ليبل براعة خبيرة. لا يُخفى عنها أي تفصيل قد يخلق اختلافا أو ارتباطا بين تلك العائلات. كانت تقود القطار بخبرتها الكبيرة وتبدي لي النصائح في كيفية اللعب، وتطلق قهقهة صاخبة عند كل خطأ أرتكبه، فبدأت أتيه وسط تفاصيل هذه اللعبة.

الآن، ودون أن يضعف تركيزها حول اللعبة، سألتني :

– بابا، هل صحيح ما قلته لي ذلك اليوم ؟ بأنّ الأرض دائرية الشكل.

- لم أقل شيئا من هذا، بنيّتي. إنهم العلماء، الناس المتعلمون، الذين يقولون هذا الكلام.

رفعت ذقنها المحفور بأخدود في الوسط، تفرّستني وعبسَت بشفتيها :

- هكذا إذا، تكرّر ما يقوله الآخرون.

- ماذا تريدين ؟ إذا كان العلماء يقولون هذا الكلام، لا أرى ماذا أستطيع إضافته.

قطّبت حاجبيها، مذهولة.

- ورأسك، فيما ينفعك ؟ إذا كانت الأرض دائرية الشكل، فكيف يمكن أن نبقى واقفين فوقها ؟

- صحيح أنّ...

- أترى، لا تستطيع أن تجيب.

لم أقم بعمل المترجم في هذا الحوار المقتضب. لقد أدخلت قليلا من التنظيم في ردود ليبل، ليس في جميعها، أغلب الردود لها فعلا. أصبح من الممكن لنا الآن أن نقيم حوارات.

تغلّبت عليّ في لعب الورق خلال حوارنا. كان ذلك أمرا متوقّعا. فتوقفنا. ليس لأنّ الاهتمام باللعب قد قلّ، وإنّما كان علينا أن نذهب لنجمع تفاحات الصنوبر قبل مغادرة الجزيرة. نصحتني بمتابعتها. اقتفيت أثرها، بالقدر الذي استطعت. ذهبنا للصيد وبدأنا باستكشاف المحيط.

بعد قليل، انتصبت بكامل طولها، مالت برأسها نحو الخلف، بحثت نظرتها عن عينيّ.

- بابا، إنّني أكبر، أليس كذلك ؟

- أكيد بنيّتي.

- ولكن هل علّمني أحد كيف أكبر ؟

- لا أظن.

- أمشي أيضا ولم يعلّمني أحد.

- لا.

أين تريد أنْ تصل ؛ انتظرت الباقي حائرا. واصلَت قائلة :

- فعلتُ كلَّ ما ينبغي أنْ أفعله، وكما يجب أن يكون : الشرب، الأكل، الجري، الكلام، السماع، الرؤية وأشياء أخرى لا ينبغي ذكرها، ولا أحد علّمني إياها. فماذا ستعلّمني أنت ؟

- لا أعرف بنيّتي. تعرفين كلّ شيء.

- ربّما سأعلّمك أنا شيئا.

- هذا ممكن جدا.

انفجرت بضحكة طويلة. أسمعها تقهقه. أفكّر : «لقد أحسنَت القول فعلا. مثلما يحدث وأنا أراها تلعب، أتعلّم سرّ الحياة».

بسرعة أصبحنا أثرياء بكنز يتكوّن من تفاحات صغيرة من الصنوبر، النوع الذي تحبّه، مشكّلة بأشكال جميلة كما الحلي. لقد انتقيناها وفقا لعناية ليبل، تلك العناية الدقيقة التي تستخدمها في كل عمل تباشره. امتلأت جيوب سترتي. رجعنا إلى مخيّمنا نتبختر بغنائمنا كالفاتحين.

لحظات قليلة نقضيها على الجزيرة قبل الركوب في باخرة العودة. في نهاية هذا اليوم الذي كان أطول من غيره من الأيام، انتابتني فجأة رغبة الذهاب لرؤية الضفة الأخرى للجزيرة. اندهشْت لمرور كامل هذا الوقت دون أن تتبادر إلى ذهني هذه المسألة، ولكن إلهامنا عادة ما يأتي متأخرا، كما أنّ صخرتنا لا تبدو من الكبر بحيث يمكننا تصوّر حجمها الكلي انطلاقا من القليل الذي اكتشفناه.

عبّرت عن نيتي بصوت مرتفع. ألقت روسيا إليّ نظرة وهي جالسة. هي أيضا تريد أن ترى إلى ما تشبه هذه الضفة الأخرى. نهضَت، ألقت بفستانها على مايوه السباحة. صاحَت ليبل في تلك اللحظة :

- وأنا ! وأنا !

تركنا الجدّة منشغلة بنسيجها، وأمتعتنا تحت حراستها.

لم نتقدّم مسافة طويلة، إلا ولاحظنا تغَيُّرا في المناظر. وكلما مشينا أكثر إلا وزاد التغيُّر، على مرأى العين. للوهلة الأولى، كان المكان فارغا. لا أحد. ما عدا خفقان الأجفان أحدثه تحليق طيور في السماء، عُزلة عَذراء، عُزلة الأماكن المتوحّشة، التي

تجبر على الصمت. روعة : مكان لا يعرف الإنسان. روعة أخرى، انفجر حلم متوسطي تحت أعيننا. وكنا بداخله، نحن. كنا جزءًا من الاستيهام. ومع ذلك. صنوبَر متشابك الأغصان والأوراق، شجر البلوط الأخضر، نباتات عطرة، أزهار بألوان ساطعة، المصطكا -هل هو فعلا ؟- كلّها متناثرة، متقاربة، تشكّل غابة متوسطية حقا. منظر حقيقي. وهذه الصخور الحمراء بأزهارها البنفسجية، وعمقها الأزرق، وهذه المياه المحاصرة. كل هذه الأشياء واقعية بالفعل. والأفق البحري، ذلك الأفق الذي لا يعكّر صفوَه أيُّ عائق. مناخ المتوسّط، نُقِلت جميع أشيائه الرائعة إلى غاية هذه الجزيرة. سرابٌ أخرجني من العالم المحيط وأغرقني في حالة تعرّف، أرجع لي الغريبَ مألوفا، أعاد إليّ الأرضَ المفقودة.

النور. النور الآتي من هناك أيضا. **فالو. ضع النور في قلبي ؛ ضع النور في بصري ؛ ضع النور في سمعي ؛ ضعه إلى يميني وإلى شمالي ؛ فوقي وتحتي ؛ أمامي وخلفي ؛ قيّدني داخل النور.**

تجرّني ليبل بإلحاح من كُمّ سترتي. أحنَيت بصري نحوها : أرَتني باقة الأزهار الصغيرة البيضاء التي قطفتها. هل هناك شيء ما في تقاسيم وجهي أفقد لها صوتها ؟ كانت مذهولة، رفعت بصرها نحوي وسكتت. ثمّ، بحركة فظّة، ودون أن تنبس بكلمة، مدّت لي باقتها الصغيرة.

واصلت روسيا شروحها مثلما بدأت، تذكر في لغتها أسماءَ تُترجمها مباشرة، أسماء نباتات وأشجار وطيور صادفناها في طريقنا. كانت تبهرني دوما بعلومها حول الطبيعة، إنّها لانهائية. دون أنْ ننسى الفطريات. ولكن هناك، على القارة البعيدة التي تبقى قارتي، لكَم وقت يا ترى : دون أنْ اعتَرف لنفسي بكَم هائل من العلم، إلا أنني أعرف الأسماء ايضا، كما أنني أعرف اسم تلك التي تحتضر هناك في سريرها، تتزّين بأجمل حليّها، وفساتينها التي لا تقل جمالا وسيكون سرير موتها. أجهل متى، أجهل كيف، ولكنني أعرف. ليختفي شخص من دقيقة إلى أخرى، هذا عصي التصوّر، مستحيل التصوّر، الفكر يصبح أعمى. آه، أمّي... هذا النور وهذا البحر، الخالدان.

على الباخرة التي امتطيناها للعودة، طوال الوقت، خلال العبور القصير، كانت ليبل تقاوم التعب والنعاس. ولكن عندما اقتربنا من اليابسة نامت. من حسن حظنا، كانت معي مركبتها الصغيرة المطوية. فتحتها ووضعنا الرضيع بداخلها، ربطتها تفاديا لضربات الاهتزازات. ودحرجتُ المركبة، العجلتان الأماميتان في الهواء. كانت نائمة كما لو أنها بداخل أرجوحة ؛ والأخرى هناك تموت في سريرها.

رجعنا من نزهتنا، من مغامرتنا، مُرهقين، ساكتين.

المَكْرَزة

من الأفضل أنْ أتوجّه إليكِ مباشرة، ليبلتي، بسبب الأشياء الكثيرة التي أودّ أنْ أبوحها لكِ، ولكن ليس الآن : ربّما ذات يوم. ما تعلّق بالجُزُر، نعم، وزيادة. بجَزيرة بعينها. يجب أنْ تَسمعي هذا. ولكنّك ستسألين لماذا كل هذا الدوران وهذا التريّث ؛ فيما بعد ؛ ستفهمين فيما بعد. أتمنّى ذلك. مثلما يحدث لي أنْ أفهم الحكايات، لمْ تُروَ لي وإنّما قيلت أمامي منذ سنوات عديدة، منذ قرون، عندما كنت في سنّكِ. نسيتها طوال هذا الوقت، تلك الحكايات، ما عدا واحدة، تنبثق بلا سبب ظاهر في لحظة أو في أخرى داخل رأسي وفجأة أمسك بالخيط، أرى المعنى، الذي لم يكن ليَهُمّني في ذلك العهد، ليس بعد، ربّما مثل هذه الحكاية التي ستسمعين والتي لم توجَد لتجلب اهتمامك. ولكنّني أفترض أنك ستحتفظين بها خلف الأذن. إنها نفس الحكاية إذا ذكَرَت نفسَها إليك ذات يوم، والتي ستعلّمك أشياء حول أبيك. سوف لن أكون في ذلك الوقت، ولكن هذا غير مهم. اسمَعي وبالأخص كوني بلا خوف : هذا ليس اعترافا، إنّها حكاية، زيادة على أنها غريبة الأطوار.

تخيّلي صيفا باهرا، مثل هذا الصيف تماما، لا يعرف سرّه إلا بلدك. تخيّلينا متراكمين داخل مركبة فيما توشك الظهيرة على نهايتها : أنا، أمّكِ – أمّكِ افتراضا، استباقا للزمان، لم تكوني قد ولدت بعد– ومعنا شاعر اسمه طاليلو، وشاعر آخر، أظن، لست متأكّدا جيدا، موسيقار يشدّ إليه قيثارته أكثر مما يشدّ زوجته، الطويلة القامة، سمراء وجميلة، وهو شيء نادر في هذه الأقاليم. خلاصة القول : كانت تسافر معنا أيضا امرأة تشتغل في الإذاعة. إنّ الشخصية الأكثر أهميةً في جماعتنا هي هذه المرأة الأخيرة. بالفعل، كنّا نبحر على مياه زرقاء اللون، لطيفة، ترتجف بخفة، أكاد أقول عاشقة، من أجل هدف واحد، الذهاب عندها، بعد أن قامت بدعوتنا منذ عدّة أيام. إنّها فنلندية شكلا ومظهرا. وكانت شابة أيضا. وسيّدة جزيرة، الجزيرة التي سنكتشفها بعد لحظات، تلك اللحظات العظيمة. تصوّري أنّني كنت أجهل ذلك. تملك جزيرة كاملة لها وحدها ! هل تدركين هذه الروعة ؟ أما زوجها الذي يشتغل معها في الإذاعة فسيصل بعد ساعتين في باخرته الخاصة. لم تكوني قد ولدت بعد، لم نكن لنتركك وحدك ونذهب للاحتفال. ماذا يمكن أن نفعل في جزيرة غير الاحتفال ؟ ولا أنكر أننا أخذنا معنا بضعة قنينات خصّيصا من أجل هذا.

لم تكن لديّ ساعة. لذلك لا دراية لي بالوقت الذي دام فيه عبورنا ! لنقل تعليقنا بين سماءين، بين روحين نورانيين. وقد وصلنا، ونزلنا على رصيف صغير، فاستعدنا استعمال سيقاننا وكامل أعضاء أجسادنا، ولاحظنا، في اندهاش وحيرة، أنها

لا تزال تشتغل، آه بنيّتي، يا لها من صعقة قلب. كانت رؤية تلك الجزيرة ابتهاجاً يسخر من اندهاشي الأول، ولكن اندهاشي تضاعف بوفرة تلك الأزهار البرّية، أكثر مما نأمل. سواء وجّهتَ نظرك إلى اليمين أو إلى الشمال، أو إلى أيّ اتجاه آخر، يقابلك شلال من الألوان الزاهية. وتلك البرودة المنعشة التي يسبح داخلها كل هذا الجمال الفتّان. يجرفك هذا الجمال بأريحيته وشفافيته العطرة. الأشجار أيضا لا تنقص برغم قلّتها، تائهة في هذا الفيض. أشجار صنوبر مثلما أتصوّرها، جاثمة فوق الصخور والمنحدرات. ومع ذلك لا يمكن لهذه الكلمات أن تصف تلك الروعة التي غمرتني في ذلك اليوم، بُنيّتي. يمكن لي أن أواصل الوصف إلى ما لانهاية، ولكن كيف لي أن أجعلك تشعرين بما أحسَستُ من سعادة إزاء تلك المناظر، وذلك الابتهاج، والاعتراف، والسكينة، وأن ينتقل كل هذا إليكِ : كيف أقدر على ذلك ؟ يخنقني البكاء، كما لو أنّه لم تمر سنوات كثيرة منذ تلك الظهيرة الفاتنة. والتخوّف أيضا. يوجد شعور من هذا القبيل أيضا. دعَوت كي لا يكون كل هذا حلما سأستيقظ منه بعد قليل. ولكن الجزيرة موجودة فعلا، وبما أنها توجَد، أتمنى أن يسعفك الحظ بزيارتها يوما. ستتذكّرها أمّك، وربّما ستحدّثك عنها، ستسمّيها لكِ إنْ كان لها اسم. إنْ رضيَت أنْ تكلمك عنها، أنْ تسمّيها لكِ.

اقتفينا آثار سيّدة المكان، وفتحنا معبرا بأذرعنا وسط لجّ الأزهار والسَرخَسيّات والتحقنا بمنزل ذي طابقين لا يبرز فوق التنبّت الكثيف إلا على أمتار قليلة منه. المنزل خشبي

ومطليّ بذلك الأخضر الثري الذي تكون قد ساهمت في إنجازه أرواح الهواء والبحر والنباتات. أخضر نادر، عتيق، مُزَرّق، ولكن الجدران الداخلية حافَظت على لون الحطب الأصلي، بلا أدنى طلاء. نوافذ صغيرة، ستائر صغيرة من الكريتون، مزيّنة بأزهار حمراء. نفس الكريتون يغطي المقاعد التي تحيط طاولة طويلة. وفي كل مكان، داخل جميع الغرف، تصادفك الكراسي والخزائن المتعددة الأشكال والأحجام بذلك اللون الخشبي الخام. وعند كل خطوة، يخفق قلبك : «لقد سبق لي أن رأيت مثل هذا. ولكن أين ؟ ولكن متى ؟ مع أنّي لم أضع قدميّ يوما أبدا في هذا المكان، أقسم بذلك». تبقى مدّة وأنت تبحث، تفكّر. أخيرا تجد السرّ. المكْرَزة ! وفكرت مباشرة، بنوع من الحزن : «المكرزة لا توجد في جزيرة». ثمّ أضفت : «المكرزة، ذلك المنزل الريفي بأشجار الكرز المحيطة به، هي أيضا جزيرة ! كانت جزيرة حقًا».

وفي تلك اللحظة انسحبت. انسحبت تاركا الآخرين يتجاذبون أطراف الحديث. هل انتبهوا إلى اختفائي، هل لاحظت روسيا ابتعادي عنهم ؟

في حقيقة الأمر، ابتعدت عنها، عن روسيا. كنت أهابها. كنّا ويقينا متخاصمين برغم أننا أتينا معا. أترين، بنيّتي ليبل، لقد بدأ خصامنا قبل مجيئك بيننا ؛ ليتواصل بعد ذلك. لم تكن الجزيرة أوسع من عرض باخرة عادية حيث قلّدت الشكل، بأصدافها الصخرية، فلا يمكن أن نذرعها إلا طولا. فذهبت

أجوب طولها. لقد غامرت. وليس هذا مبالغة منّي. في وقت قصير، أضحت المبادرة محفوفة بالمخاطر بحكم التضاريس الوعرة. حُفَر ومرتفعات وأدراج وعوائق وسنن من الغرانيت، يغطيها الاخضرار : إن التقدّم وسط تلك التضاريس قد يؤدي بك إلى السقوط برغم شبه درب يبرز هنا وهناك. كانت المبادرة شاقة ولكنها غير مستحيلة، فتمكّنت أخيرا من الوصول إلى ما يستحق تسميته بمقدّمة سفينة غُرِسَت هنا على هذه الأعماق البحرية. يقع المَوضِع على نوع من العلو، ومع ذلك تمكّنت من الوصول والصعود إلى قمته.

عثرت على المكان المناسب، واستقرَيت كي أجتر غضبي المكتوم ضد روسيا. ولكنني أدركت أنّ الغضب قد زال عنّي، ولم أجد ما أجترّه. لم يبقَ لي إلا أن أولي عنايتي نحو البحر، ولمعانه الملتحم، الأسود في أعماقه، الذي يسيل مثل مضيق رملي بين جزيرتنا والقارة ؛ تلك القارة التي تتدثّر، في أطرافها، بغابة ممتلئة، مثل جلد حيوان يُرمى فوق الكتف. الآن، تحلق فوق الفضاء السائل الإشارات الأولى المعلنة عن قروب غسق غاص بالأسرار. ولكنكِ تعرفين هذا أفضل منّي، لييل : إنّ الليل لا يسقط تماما في مثل هذه الأصياف الرائعة، يجلب الغسق معه حضورا شفافا للكون الذي يخلف النهار، بشكل أخف، بأفراح أكثر، فيما لا تتوقف الطيور عن الامبهار بزقزقاتها.

في تلك اللحظة، ظهرت سفينة، شعلة باهتة على سطح الماء، قضت وقتا طويلا قبل أن تقترب، كما لو كانت ترفض

أن تكبر. حينما كانت على أهبة تجاوز الجزيرة، ميّزت أشباح الرجال والنساء الذين يحتلونها. أشَرت إليهم بحركات من ذراعي، فردّوا على تحيتي، وهم يبتعدون، بإشارات مماثلة. شاركت السفينة بدورها في الردّ بصفيرين حادين. أحسَست بأنّي لم أعُد وحيدا، وأنّ عزلتي فوق هذه الصخرة كانت ألطف. غمرَت السكينة قلبي، فاسترجعْت هدوئي. يمكنني الآن أن ألتحق بروسيا والآخرين.

غادرت مرصدي حينما أوقفني شعور بالعجز. لم يكن في حقيقة الأمر إلا شعور بالضرورة : رغبت في نقش ذكرى هذا المنظر بداخلي، نقشه في عمق أعماقي. فواصلت المراقبة من أعلى مرصدي الصخري كما لو أنّني أنتظر إعلان شيء ما...

حينذاك سمعت اسمي، تصرخ به أصواتٌ تخترق الفضاء. التفتت، ومسَحتُ بنظرة امتدادَ الجزيرة. كانت الأصوات صادرة من خلفي، فرأيت أصدقائي يشقّون طريقهم في الأعماق، يتوجهون هنا وهناك. جاءوا للبحث عنّي. ليس لهم أيّ حظ للعثور عليّ في المكان الذي أجثم فوقه، في عش الصقر هذا. راقبتهم ولكني لم أهتم خاصة إلا بتلك التي ستصبح أمّك. إنّ مأساتنا، مثلما ترين، هي أننا نحبّ بعضنا بعضا كثيرا بحيث لا يشعر كل واحد منا بأنّ الآخر يحبّه مثلما ينبغي، وكنا نتألّم لذلك كثيرا. يحدث لنا مثلما يحدث للحب حينما يعتقد، في شرطه الظالم المرعب، بأنه لا يتلقّى البديل الذي يليق به. لم

أجب على النداءات، لم أكشف عن مخبئي، ثمّ وللحظات أخرى رائعة، انغمست في تأمل الأفق البحري كما لو أنّه تحوّل إلى شفق فجر.

حينما التحقت أخيرا بروسيا وأصدقائنا، انتابني جوّ كئيب. كانوا جميعا يحملون في وجوههم مظاهر الجنازة. أوعزت ذلك إلى تصرفي غير المسئول. ولكنّني بسرعة، أدركت أنني لست السبب، وأنّ لا أحد لامني على شيء. بعد ذلك عرفت لماذا : جئت وسط مشاجرة عائلية، أو على الأقل عند نهايتها، لقد غادرت المرأة الشابة، سيّدة الأمكنة والجزيرة، المنزل، غاضبة. حضرت هذا المشهد الأخير.

أما الزوج الذي وصل أثناء غيابي، فبقي معنا. تأسفنا جميعا لما حدث، احترنا في الموقف المناسب الذي ينبغي اتخاذه، فالتزمنا الصمت. شيئا فشيئا، فُرض علينا الحل، يجب علينا مغادرة الجزيرة. جئنا لقضاء الليل، ليس داخل سرير، طوال الليل، مهما طال أو قَصر. والآن... والآن، يجب جمع قضّنا وقضيضنا والابتعاد عن المكان. نعم، جئنا لنحتفل بواحدة من تلك الليالي الصيفية الرائعة، هذه مثل غيرها، وفي نفسي كنت قد عقَدت السلم مع روسيا، والآن، يجب المغادرة.

تبادلنا النظرات، ودون أن يخبر أحد صديقه بما يضمره من قرار، بدأنا نجمع الأمتعة القليلة التي أتينا بها، -دون أن ننسى القنان الطيبة التي أثقلنا بها حقائبنا. كان الفتى المُهمَل شابا أيضا، وجميل الوجه، بقامة أقل من المعيار المنتشر في

هذا البلد، وقف شاحب الوجه، مذهولا من تصرفات زوجته الهوجاء. وكنا نرى جيدا أنه على وشك الإغراق في دموعه، ولكنه لم يبدِ أي حركة.

وأنا ذاهب باتجاه الرصيف، تساءلت عن الوسيلة التي اتخذتها المرأة الشابة للابتعاد في عرض البحر : كانت سفينة زوجها راسية هناك، بقرب سفينتنا. تكون قد استخدمت مركبا آخر، وإن كان صغيرا. لم أعرف أبدا ما هو، ولم أسأل. تكون قد ذهبت بالعوم من فرط رغبتها الجامحة في مغادرة المكان. منذ زمان طويل، لم نشعر، روسيا وأنا، باقتراب بعضنا بعضا كما في تلك اللحظة.

لم يكن لديّ ما أحمله، كانت يدايّ محرّرتين، فنزعت بحركة آلية، عفوية، قيثارة الموسيقار، وقفت أمام الزوج الحزين اليائس، وبدأت أضرب على الأوتار، أنا الذي لا أعرف اللعب بأي آلة موسيقية، وأغنّي في الوقت نفسه لحنا من الطانغو، أنا الذي لا أملك صوتا، وأرقص على نغمه، أنا العاجز عن أداء خطوتين منسجمتين. بدأ يضحك من تهريجي. انتعش وجهه من التعبير المبتهج الذي أضاءه، فبدا طفليا تقريبا. أظن أنّ فرقة ألعاب كانت ستُسرّه أحسن من زوجته. ركبنا سفننا، هو من جهته، ونحن من جهتنا. فافترقنا.

في الليل المشمس، ابتعدنا عن الجزيرة العجيبة. أرجَعت القيثارةَ إلى صاحبها والتي لم تعد تفيدني في شيء، فضمّها إلى صدره، مزهوا.

دُرّة السعادة

نحيا بقوة الأشياء، نحيا بقوة الأشخاص الذين يحيطوننا، في الوقت الذي ينسى روحك وجسدك أنّها (أنهم) موجودة حيث هي ومن فرط طول بقائها، سعداء بأنّ هذه الأشياء، وهؤلاء الأشخاص، يحرسون على عدم نسيان أنّهم يوجدون حقا حيث هُم، وأنّ الزمان وحده يَمضي. أنْ تنسى وتنساك مجرّد افتراض ليس إلا. أنا ذاهب داخل هذه المتاهة. إنها متاهة هادئة حيث يساوي اليوم بداخلها ألف سنة، وحيث أن ألف سنة هي بمثابة يوم، هناك حيث يسلب الزمان منك حقوقك ليجرّك نحو خسارتك.

- بابا.

بمجرّد اكتشاف زوايا المتاهة، ينتهي استكشافي، أجد نفسي في نقطة الانطلاق، انطلاق جديد.

- بابا، هل تسمعني أم لا ؟

- نعم بُنيّتي، أسمعك.

- بما أنّك تريد أن تحكي لي قصة، فاحكِ إذن.

- كان ذات مرة طفلة صغيرة، جميلة جدا، تسمّى ليبلي...

- مثلي تقريبا.

- مع ي زائدة وبنقطتين بارزتين تحتها.

- قلت : تقريبا مثلي. حتى بـ»ي» زائدة ونقطتين تحتها. لا يغيّر هذا من الأمر كثيرا. ربّما لأنني لست جميلة، أنا.

- ما هذا الكلام ؟ أنت جميلة، بل وأجمل البنات إطلاقا.

مطّت شفتيها في تكشيرة ازدراء، وأطلقت صفيرا من الأنف ؛ قبل أن تنفجر ضاحكة. حذارِ من عزّة النفس المدغدغة ومن الحبّ الغيور. أعرف الآن ليبلتي. قبل أيام قليلة، كنّا عند بعض الأصدقاء، أمّ وأب لطفلين فاتنين، طفل وبنت، فقمت بتسلية البنت، شقراء صغيرة، آخذا إياها بين ذراعيّ وهازا إياها بحركات خفيفة. إلهي، بأيّة قوة تدخّلت ليبل لتستعيد مكانها، هذا المكان بين ذراعيّ، المكان الذي ليس إلا لها وحدها !

هكذا توقِفُني دوما كلما بدأت أحكي قصة. ولكنّ تَدخُّلها ينحَصر في هذه البداية فقط، فلا تفتح فاها بعد ذلك قبل النهاية، أحيانا، حتى بعد النهاية. كما جميع الأطفال، تفضّل ليبل على جميع القصص تلك التي تعرفها، -وتعرفها إلى حدّ، عند الضرورة، أنها قادرة على إعادتها لك كلمة كلمة. مع أنّ ليبل تحجم عن مثل هذه الإعادة، منجذبة في كل مرة

بتفاصيل الحكاية. تتعلّق بشفتيّ، وتترك لي أنا عناية تمديد السجاد الطائر الذي تحجز فوقه مكان المسافرة المذهولة. (يجب أن أسجّل هنا فهمها المتنامي للغتي، وسرعتها في استيعابها ؛ إنه بالنسبة إليّ مصدر متجّدد للاندهاش ؛ لغة أجنبية بالنسبة إليها، شيء مذهل تقريبا.)

كان ذات مرة طفلة صغيرة، جميلة جدا، تسمّى ليبلي. في ليلة من الليالي، رأت في منامها سيّدة بهية الطلعة. «إنها الجنية»، فكرت مباشرة في حلمها. بالفعل، كانت الجنية نفسها. ترتدي فستانا يلمع كما لو أنه نُسج بخيوط من النور، ومحمل فوق رأسها إكليلا حيث يتلألأ عدد لا يحصى من الأحجار الكريمة : ألف أو أكثر ؟ يستحيل تحديد عددها. ولكن هناك درّة نادرة تتدلي على رقبتها وتتجاوز جمالا وأناقة جميع الدرّر الأخرى، لأنّ لها شيئا شبيها بنظرة مداعبة تمس القلب من فرط حيويتها ونعومتها.

ابتسمت الجنية لليبلي ونزعت تلك الدرّة الرائعة من رقبتها لتحطها في تجويف يدها وهي تهمس :

- أعطيك درّة السعادة.

درّة السعادة ! يكفي أن تسمع نبرة صوتها الجميلة لتحسّ فعلا بتلك السعادة. أغلقت ليبلي قبضتها على الهدية، فتوقّفت عن الحلم، وواصلت نومها في سكينة هادئة. لم تجد حتى الوقت الكافي لتتساءل إن كانت الجنيات تمنح الهدايا لأسباب خاصة أو لأن ذلك يرضيها ويرضي المتلقين.

عند الصباح، وبمجرّد استيقاظها، أرادت ليبلي أن تتأمل الدرّة الجميلة التي يبدو أنّ لها بصرا. فتحَت يدها ولم ترَ شيئا بداخلها. أغمضَت عينيها وفتحتهما من جديد مرات عديدة : لا أثر لتلك الدرّة. طفقت عيناها تمتلئان بالدموع. بحثت تحت وسادتها، بحثت داخل الإزار، قلّبت الفراش. لا أثر للدرّة، في أي مكان. فانفجرت بالبكاء، وقلبها يفيض حزنا.

أسرع أبوها وأمّها إليها، في قلق ظاهر، يسألانها عمّا أصابها. بين شهيقَين، حدّثتهما ليبلي عن درّة لم تعثر عليها. اندهشت الأمّ قائلة :

- أيّة درّة يا عزيزتي ؟

- الدرّة التي منحتها لي الجنية هذه الليلة.

مصّت ليبلي دموعها التي تنهمر على خديها وكرّرت :

- ضاعت منّي. قالت لي الجنية بأنها درّة السعادة.

ابتسم الأب والأمّ معا، ولكن حيرة كبيرة أضجرتهما. لا يعرفان ماذا ينبغي فعله حينما تضيع درّة منحتها الجنية لطفلة صغيرة. ولكن فكرة نيّرة خطرت ببال الأب :

- ستعود الجنية حينما تعرف بأنّك أضعت الدرّة، كوني على يقين. ستساعدك على العثور عليها.

هدّأت هذه الكلمات شجن الطفلة الصغيرة، ولكن جزئيا فقط. أظهرَت قلقها : «والجنية، كيف ستعرف ؟ ستقضي وقتا

طويلا قبل أنْ تظهر من جديد». وأصرّت ليبلي على العثور على درّتها بلا أدنى تأخر، وإلا أين تكمن المتعة ؟

هكذا، في انتظار ذلك، بدأت بسؤال القط :

- من فضلك، مينو، ألم ترَ دُرّة سعادتي ؟

- لا، يا ليبلي الجميلة، أجاب القط.

ثمّ أضاف، دون أن يعد بشيء :

- واصلي البحث عنها، ستجدينها حتما.

استاءت ليبلي من ردّ فضفاض كهذا، فنظرت في تلك اللحظة عبر النافذة، فمن رأته يمر ؟ إنه كلب الجار. نادته :

- من فضلك، يا قيصر، ألم ترَ دُرّة سعادتي ؟

- لا يا ليبلي الجميلة، أجاب بصوته الخشن. ولكن واصلي بحثك، أنا القيصر متأكّد أنك ستعثرين عليها.

ها هو آخر يقدّم لها إجابة مماثلة. نزلت إلى الحديقة، فقابلت القنفذ. كانت منشغلة في البداية، فلم تكترث بوجوده، ثمّ توقّفت فجأة وسألته :

- من فضلك، يا حامل الإبر، ألم ترَ درّة سعادتي ؟

- لا، ليبلي الجميلة، همس القنفذ وسط لحيته الشائكة. ولكن واصلي البحث، أعدك بأنّك ستجدينها.

فكّرت ليبلي أنّ كلام القنفذ مشجِّع على الأقل، قبل أن تدخل الغابة المجاورة. لمْ يَمضِ إلا وقتٌ قصير حتى صادفت أيِّلا.

- من فضلك، أيها الأيّل الكبير، ألمْ ترَ درّة سعادتي ؟

نظر إليها الأيّل خلسة دون أن يدير رأسه وهمهم :

- لا، ليبلي الجميلة. ولكن واصلي البحث عنها، ستجدينها، أمر أكيد.

بعد هذه الكلمات، واجه سهام نور الغابة الداخلية وابتعد مثل ربّ لا يُهزَم.

لم تعرف ليبلي أيّ شيء عن درّة سعادتها، فقرّرت العودة. ومع ذلك لم تيأس، وراحت تسأل جميع الحيوانات والأشخاص الذين تصادفهم في طريقها.

كانت الإجابات كلها متشابهة :

- لا، ليبلي الجميلة. ولكن واصلي البحث عنها، أكيد أنّك ستعثرين عليها.

مواصلة البحث ؟ أين، كيف، وكم من وقت إضافي ؟ أليس هذا ما تفعله دون أنْ يَحدُث أيُّ تقدّم ؟

في نهاية المطاف، قرّرت العودة إلى البيت لأنها لم تجد من تسأله ولا أين تبحث. فقدَت كل أمل في العثور على دُرّة سعادتها.

فجأة تذكّرت وجود البومة العجوز التي تعيش في تجويف شجرة في عمق الحديقة. قالت بأنها سوف لن تخسر شيئا إن استخبرت لديها عما تبحث، ربّما ستكون فرصتها الأخيرة. ولكن حينما تلمع الشمس، تكون البومة غارقة في نوم عميق.

ومع ذلك ذهبت ليبلي إليها. عندما وصلت إلى أسفل الشجرة، صاحت بكل قواها :

- أيتها البومة، أيتها البومة العجوز، من فضلك ! ألمْ ترَي دُرّة سعادتي ؟

لم يجب طائر الليل على ندائها. كرّرت ليبلي ندا ءها دون جدوى. فكّرت : «نداء آخر وكفى. سيكون الأخير». وها هي البومة تستيقظ فزعة. ليس من عادتها أن تستيقظ وسط النهار، فراحت تضرب بجناحيها بعنف.

- هوو ! هوو ! مَن المزعج ؟ من يتجرّأ على تعكير صفو نومي في هذه الساعة من النهار ؟ صاحت البومة بصفير بدا لليبلي أنها تسمع ريحا شتوية تتسرّب من تحت باب غير محكم الإغلاق.

- أنا ليبلي، قالت ليبلي ودموعها على وشك الانهمار.

خفّفت البومة من فظاظتها وهي تتعرّف على الصوت.

- آه، ليبلي الجميلة، هذه أنت ؟ ما بكِ صديقتي ؟ ما الذي أتى بكِ باكرا إليّ ؟

فطرحت ليبلي نفس السؤال، مثلما فعلت لمرات عديدة قبل اليوم.

طفقت البومة تهمهم دون إجابة.

- هوو ! هوو !

بعد صمت طويل قضته في التفكير أو في الاستيقاظ، أو الاثنين معا، رضيت البومة أن تتكلّم، وبدا كما لو أنّ الريح هي من تتكلّم في مكانها.

- هوو، ليبلي الجميلة، أعرف أين توجد.

كادت الطفلة الصغيرة أن تصاب بالإغماء من فَرط التأثر وهي تسمع هذه الكلمات. ماذا، هل تعرف البومة حقا أين توجد دُرّة سعادتها وستكشف لها عن المكان ؟

- هوو ! هوو !... استأنفت البومة. هل قلت بأنني أعرف أين توجد ؟

إلهي، ها هي تتردّد. هل ستكشف لي عن سرّها ؟ أسرعت ليبلي إلى التأكيد بخجل :

- نعم أيّتها البومة، لقَد قلتِ ذلك فعلا.

سكتت البومة. بدا كما لو أنها تقيس إيجابيات الموافقة والرفض. في نهاية المطاف، قالت :

- ستَرينَها...

ولكنها سكتت برهة من الزمن. ثمّ قالت :

- هل قلت : سترينها ؟ أين ؟ هل قلت أين ؟

- من فضلك، أيتها البومة الصديقة، قالت ليبلي متوسّلة، كما لو أنها فوق الجمر.

- طيّب، احّمم... في قلب أعلى وردة حمراء تنبت هنا، في حديقتك... هوو ! في الصباح الباكر، حينما تنفتح الوردة. هل قلت : في قلب أعلى وردة حمراء ؟ ولكن يجب الاكتفاء بالنظر إليها فقط، وليس بلمسها، ليبلي الجميلة.

- أعدك !

- الآن، اذهبي واتركيني أنام في هدوء.

- إلى اللقاء، أيتها البومة الطيّبة. شكرا !

ذهبت ليبلي وقد استعادت كامل فرحتها. كانت قد ابتعدت حينما سمعت البومة تحذّرها بصوتها الأبّح :

- هل قلت أنّك ستكتفين بالنظر إليها فقط ؟ هوو ! هوو !

- نعم !

مرة أخرى، وعَدت الطفلة أن تفعل مثلما نصحتها البومة. إنها مستعدة لفعل أيّ شيء كي تسترجع دُرّة سعادتها. فكّرت متنهّدة :

« يجب انتظار نهار الغد ؛ ليس الوقت مناسبا لرؤية الوردة. لقد تقدّم النهار الآن وسوف لن يعود إلى الوراء لإرضائي ».

في حقيقة الأمر لا تطلب المزيد، لقد أسعفها الحظ مع البومة العجوز. داخل وردة ! وردة من بستانها. يا لها من مفاجأة ! استخلصت تحت أثر الاغتباط :

- دُرّة سعادتي هي أيضا دُرّة-جنية.

حينما نريد للساعات أن تمرّ بسرعة، تتعمّد البطء، فتسير ببطء يثير اليأس في النفس. بدأت ليبلي تعدّها الواحدة بعد الأخرى. وسَقط الليلُ لأنّه من الطبيعي أن يسقط ؛ ابتداء من تلك اللحظة، يكفي غمض العينين وفتحهما، لا وجود لليل. منحدر ثلجي نهبطه على زلاجة. نتساءل كيف يحدث هذا.

عند أولى أشعة الشمس، في هذا الصباح، واثقة كامل الثقة في كلام البومة، خرجت ليبلي من البيت، وبدأت تجرّب حاسة شمّها. ذهبت من هنا وهناك، بحثت هنا وهناك. ولكن الحديقة كبيرة، شاسعة. من هنا، من هناك ؛ من هنا، من هناك. وتَحدُث المعجزة. فتكتشف الوردة الغريبة. تبعتها معجزة أخرى : مثل قطرة نور، تستقر الدرّة متلألئة في قلب الوردة الحمراء. أخرسها هذا العجب العجاب، فلم تفصل ليبلي بصرها عن الوردة، وبقيت في مكانها تتأملها، وكان قلبها يفيض سعادة كلّما أمعنت النظر والتأمل.

انتابتها رغبة أخذها وشمّها والإحساس بها بين أصابعها. ولكنها تذكّرت في الوقت المناسب تحذير البومة، التي لا يزال صوتها يرنّ في أذنيها.

«يجب الاكتفاء بالنظر إليها فقط. هذا ما قلته، الاكتفاء بالنظر لا غير ؟»

- نعم، بومتي، نطقت ليبلي وحدها.

امتنعت عن لمسها باليد، بل وتراجعت خطوة إلى الوراء كي تتجنّب الإغراء. في تلك اللحظة، أدركت سبب هذا التحذير. يمكن لدرّة السعادة، بما أنها درّة-جنية، أن تنتقل إلى مكان آخر إن تمّ لمسها، أو أنها ستختفي كلية عن الأنظار. البومة العجوز حكيمة، وتعرف أسرار الكون. إنها تدين لها بالعثور على درّة سعادتها. فمن الأفضل احترام تعليماتها. فكّرت ليبلي بصوت مرتفع :

- مهما كان الأمر، أعرف الآن أين هي، فلا أخاف أن تضيع منّي مرة أخرى.

ابتعدت وهي ترقص. قالت من جديد :

- ينبغي الاعتراف بأنّه لا يوجد مكان أفضل من قلب هذه الوردة.

وهنا تنتهي القصة.

همست نيفرتيتتي بعد صمت طويل، كما لو أنها كتمت تنفسها طوال هذا الوقت :

- إنك تُحسن الحكي، بابا.

نظرت إليّ، صعد روحها إلى عينيها، هاتان العينان اللتان تعكسان النور، بطريقة غريبة خاصة وأنهما تبتسمان لي. تفرّستني هكذا دون أن يرف لها جفن. مخرج المتاهة، المخرج الوحيد، ألا يعبر هذه الجهة من المرآة التي تلمع أمامي والذي تشير إليه شعلتها ؟ بلا أدنى كلمة، أسرعَت ليبل تحتمي داخل حضني.

الآيتان

لا أحاول حتّى تخيّل ما سيحدث لي إنْ بدأت أخاف من فَقدها. إلهي، ابْعَد عنّي مثل هذا التفكير، لا تتركني أستسلم إلى مثل هذا الخوف، لقد بدأ يتسرّب إلى كياني. سوف لن ترضَ روسيا باقتسامها معي. الآن وبحضوري، تستخدم جميع الوسائل، جميع الحيل لتنتزعها منّي، دون أيّ حرج. كل الذرائع مُستساغة بالنسبة إليها ! نحن في فترة عطلة، لا يذهب أيّ طفل إلى الحضانة التي لم تغلق أبوابها بعد : ومع ذلك، ينبغي أنْ تقود ليبل إليها ابتداء من الصباح الباكر، بحيث لا أرى ابنتي طوال النهار. إنّني هنا لوقت محدود وأعرف كم هي كبيرة رغبة ليبل في البقاء معي في البيت. مديرة الحضانة نفسها نبّهت روسيا إلى هذا الأمر :

«يجب على الصغيرة أن تأخذ قسطها من الراحة، العطلة ضرورية للأطفال».

ومع ذلك لم تكترث روسيا. تتعنّت على أخذها إلى هناك كل اليوم. هل تدرك فعلا ما تفعله ؟ مثلما يحدث لها دائما،

يبدو أنها تتصرّف باندفاع غير إرادي. ربّما تحرّكها الغيرة. أتغار من طفلتها، هذا الرضيع. ولكن هل هذا عذر مقبول ؟

دليل إضافي. مُنذ فترة، كان عليها أن تقوم بسفر تستغله في جمع مادة بحثها. غيابٌ قد يَدوم يومَين أو ثلاثة، لا أكثر. وبما أنّني هنا، فبإمكاني البقاء في البيت والاهتمام بليليل. كنت أتوقّع أنْ يَحدث مثل هذا الاتفاق. ولكن روسيا تجاوزتني وأرسلتها عند أختها غير الشقيقة، على بعد مائتي كيلومترا.

لم يعد لدينا الكثير مما نقوله، فنقوله لوجه مشوّش، لصورة مفقودة. أصبح كل واحد منّا المتلقّي الوحيد، أداة كلامنا الوحيدة. هذا الكلام الذي يتحدّث لنفسه، هذا الشيء الوحيد الذي بقي بيننا.

في الصباح الباكر، ها هي ليليل، بقبضتيها العاريتين، تتسلى بمَحو الخربشات الطبشورية التي بيّضت بها السبورة السوداء المعلقة في المطبخ. وبعد ذلك، أظهرت لي، وهي فخورة، يديها المتسختَين كخرقتَين باليتَين. ولم نكن قد تناولنا فطورنا الصباحي بعد. دفعتها نحو حوض الماء : هيّا بسرعة، تحت الماء، الخرق المتسخة ! كما قرّبت الكرسي الصغير الذي تصعد فوقه لتصل إلى الحنفية حينما يجب أن تغسل يديها أو وجهها. صعدَت، أمسكَت بقطعة الصابون ؛ ولكن في اللحظة التي تدخّلتُ لمساعدتها، أطلقَت صُراخَ احتجاج. فتسرّب منها البول رَغما عنها، ربّما تحت تأثير سيلان الماء. لم أرَ شيئا

ولكنني سمعت. ولكنّها أعلنَت ذلك للجميع فرِحة قبل أنْ تواصل البول إلى النهاية. نزعتُ لها المنامة. لم يعد أمامي من خيار إلا رفعها ووضعها داخل الحوض حيث تغتسل كل صباح. لم تنطق بكلمة ؛ ربّما لأنها رأت نفسها جالسة داخله، فسكتت فورا.

وفيما كنت أحكّ جسدها، كانت تغسل أسنانها التي لم تبرز جيّدا بعد. تستعمل الفرشاة بعناية ظاهرة، بالقدر الذي تستطيع، أشارت إليّ بالتوقف والفرشاة لا تزال داخل فمها. ماذا حدث ؟ أصرّت أن تغسل بنفسها ما بين ساقيها. تركتها تفعل. وبلطف، تَترك جسدَها يتمدّد بين ذراعيّ لأحملها إلى غاية السرير الفنلندي، سرير يتحوّل إلى مقعد في النهار. هذا الجسد الطفلي، دوائره الشفافة المكشوفة، مدّته الدافئة. وقفَت أمام النوافذ، في مثل طولي تقريبا، تغمرنا زرقة الساعات الأولى للصباح، زرقة السماء، زرقة الغابة، زرقة النور الذي يتدفق على بشرتها التي بلون المشمش الجاف، قمت بتجفيفها وبعد ذلك ألبستها.

كان الفطور غداءً حقيقيا هذا الصباح، فتمدّد وقته دون أنْ نعرف السبب. أخيرا بدأ الاستعداد الصاخب لذهابها إلى الحضانة. نزلنا إلى الحديقة قبل الآخرين، ليبل وأنا، تلك الحديقة المنعشة الخارجة توّا من الليل حيث انطلقت ليبل تجري في ذهاب وإياب متواصلين. قطفت أزهارا لا يزال الندى يبللها، وحاولت إدخالها في ثقب قفل قميصي.

- ما أجملها بابا ! ما أجملها بابا !

كانت تكرّر جملتها مبتهجة كلّما نجَحت في إدخال زهرة في ثقب قفل كما لو أنها تعلّق لي أوسمة. بَعد ذلك، تَترك الأزهارَ وتعود إلى هوايتها المفضّلة، القوية، ألا وهي انتقاء الأحجار الصغيرة. تملك حسّا حادا في العثور على أجملها، رغم اختلاطها بالحصى. ثمّ تمسحها جيّدا، جيّدا. وبعد ذلك تأتي إليّ لأتأمّل جمالها. ينتهي مصيرها جميعا داخل جيبي حيث تضعها بيدها. صَحيح أنّ لهذه الأحجار طبيعة خاصة، فلا تتشابه أحجامها ولا أشكالها. سأحتفظ بها إلى أنْ تُصبح في العشرين من عمرها. حينذاك سأرجعها لها.

والخطابات التي تلقيها عليّ خلال ذلك. أكون بليدا كما البهائم التي لا تأكل إلا التبن إن لم أفهم كلامها. لست بحاجة إلى معرفة الكلمات. أكتفي بالقراءة في ملامح وجهها. ويتعدّد وجهها : متسليا، متفاجئا، حائرا، مركزا، سعيدا، شقيا، هائجا، ويزيد تغييرا، ويتغيّر دون توقف. تستَثمر كاملَ حيَلها دون أنْ تتظاهر بذلك، وها هي تغرقني فعلا في لجّ من الكلام الفنلندي. ربّما كانت تعصر ملامحي التي تتمدّد مثل ثرثرتها. تستعيد الأشياءَ منذ البداية بكلمات يسهل فهمها، كلماتي أنا، تكرّر حكاياتها، تزيد من سرعة تدفقها. أشارت إليّ بسبّابتها المكلفة بجلب انتباهي. ثمّ بكامل يديها المفتوحتين، كما لو أنّ السبّابة لم تفِ بالغرض المطلوب، كما

لو أنها تقول لي : أنظر إلى الدمية البليدة التي لست قادرا على فهمها.

وفي امتداد منطقها الذي لا يكترث بلحظات الانتقال لأنّه يتعامل مع الأشياء بشكل مغاير، ها هي الآن تغيّر موضوع النقاش وتسأل دون مقدّمات :

- بابا، هل يمكن للجميع أنْ يقبّلك ؟

إنّه فعلا آخر سؤال أنتظره منها. أحاول لمّ أشتات تفكيري فيما وقفَت على رجل واحدة، في توازن محكم، معتنية بأن لا تمرّغ أنفها في التراب، تنتظر إجابتي، ثمّ تمايلت قليلا على الرجل الوحيدة في نفس التوازن الهشّ التي استطاعت المحافظة عليه. قلت في نهاية المطاف :

- لا.

- وماما، هل تستطيع، هي ؟

- هي، نعم.

تفرّستني بابتسامة غريبة، الرأس مائل جانبا كما لو أنها كانت تراقب بعينيها الرائعتين، الرهيبتين، كما لو أنها تترقّب الإمساك بتعبير ما على وجهي، أو تقوم باكتشاف ما.

- وأنا ؟

- أنتِ أيضا.

- آه ! ومَن آخر ؟

- لا أحد غيركما.

- هل هذا صحيح ؟

- طبعا صحيح.

- آه.

لم تنطق إلا بصيغة تعجّب ؛ أمّا أنا، فهزّتني رجفة داخلية. أدارَت لي ظهرَها، وابتعدَت تقفز على نفس الرجل، دون أن تفقد توازنها. رافقتُها ببَصري، أرتعد، أنتظر أن تلتفت، - أو أن تسقط ؟

ظهرت روسيا، هبطت الأدراج القليلة لمدخل المنزل وبعَين بحثت عن الشيء، أيّ شيء، يمكن أن لا يكون في مكانه، وبأخرى خطفت ليبل.

رافقتهما إلى غاية موقف الحافلات. أثناء الطريق، بدأت ليبل بشدّ يد أمها، والآن تجذبني إليها، تريد أن أمنح لها يدي بنفسي. هكذا، مشينا اليد في اليد، مع أنّ الطريق التي يحيطها سياجان لم تكن واسعة بالقدر الذي يجمعنا، يسمح لنا بتشكيل صف واحد.

العودة إلى المنزل. ولكنني لا أدخل، تأخّرت في الحديقة. هذه الحديقة التي يحاصرها احتياط الغابة الداكن، كم من شحنة نور تتحمّل ؟ في النهار، يضغط النور على الأشياء، جميع الأشياء. ولكن القوّة العظمى : الثبات، السكوت. لقد رأيت في أقصى الشمال بحيرات بدَت مياهُما كما لو أنّ بريقا

من الخلود فاجأها وأبقاها على تلك المفاجأة، مياه حيّة في الأصل، انسحبت من نفسها منذ تلك اللحظة، لتصبح مرآة زمان لا ينقضي. تحيطني الآن كامل هذه الأشياء. في هذه اللحظة. حديقة، سماء، ألق النهار. من لبّ مشابه. كل ما يحيط بي. الليل نفسه حينما سيخيّم على المكان لن يُظلِم دوائرَ الأشياء، لن يخفف من وطأتها، حضور لا يمحى، يتحوّل إلى بياض، وقد مسّه بريق الخلود – مسّه ؛ ممنوع. «وجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ؛ فَمَحَونَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً». ماذا حدث لهذا الجزء من العالم ؛ لأيامه، لياليه ؟ هل وقع في منزلة بين المنزلتين حيث لا يعرف كل جزء من الزمان إلا التعبير عن ضده ؟ في الصيف، تكون منفيا من الليل وأنت في قلب الليل ؛ في الشتاء، تكون منفيا من النهار وأنت في قلب النهار ؛ الليل والنهار منفيان الواحد في الآخر وذلك الذي يقول، أنا، من النفس إلى النفس. تسجّل خسارة قدرها ستة عشر يوما في السنة. أليس هذا هو البرزخ إنْ كان موجودا وإنْ أمكن لنا العيش داخله ؟

جلست على طاولة العمل، ومنحت لنفسي بذخ إعادة كتابة ترجمة مع نسيان النص الأصلي. في واقع الأمر، أحاول نسيانه. أنْ نُترجم، أنْ نحلّ المعادلات، هذا مقبول، تلك المعادلات المستعدّة دوما للمطالبة بأجوبة عديدة في آن واحد، حتى وإن كانت بسيطة. ما هو الجواب الذي سنَحتفظ به، لأنّنا لا نحتاج إلا لجواب واحد، لا غير ؟ إن الميزان الذي يمنحه لنا عادة ما يكون حسّاسا للغاية. هذا الميزان هو أنتَ، حيث ستسقط

منه الصيغة المناسبة وستُسجَّل على الرخام، حرفيا، وستشكِّل العتمة القادرة على دفع اللغة الأخرى إلى الوراء، تطمسها، تذيبها. ليس من الوهلة الأولى، سيبقى نصّك تحت التأثير لبعض اللحظات ؛ لقد أصبح النص الأصلي شبحا، ولكنه يرمي بظلاله على النص الذي تريد تشكيله، يجب أن تعرف هذا الأمر وليست معرفته سهلة دائما. أنا في هذه المرحلة، أعيد كتابة صفحات عديدة ستعرف ولادة جديدة بعدما تتحرّر من حالتها الأولى.

أكتب، أشطُب، أستسلم لتفكير بدا كأنّ له صوتا ككشط جرذ. هل حقا بدأت أفكاري تنتج مثل هذا الصوت ؟ أسمعها في ذلك السكون العميق، برغم ضآلتها. أستمع، ينفتح الباب. أدير عينيّ عن عملي. ينفتح الباب أكثر، بهدوء. وتنزلق ليبل-الفأرة بخطوات وئيدة داخل الحُجرة. ليبل العائدة من المدرسة بهذه السرعة ؟ وجدت صعوبة في تثبيت أفكاري، هل أفرط الزمان في سرعته، أم كنت أنا المفرط في بطئي ؟

بعد أنْ أغلقَت ليبل الباب خلفها بحذر كبير، بدأت تتقدّم بحذر أكبر. لماذا ؟ إلهي، تتصوّر أنّ دخولها عليّ سيزعجني ! بخطوة مدروسة، جاءت إليّ، بذراع ممدّد كما لو أنها تجرّ شيئا. ما هذا الشيء : لا أرى شيئا. عندما وصلت إلى مكتبي، سألتني برفق :

- بابا، هل تريد أن تُحيّي كيكي ؟

ارفعي صوتك بنيّتي ! لا تقلقي، لا أفعل شيئا قد يجبرني على غلق أذنيّ حينما تريدين مكالمتي. ولكنني لا أفهم، إنّها المرّة الأولى التي يبدو لي أنّها تأخذ حذرا كبيرا لعدم إزعاجي.

- أحيٌّ مَن، ليبلتي ؟

ألقت نظرة إلى جانبها لتظهر لي، وقالت مستعيدة صوتها الطبيعي :

- كيكي. ألا ترى ؟ إنه هنا.

رنّ صوتها الطبيعي، الصوت الجهوري الذي يُسمَع من بعيد. فجأة، أدركت، أي أنني لا أرى شيئا، ولكنّني أتصوّر. إنه واحد من هؤلاء الرفقاء الذين يأتي بهم بعض الأطفال يحار الشيطان من أين : يجلبونه معهم من عالم غير عالمنا نحن. غير مرئي لعيون عديمة الجدوى مثل عينيّ. إنّ واحدا من هؤلاء حاضر هنا معنا. ليس حضورا كاملا ؟ ليس حيا كاملا ؟ ليس حقيقيا كاملا ؟ ربّما سيكون كيكي أكثر من هذا كلّه، سيصبح مزعجا حقا. سيصبح هذا النوع من الأطفال مزعجا دون أنْ نقدر على فعل شيء. أتصوّر أنّ الوقت مُبكّر لطرح السؤال، لمعرفة إنْ كان سيصير جزءًا من العائلة. ولكن لنا حق طرح السؤال. فقلت :

- آه، إنه كيكي ؟

أردت لنبرة صوتي أن تكون طبيعية، وأسهر على الحفاظ عليها. كرّرَت اللفظة بالتشديد على الكاف مثلما تفعل في لغتها :

- كيكِّي !

كان بإمكاني الانتباه إلى هذا التفصيل. وبما أنّني سمعتها تنطق الكلمة أمامي، قلت بعدها :

- كيكِّي.

وبعد ذلك لم أعرف ما حدث لي، لم أقاوم رغبة إضافة :

- كيكِّي-ريكِّي-تيكِّي-تافي النَمس.

تقطّب كل ما يمكن أن يتحرّك في وجه ليبل : الحاجبان، الأنف، الشفتان. والصوت الذي يسأل أيضا :

- ماذا تحكي ؟

ثمّ أضافت بنبرة معلّمة أثارت في نفسي الاشمئزاز :

- بابا، ما هذه الحماقات ؟

لُمْت نفسي عن ذلك الانحراف اللغوي ولكنني لم ألح، فقلت كما لو أنني أعرفه منذ زمان طويل :

- آه، نعم، كيكِّي ؟ طبعا.

تلألأ بريق الرضا في حدقتي نيفَرتيتتي، وهي التي تلمَع دون هذا. اطمأنّت ولم تتردّد في إضافة :

- إنه صديقي. قل له صباح الخير، بابا.

- صباح الخير، كيكِّي.

فأجابت ليبل معه بخيط صوت مبهوم :

- صباح الخير.

وبعد ذلك غيّرَت هذا الصوت الكاذب المخشخش بصوتها الشفاف لتشرح لي :

- إنّه صغير جدا، أصغر منّي، ومع ذلك يحسن الكلام. يعرف فعل كل شيء.

أخذَته تحت حمايتها على حَسب ما أرى، أقول أرى مع أنني لا أرى شيئا. مع أنّي أراها تمنح يدها لكيكّي، تلتفت، تنظر إلى جهته لتقول له :

- الآن لنذهب كيكّي. نترك بابا يشتغل.

غادر الاثنان الغرفة، تتحرك ليبل بخطوات صغيرة، ذراعها ممدود خلفها. يكون كيكّي صغيرا جدا لتضطر إلى سحبه بهذه الكيفية والتعامل معه بهذا الحذر الكبير. كم من الوقت دام هذا المشهد ؟ سيجيبنا عنه المستقبل، مستقبل نريد الاعتقاد أنّه قريب. شيء أكيد على الأقل، إنّه طفل.

عدت إلى ترجمتي، ولكنني أحسست بالعجز في مواصلة العمل. بقيت أتأمل عبر النافذة النهار الذي يتملّص، ينتهي مع انسحاب الغسق حيث تحترق قمم أشجار السَندر في شُعل مستقيمة شفافة. ستحترق هكذا إلى غاية سقوط الليل، إلى غاية الدقيقة الحتمية التي يدخل العالم الأبيض في الليلة البيضاء.

الواحدة صباحا، تتوجّع روسيا في سريرها. تبكي وتصرخ، تهدّد بالذهاب، بمغادرة المنزل، هنا في هزيع الليل، هذه الليلة التي يتواصل بياضها في الخارج، ليلة سهاد. هدّدت بالانتحار.

تتكلّم، بجرح نهائي في الصوت. لا يبدو أنّها تعي أو تفكّر أنّ شَخصا يسمعها. أنّني أسمعها. لا تكترث. تتكلّم مثل الذي يفقد كل أمل في أن يُسمَع من فرط الكلام ولا يريد أحد توقيفه. تتكلّم منذ مدّة، مدّة طويلة، لا تتكلّم إلا لنفسها، واكتسَى صوتها خشونة جريح. إنّه موت الحبّ الذي يعرض كامل رعبه.

انتابتني رغبة غامضة : أنْ أضمّها بذراعيّ، مندفعا، لأخلّص ديني اتجاهها، دون أن أعرف ما هو. أو أنْ تغفر لي. هذا هو ؛ أنْ تغفر لي. ولكنني لا أعرف أيضا لماذا. لا أعرف مَن منّا نحن الاثنان يجب أن يتوسل المغفرة من الثاني. لم آخذها بين ذراعيّ. ميّت مُمدّد في مكانه، جامد، بارد، لحدّ هذه اللحظة أنا هو هذا الميّت. وحده الموت يجمد شخصا بهذه الطريقة.

تحلم ليبل بكابوسنا وتشهق داخل حمّامها الزائف. تبكي ضدنا. إنّ العجز الذي يكسّرنا كما لو أننا فوق قرمة جزار ليس حقدا. إنّه شيءٌ تصعب تسميته. إنّ الاعتراضات التي نوجّهها لبعضنا البعض تمنح شبه تبريرات ليس من ورائها أيّ طائل. هذا هو وأشياء أخرى. ماذا تريد منّي هذه الليالي ؟

يثقل الليل على النوافذ، كمياه تزيد شفافية، بعد أن تدحرج بين أشجار الصنوبر والسندر والراتينجية ونبات الغُبَيراء وأنواع أخرى من الأزهار البرية، والحشائش المنطلقة، هناك بعيدا، وهنا قريبا، تلك الأشجار والنباتات التي سهرت طوال الليل، وكذلك الطيور. ولكنّه سيَمرّ مثل عادته دائما، سينسحب ولن يقول لنا ما ينتظره منّا كغيره. لتبقى النوافذ مشرعة وعيونها مفتوحة، أرواحها على العالم، على مجيء النهار. نحسّ به، النهار الآتي على آثار الليل. هكذا سوف لن تُطبَع الأشجار والأزهار، وكذلك البهائم، بانتظار الشقاء.

اليد و الذاكرة

هذا الصباح، تمدّدَت ليبل بقُربي وراحَت تلمس وجهي برفق، في اتّجاه، ثمّ في آخر، تطيل استكشافه كما لو أنها تريد الذهاب بأصابعها إلى أقصى حدّ المعرفة، -ربّما لصَقل الذكريات ؟ إنّها أول من يستيقظ كل يوم. أخذتُها من سريرها قبل فترة قصيرة. أنَمتُها بقربي ولكنها لم تغفُ ثانية. يحدث لها هذا، ولكنها اليوم بدأت تمرّر يدَها على وجهي. هكذا نتحوّل، هي وأنا، إلى حلم ملَك. بعد لحظات وجيزة، سأكون بعيدا. ربّما بدأ يحلم بنا، هذا الملَك، كيف سنكون في ذلك الوقت. ليبل كائن جديد. لا تملك ذاكرة. ربّما سيكون حلم هذا الملك ذاكرتها. انبثقَت ذكرى أبي المتوفى حينما كنت في عمرها تقريبا عبر إحساس مماثل ليَدَيّ، علامة بقيت منقوشة في تجويف راحتَيّ. لقد تاهَت أصابعي في مداعبة مماثلة، في حلم مماثل، على وجهه المنتفش بسنن صغيرة. وتُواصل الأصابع في هذا الحلم عَجن بشرة الرقبة الأكثر نعومة. يتواصل الحلم أكثر حيوية، بحرارته المنعشة. هل تعرف ليبل هذا الأمر، هل تعرف بأن

ذكرى لطيفة ستبقى من هذا الحلم ؟ ربّما لا وجود للحب إلا في مثل هذا التواطؤ وفي سرّ الأحلام المتقاسمة.

إذا حدث لها الآن ما كان يحدث لي سابقا، ستغفو شيئا فشيئا، ويدها محطوطة على وجهي.

كما نحلم أثناء النهار أيضا، العيون مفتوحة. حينما تقفز وترتمي عليّ مثلا. لا أحد غيرها وغيري يعرف أنني كنت الشجرة التي تتسلق فوقها، كما السنجاب، وتجتهد للوصول إلى القمّة. أو حينما تمتطي رِجْلا من رجليّ المتشابكين، كما الأمازونية المنطلقة لاكتشاف الأراضي المجهولة.

مرّة أخرى يأتي المَلَك نفسه ليَلعَب مَعنا حينما يتنافس خيالنا ونغرق في لعبة الألغاز. لا أتذكّر كيف حدث هذا، كيف انبثقت الصورة الأولى. يبدو لي الآن أننا، شيء مستحيل، لم نقم بفعل أي شيء آخر.

كانت طاولة الأكل مسرح تحدياتنا الدائم. وأنطلق :

- تلبس في الحرارة.

و تتعرى في البَرد.

- الشَجرة، أجابَت فَورا.

وتنطلق بدورها :

- مُتعَبة أمْ لا

نحبّ دائما الارتماء

بين ذراعيها.

أضحك، مُعتَبرا أنّ خيالها جامح فعلا.

- الأريكة، قلت واسترسلت :

يستيقظ

حينما ننام

وينام

حينما نستيقظ

فكّرت ليبل لفترة قصيرة فيما كنت أراقبها. فجأة بدأت تقفز فوق كرسيها، كانت جالسة، فصرخت :

- القمر ! القمر !

يا لها من سعادة ! سعادة انفجرت ضحكات. يكون المَلَك يقهقه أيضا، هناك حيث يوجد، هناك حيث يراقبنا. عبّرت ليبل عن ابتهاجها بإيجاد الحل وبسرعة، فصاحَت :

- الآن، جاء دَوْري أنا، أنا !

حينما تفتح عينيها

يرى الجميع بوضوح

خادعتُها هذه المرّة، ولعبتُ دورَ العاجز، الجاهل. أظهرتُ جهودا كبيرة، قطّبتُ وجهي، عضضتُ شفتيّ، بلا جدوى، لم أعثر على الحل. حينئذ، استسلمتُ وأعلنتُ :

- لسان القط.

- إنها... إنها... هيّا، بابا، إنها...

- ماذا ؟

- بابا !

طبعا لا أعرف الجواب.

- لا أعرف.

- وأنت الذي تظن أنك بارع في كل شيء : الشّمس !

- آه ؟

- نعم الشّمس، يا أذكى رجل على وجه الأرض !

- حانَ دَوري، قلت مقترحا عليها لغزا صعبا نوعا ما.

هو يتسلق الشجرة

وأنتِ تهبطين

- فقط ؟ سألَت :

- فقط.

مطّت شفتيها، تبحث، حائرة. قلت :

- هيّا بسرعة ؟ يا أذكى بنت على وجه الأرض !

رمقتني بنظرة شزراء. وكرّرتُ :

- أنتَ تنزلين، أمرٌ سهل.

أخيرا قرّرت قائلة :

- هذا اللغز ليس مهما. سأطرح عليك واحدا مسلّيا.

- القرد، قلت.

- ماذا، القرد ؟

- القرد : تنزلين منه.

- أنا لا ! أنت، نعم.

- هيّا الآن، اطرحي لغزك. أحب الألغاز المسلية.

لم تتأخّر ثانية :

- يكتب

ولكنه لا يعرف الكتابة.

- القلم ! إنه القلم، أليس كذلك ليلتي ؟

- هنيئا، بابا !

- مسلية فعلا، أنا أيضا، سأقترح عليك واحدة مسلية :

تسيل الشمعة

لأنها تحسّ بالحرارة

وهو يسيل

لأنه يشعر بالبرد

صاحت ليلى مباشرة :

- الأنف !

- لستِ أقل ذكاء منّي.

- أنا أكثر ذكاء منك !

كانت روسيا تنظر إلينا، تسمعنا عبر قناع من الوقار ولم تبحث في أية لحظة أن تلتحق بنا وتشاركنا ألعابنا. لم تغريها ألعابنا أبدا. ملَكها ليس من اللاعبين. غالبا ما تملك روسيا نظرة من يتأمل بحرا لن يَعبُره أبدا.

ها هو صباح جديد. لا يلتبس مع صباح آخر، لا يأخذ مكانه، لا يزاحمه. بمجرّد بزوغ الفجر أتصوّر منحنى السماء المحلّق في هذا النهار الجديد، جناحُ غدَره الطائر. أتصوّر المروج الخضراء، وأشجار السندَر المغطية بفساتينها البيضاء الخارجة توّا من المغسَل. أشياء تغني بلا ضجيج، وأشياء أخرى تسمع. يبزغ الفجر من أجلها، من أجلنا، تستقبله هذه الكلمات الملغزة. تختلط بها كلمات واضحة الدلالة. من أين خرجَت ؟ أحاول تخيّلها. من القريب جدا. وأدرك : إنها هنا، إنها معنا، تخرج من سرير ليبل. إنّها تتحدّث بمفردها.

بقفزة فظة، تمسكها روسيا وتعيدها بيننا. انتهت الزقزقة، خرير الساقية التي تتعجب من تاريخها الخاص. كيف نتصوّر معاملة أمهات التتار مع ذريّتهن ؟

لا أحد منا غفا ثانية. ربّما غفت روسيا قليلا، أما أنا فلا، وأمّا ليبل فلا أظنها فعلت. ليبل إلى جانبي، كالقطة،

تبحث عن وسيلة تعبِّر لي عن حنانها. فوجدَت. قامَت بإشارة من أصبعها، وأرَتني خدّها. هذا شيء جديد ؛ هل قلت هذا قبل الآن : لا نقبّل الأطفال في هذا البلد. لقد فهمَت بسرعة، تعلّمَت بسرعة (منّي). أما أن تطلبه بنفسها، أمر حيّرني. بُنيَّتي تتغيّر. طفلة رائعة : هناك السرّ أيضا. قامت بإشارة من الأصبع بلا كلمة، إشارة يحيطها السرّ، يبقى بيننا، فهمناه وتعلّمناه بسرعة، سرّ نتقاسمه الآن. لم تقبّلني وتتعرّف علي فقط، أنا الآن على وشك أن أصبح لديها ما ينبغي أن أكونه. تنتظر.

أقبّلها، ومثلما هي ممدّدة على الظهر، أجذبها، الذراعان نحو الأعلى، الساقان نحو الأسفل، أقبّلها مرات عديدة. أحدَث لها هذا التمرين متعة قد تعوّدت عليها. عبّرت عنها بابتسامة ليسَت موجّهة لي، ليست لأحد، ابتسامة موجّهة لملَكها. أبهجتني كما لو أنها وُجّهت لي. الآن، يمكن لها أن تذهب لتأكل خبز زهرة الدقيق الذي أعدّته لها جدّتها وتحافظ عليه ساخنا في المطبخ.

لم تتحرّك من الغرفة. تنتظرني أنْ أصعَد من قاعة الحمام. ثمّ تنظر إليّ وأنا أرتدي ملابسي ؛ ساعدتني على وضع رجليّ داخل النعلين، شيء تصر دوما على فعله. والآن تمسكني من يدي لتأخذني إلى المطبخ.

لا، تتراجع عن قرارها، تمنع عنّي المرور وتتسمّر أمامي. ماذا حدث ؟ أبقى واقفا هنا، بسحنتي المندهشة، وهي بسحنتها

الهادئة. ماذا يحدث : ستقوم بأداء مشهد. كما البارحة، كما ما قبل البارحة، كما الأيام الماضية. نَعم، معرض لشرفي ومن أجل إرضائي. ستقوم بدورِ المهرّج بيلي هرماني. حينئذ قفزَت بأعلى ما استطاعَت وسقطت على مؤخّرتها، جميع أطرافها في الهواء. صفّقتُ، أدركت كَم كانت عينا ابنتي تنادي تلك التصفيقات. مَجزَرة في صبرا وشتيلا. أدّتها لشرفي ولأجل رضاي الخاص، وأنا صفّقت. نساء، أطفال فلسطينيون ؛ مجزرة حقيقية. التحقنا بالآخرين في المطبخ حيث ينتظرنا فطور الصباح، ترافقني، تقودني.

كانت روسيا قد نهضت وسبقتنا إلى الطاولة، إنها تنجز جميع أشيائها بسرعة.

ومنذ ذلك الحين، إنه الصباح، صباح جديد ساطع نوره. يهيّج، يدفع أمامه جميع الهبوب. كما الآخرين، لا يعلنه، إنه المستقبل، أكثر من وعد، إنه المستقبل في الحاضر.

إنه هو، هذا الصباح الصيفي، منذ فترة وجيزة. هذا المستقبل. وأنا الصاعد من قاعة الحمام، وقد أنهيت ارتداء ملابسي. وصلت ليبل من المطبخ ودخلت الغرفة مسرعة. ليبل مستعدّة لفطور الصباح بفستانها الجميل بحباته الزرقاء، خُرْدَق مزروع على عمق أبيض. طبعا، اليوم هو الأحد. جاءت كي تعرض عليّ جمال فستانها وزينتها. أيوجد شيء طبيعي أكثر من هذا. تَمشي أمامي مُتمايلة، ثمّ فجأة تتوقف، تستدير وتتجمّد في مواجهتي. تؤدي دورها مرتين متتاليتَين، ثمّ تنحني، تأخذ

أحد نعليّ وتقدّمه نحو رجلي. تلبسني الثاني بنفس الخفة. بعد ذلك تنتصب منتصرة، تمسح يديها بحكهما الواحدة ضد الأخرى في هيئة ملاكم انتصر على خصمه. في نهاية المطاف، جاءت من أجل هذا، كما جاءت من أجل أن تعرض عليّ زينتها الصباحية.

الآن يجب أن نذهب. لا داعي للتأخر حينما تأخذ ليبل بزمام الأمور. وقبل أن نصل إلى المطبخ، سألتني :

- بابا، هل أنا فعلا الطفلة التي تمنيت أن تكون عندك ؟

يا لها من ماكرة، أيقظت شكوكي نبرةٌ في صوتها :

- نعم. ولماذا هذا السؤال ؟

- هكذا. لأعرف. وإلا...

- و إلا ؟

- لا شيء.

- كنت سأمنح كل شيء لتكون لديّ هذه الطفلة.

- هل هذا صحيح ؟

- نعم.

خفضَت الرأس الذي رفعَته نحوي، واحتكّت بملابسي.

المياه حينما تتلألأ، حيث تتراقص فوقها أشعة الشمس. المياه حينما تبهر نفسها. هكذا يبدو وجه ليبل على الطاولة.

تأكل ليبل كما لو أنها مع مختطفيها. كما لو أنها لم تذق أبدا أحلى من هذه الأرغفة الصغيرة للخبز الأسود المطلي بالزبدة المالحة التي أضفت فوقها طبقة من العسل. حُضِّرت من أجلها، وُضعت في صحنها، وها هي تلتهمها بتلذّذ ظاهر. لا غيمة هذا الصباح فوق سماء فطورنا. وكانت نظراتها، كفراشات نورية، تحلّق في جميع الاتجاهات. وكذلك شفتاها، فراشات لم تتوقف أجنحتها عن الخفقان، وإنْ داهمتها ضحكة، يتضاعف خفقانها ؛ أو أنها صرخت عند مرور سنجاب في الخارج، من صنوبر إلى صنوبر، إلا إذا سعَت إلى افتكاك موافقة روسيا، وأحيانا موافقتي، لأنها أرادت شيئا يوجد هنا على الطاولة. وها هي من جديد، تطلق الصيحات لأنّ طائر القُرقُف جاء لزيارة مَعْلَف الطيور عند أسفل النافذة.

مرّت الليلة الماضية في هدوء. يَحدث لنا هذا، وبدَت روسيا هادئة أيضا، بهيئة عارية تحت جمالها، هيئة كل ما نريد حبَّه. وبابتسامتها، تُوقِف تهيّج وأمزجة ليبل الغريبة. تفيض إغراءً، تلك الشفتان اللحميتان، المعقوفتان قليلا، خاصة عند الابتسامة، فتتسرّب نعمتها إليّ.

اختارت الجدّة هذه اللحظة لتقطّع أرغفة ليبل إلى مربعات صغيرة : بذهنية النظام ؟ النظافة ؟ التقتير ؟ رفضت ليبل وطالبَت أرغفة تكون على شكل أرغفة حقيقية. طوَت ركبتيها وأسندتهما إلى الطاولة بقوة فرفعت كرسيَّها وأمالته بخطورة إلى الوراء. انتظرت مستعدة لأن تفعل أكثر. لم أتركها

تنتظر طويلا. دون أنْ أطلب موافقة أحد، أعددتُ لها أرغفة أخرى، مثلما تحبّها، أرغفة حقيقية. وخلال هذه الفترة الوجيزة، علّقت غيمةٌ تهديدَها فوق سمائنا. استأنفَت ليبل أكلها وكذا ثرثرتها، فراحت تحكي وتنطلق في ضحكات طويلة. انقشَعَت الغيمة. استقرّت الضحكات في مكانها. **هذه الضحكات. نفسها. عند ليبل وعند تلك التي تحتضر هناك في بلده، الضحكات نفسها، وليبل لا تعرفها ! وأنا ؟ هل عرفتها حقا ؟ لنتحدّث : أنا، لحم لحمها، هل عرفت حقا من هي ؟** لا داعي للقلق، تأكل ليبل بكيفية نظيفة، كانت دوما تأكل بهذه الطريقة النظيفة، أكاد أقول بطريقة متميّزة.

القسط الآخر للأشياء

أنهينا عشاءنا منذ قليل. قبل الذهاب للنوم، جلسَت ليبل على الأرضية وبدأت تعدّ دميتها للنوم أيضا. ألبستها منامة، وها هي الآن تهيِّئ مركبتها الصغيرة من السرخس والتي تُستخدَم كسرير أيضا. كنت جالسا على مقعدي وأنظر إليها كيف تفعل. كانت روسيا تغسل الأواني. سألتُ ليبل، إنّها المرة الأولى التي فكّرتُ في طرح السؤال عليها :

- كيف يسمّى رضيعك الصغير ؟

أمر غريب، إنها فعلا أول مرة. بدَت منهمكة جدا، فردّت دون أنْ ترفع رأسها :

- ليبل.

- ليبل ؟ وأنتِ إذن ؟ ما اسْمُكِ ؟

تركَت دميتها في مكانها، نهضَت، صعدَت فوق المقعد على طريقتها. أحاطَت رقبتي بذراعيها، همسَت لي قولا في أذني. ماذا تقول : لم أفهم. ربّما كان اسما. اسمُها، الاسم الذي تمنحه لنفسها. قلت :

- لم أفهم شيئا.

كرّرَت همسَها دون أنْ ترخي ضمّها، ولكن هذه المرّة، لم أفهم في الثانية نفسها، وإنما في الثانية الموالية. إنه فعلا اسم. اسمٌ مَجهول. أمسكتها من الإبطين، أبعدتها عنّي قليلا ونظرت إليها. ابتسمَت دون أنْ تبتسم. ابتسمت بتلك الابتسامة الخافتة التي تؤديها من حين لآخر. إنّه الانبهار والعمى : لقد تلفّظَت فعلا باسمها. قلتُ تَحت وقْع المفاجأة :

- لا ؟

هزّت رأسها لتجيبني :

- نعم.

كانت تقصد اسمها السرّي. يبدو أنه الوحيد الذي تعترف به. ذلك الذي تمنحه لنفسها في سرّها. لقد تلفّظت باسمها كما لو أنّها أزاحت ستارا لتظهر الشمس التي تضيء كيانها ولم تزحه إلا لي. لماذا خصَّتني بهذه المعاملة المفضّلة ؟ هل لأنني أنا ؟

إنني أنا وإنها هي. الثقة هي التي تجرؤ، مطمئنة بأنها لن تُخان أبدا. لقد تلفّظت بهذا الاسم، ليس عن طريق الخطأ ولا عن طريق اللامبالاة، كما أنها ليسَت لعبة، وبعد ذلك ابتسمَت. لم أتوقّع مثل هذه الإجابة. إلى غاية هذه اللحظة، ليس في سلوكها ما يجعلني أتوقّع شيئا من هذا القبيل، لا ما حدث قبل، أو خلال، أو بعد العشاء.

ها هو. سرّ آخر يربطنا. أَصبَحْتُ القَبرَ الذي يَحرس سرّاً إضافيا. هذا القبر الذي سأواصل مكالمتك من عمقه، ليبلتي، حينما يأتي دوري للهبوط إليه. أحدّثك، أناديك بهذا الاسم الذي همستَه في أذني. كما تلك التي تنتظر هناك لتلتحق بقبرها، ربّما لتهمس لي هي أيضا اسمَها الفريد من نوعه. مَهْد اللحم والدم، قبري الأول الدافئ، الحيّ، حملتني في بطنها، وسبقتني إلى حظي الثاني، قبري الثاني، واليوم تنام هناك في بلدها، في سريرها، وتنتظر. وأنتظر. تجمّعَت كامل ذاكرتها : ذكريات الطفولة وذكرياتها كامرأة، يلتَبس الماضي بالحاضر، ومُستقبلها الذي يواجهها. أنتظر. سيأتيني خَبرُها يوما، وأطلق صرخة مدوية أكبر من فمي. ليبل، أنتِ في طرف، وهي في الطرف الآخر، وأنا بينكما.

هل كنت الابن الذي تمنّت أن يكون لديها ؟ هل أنا ذاك الابن ؟ هذا السؤال، لم أطرحه عليها أبدا. ولكن ليبل طرحته عليّ. هل هي البنت التي تمنيت أن تكون عندي ؟ هي، طرحت عليّ السؤال، والآن، أتساءل : هل كانت تعبّر عن قلق ما ؟ أو أنه مجرد فضول طفل. أم أنه وهم من جانبي، وصعد القلق إلى رأسي. ربّما كان هذا السؤال يخفي وراءه سؤالا آخر : «هل أنت الأب الذي يناسبني، الذي أريده ؟» عندئذ، سأصوغ سؤالا مماثلا : «هل كنتِ الأم التي تناسبني، التي أردتها ؟» سؤال أوجّهه إلى تلك التي تحتَضر هناك في قارتها البعيدة والتي سوف لن تجيبني. مع كل الحبّ الذي نشعر أننا قادرين على منحه. ولكن هل هذا يكفي ؟ هل الأمر بهذه البساطة ؟ هل

نطفئ عطشا، قلقا، فضولا، غير مهم الشيء وتسميته. كيف لنا أن نعرف حينما تتخذ جميع هذه الأشياء وجها واحدا، وجه سؤال، سؤال واحد فقط ؟ هل هو فخٌ ؟

لم أكن حاضرا. روسيا هي التي تحكي. كانتا تنتظران هبوطي من الطائرة، هذا الشتاء. سألت ليبل :

- هل سيحملني أبي بين ذراعيه ؟

حكت لي روسيا الحادثة بعد وقوعها مباشرة، ولكنّها تناسَت أن تضيف إجابتها على السؤال. وأنا لا أتذكّر إن أخذتها بين ذراعيّ أم لا. إنه نوع من الأسئلة التي من مصلحتنا الإجابة عليها، وأنا لا أعرف إن حملتها بين ذراعيّ. وهي، ما هي الذكرى التي تحتفظ بها من تلك اللحظة ؟ لا أظنها تكون من تلك الذكريات التي تطاردنا، تطارد الراشد الذي سنصبحه طوال حياة كاملة.

لم أكن حاضرا. روسيا هي التي تحكي. كان ذلك أثناء نفس الشتاء. كنت قد فارقتهما مُنذ فترة وجيزة. مرضَت ليبل. عدوى معَوية أصابَت جميعَ تلاميذ المدرسة. توجد أكثر من طريقة لمواجهة المرض. أدخلت ليبل مبالغة واضحة في طريقتها، عنف أقرب إلى الهلوسة، وليس هناك ما يجعلني لا أصدّق روسيا وهي تروي لي تلك التفاصيل، حينما كانت ليبل تصرخ وتقيء بلا توقف وفي نهاية المطاف لم تكن تردّ إلا المرّة. كما كانت تطالب بحضوري ولم تفهم سبب غيابي، أين ذهبتُ ولماذا لم أكن متواجدا هنا إلى جانبها. أخشى أن تكون مريضة من

هذا الفراق أكثر من تلك العدوى المِعَوية. رفضَت شروح روسيا، لم تُرِد سماعها. كانت ترفضها وتتعنّت على ندائي. كان النوم الوحيد الذي يُسكت صراخها ودموعها. لم أجد شيئا أعلّق به على تلك الحادثة. كانت تريدني حاضرا إلى جانبها في الوقت الذي كانت في أمس الحاجة إليّ، وهي لا تراني. يحدث لي أيضا أن أريدها إلى جانبي وهي غير موجودة.

لم أكن موجودا. ذات مرّة، أسرّت ليبل إلى روسيا :

– حينما يقبّلني أبي، أحسّ بالرجفة. وعندما تقبّلينني أنتِ، لا أحسّ بشيء.

روسيا هي التي تحكي. أربكتني أقوالها، أتعرّف فيها على روسيا أكثر من ليبل. كانت ليبل تبدو دوما كما لو أنها تختنق تحت ثقل المداعبات. لذلك لا ألحّ كثيرا. ليس هذا سلوك روسيا. طبيعة مُتجذّرة لديها. تحبّ روسيا أن تُقبَّل وبدورها تحبّ أن تقبِّل. كلّ شيء لها. كما تحبّ أن تمشي عارية، إلى أقصى حدّ ممكن من العري، داخل البيت، في غرف الفندق، في أي مكان، بمجرّد أن نجد أنفسنا منفردَين. كما لو أنّ الألبسة تحرق بشرتها. وأدرك بأنها تشعر بسعادة قصوى وهي تترقّب بصري حينما ينحط على جسدها، على عريها. تدرك ذلك جيدا، فتواصل التجوال في بذلة براءتها. تدرك ذلك وتبتسم. ليست الابتسامة إلا واحدة من وسائل إغراءاتها. لا تبتسم من العينين أو من الشفتين، تلك الابتسامة التي لا تعبّر عن كلّ

ما نريد، ولكنّها تبتسم من كامل جسدها الذي تُواصِل إبرازَه في سطوع عريّه، ذلك السرّ الذي يلفّه دوما.

إنها كلمات، لحظات مسروقة، دون حساب الثغرات التي لا يسدّها شيء، ولا ينصفها أحد ؛ كما الأطراف الشبحية، هذه العتمات التي نحسّ بثقلها. هكذا يذهب الشبح المعوق، الذي يرتدي الثقوب، وتعبره الريح المعتّمة، كما الزمان.

أما بالنسبة لليل، فإن المسألة تتعلّق برغبتها في فرض استقلالها، أن لا تكون إلا هذا، كتلة من الحرية. ولم يمنعها هذا - تحكي روسيا أيضا- من البوح إلى أمّها :

- أحبّ الجلوس على ركبتي أبي.

ولا تحرم نفسها، الماكرة، فلا تتردّد في التسلل بيني وبين طاولة العمل، ثمّ الركوب فوق ركبتيّ، قائلة :

- أريد أنْ أعمل أيضا.

عندئذ، ينبغي إعطاءها ورقة وأقلاما، وإن أمكن أقلاما ملونة، ولكن ليس بالضرورة. وبعد ذلك تنجز، بجرأة لا يقدر عليها إلا الأطفال، رسوما لا نعرف ماذا تمثل ولا ما توحي إليه، على الأقل بالنسبة إليّ، ولكنها تتركني حائرا مفكرا ؛ على الأقل بالنسبة إليّ. ابتداء مِن تلك اللحظة، لا ينصب اهتمامها إلا على شغلها وتلك الورقة التي تُميل إليها رأسَها. لا وجود للأشياء المحيطة بها، ولا للمكان الذي تتواجد فيه، ولا لي أنا الأقرب منها. وتفكّر بصوت مرتفع، ولا تكترث

بعدم وجود شخص هنا ليسمعها. وحتى إن وُجِد السامع، فلا تشرح مشروعها، ولا تبوح بمعالمه. أو ربّما لمستمعيها، فنحن لا نراهم. القط هنا، يتظاهر بالنوم، ولكن أذنه تتحرّك، يسترق السمع إلى هذه الحكايات المرتجلة في مقابل إبداع لا يعرف الغفران. أستمع أنا أيضا، أستمع ولا أفهم، إلا جزئيا، هذه الأقوال الحالمة. ولكن هل توجد طريقة أسمى لفهم شيء ؟ أو لفهم شخص.

في هذه اللحظة، أجلس على أريكة وأقرأ. أو بالأحرى أجلس للقراءة. بعد لحظات، تحوّلتُ والأريكة إلى مكان تعجّ فيه الدمّى، والحيوانات بأنواعها، جاءت واستقرّت كما لو أنها استجابت لدعوة. اتخذ كل واحد مكانه، ليس أيّ مكان، إنما المكان الذي اختارته ليبل بعد تفكير ناضج ومحاولات عديدة. هكذا، تواجدت بعض هذه الكائنات في أماكن غريبة، على صدري، على ركبتيّ، على كتفيّ، على رأسي، وبين ذراعيّ أيضا. في هذه اللحظات، تقف، تتراجع قليلا إلى الوراء وتمسح بنظرة متفحّصة الجمع مثلما رتّبته. ترتيب مُحكم. هل هي راضية ؟ لم تقل شيئا. ولكن ابتسامتها قالت. هو أيضا لم يقل شيئا، كانت ابتسامتها فعلا، ولكنها شبه ابتسامة. كادت تلامس تقاسيم وجهها. وأضافت تنهّدا. مريحا، بطبيعة الحال ؛ ويمكن القول بأنها ابتسامة حزن، شيء من هذا الحزن الذي يولد عند إنهاء إنجاز عمل ما، وتتركه كلّ نهاية إنجاز عمل.

أما أنا، فلا ينبغي أنْ أحرّك ذراعا، أو ساقا، ولا حتى عضلة. وإلا عرّضتُ للخطر التنظيم العالِم، ثمن الجهد الكبير. والآن ؟ الآن، يحدث الذي سبق أن حدث، ليس مرة واحدة، وإنما مرات عديدة. ستنشغل ليبل بشيء آخر. لها ما تفعل الكثير. تركتنا، الألعاب وأنا، نقدّر مزايا ورفاهية الوضعيات الأبدية. إلاّ إذا... أحيانا، تأتي بنفسها لتبحث عن مكانة وسط عالمها، مكانة ليس من السهولة العثور عليها، صدِّقوني.

ليس هذا ما يهمّها في هذه الساعة. لا تفكّر فيه. ما تريده، هو أن أقوم بدور الحَكم. نعم، فبعد أن تسلّقت على كرسيّ مُسندٍ إلى الجدار، وقفزَت، ثمّ جرَت نحو الجدار المقابل، صاحَت :

- بابا، أنظر بسرعة، من سيصل الأوّل، أنا أم كيكّي ؟

كيكي، إنه يظهر دائما بهذه الطريقة : في اللحظة التي لا ننتظره فيها، ينبثق من هذا البعد الصامت الذي يبدو أنه الوحيد الذي يسكنه، زاوية هواء يخرج منها فجأة ليلتحق بليبل. أو ربّما هي التي تذهب للبحث عنه حينما نكون منشغلين بالتفكير في شيء آخر. لا يوجد هنا شيء يثير قلقنا، لا شيء سوى الشفافية، الغياب المهيمن لهذا الطفل.

مسّت الجدار الآخر، فقلتُ :

- أنتِ !

ابتهجَت، فقرّرَت دون انتظار :

- سنعيد السباق وستنظر جيدا هذه المرّة.

- كُوني مطمئنة.

صعدَت من جديد فوق الكرسي، أجهل لماذا، ربّما كانت اللعبة هي التي تقتضي ذلك. قفزَت. انطلقَت في السباق. أفترض أنّ رفيقها فَعل مثلَها. صبّت كامل طاقتها، كامل قلبها. أفترض أنه فعل كذلك. لم أجد أفضل من تشجيعهما معا :

- هيّا ليبل ! هيّا كيكي ! حذار، كيكي في المقدّمة ! سيَفوز ! لا إنها ليبل ! لا إنه كيكي !

- أنا الفائزة، صاحَت ليبل وهي ترتمي ضد جدار الوصول، منتصرة، لاهثة، بعينيها لمعان التحدّي.

لم أعترض على فوزها هذه المرة أيضا. ومع ذلك اقترحَت مرّة أخرى :

- نعيد السباق.

- هيّا استعدا، قلت، متأسفا لعدم وجود نظارات لأرى بها أطفال الهواء والنور.

وها هما يتسابقان من جديد. في واقع الأمر، هناك شيء منحرف في حركات ليبل ينمّ بحضور كيكي، موقعها في هذه النقطة أو تلك من الغرفة، وهكذا يمكنني متابعة حركاته بالنظر. وإنْ أمكَن لي القول، بدا لي أنّ هناك عينا مندسة بين الأشياء

وتراقب. عينُه ؟ فازَت ليبل مرّة أخرى، بكل تأكيد. يبدو من البديهي أنّها أقوى منه.

دون كلل، أعطَت إشارة انطلاق جديد وحرصَت أنْ أشجّع السباق بصوتي. وعند انتهاء السباق، قلت بوضوح قاسٍ :

- كيكي هو الفائز.

لم يعجبها حُكمي. احتجّت قائلة :

- لا، أنا الفائزة !

- رأيته بأمّ عيني يصل الأوّل.

- رؤيتك سيئة. لم ترَ شيئا بالمرّة.

لم يغيّر احتجاجها من رأيي شيئا. هذه القصة أيضا انتهت إلى مأزق ؟ بل أسوأ، إلى فخّ ؟ لا تتسرّع لمعرفة النهاية : لهذه القصة أو لأخرى.

غضبَت ليبل، فتركتني وذهبَت. قالت :

- هيّا كيكّي.

كانت نبرة الدعوة مثقلة بالازدراء، أدركت أنه موجّه لي.

المُسْتَكشِفة

تقدّمت ليبل وحدها، دون كيكي. تمسك بيد حقيبة صغيرة حمراء، وبالأخرى مطريّتها، - مطريّة على قدّ قامتها. أحاطت رقبتها بوشاح من الريش، أزرق اللون. وتحمل فوق رأسها قبعة ثلج. وكان الكل، الرأس والقبعة، مندسًّا داخل معطف شتوي بزرقة بحرية يغطيه شريط فرو على الكتفين. على ظهرها، الذي يغري بالمداعبة، تتدلى جلدة قطة فوق دثار فضفاض يلفها كاملة. تحوّلت ابنتي إلى ساحرة. يوجد الغريب خلف الباب. يكفي أن تفتحه ليظهر لك. حدث هذا في الشتاء الأخير، في السهرة التي سبقت ذهابي.

لم أظهر اندهاشي.

- ماذا حدث ؟ أين تذهبين هكذا ؟

جاءني ردّها، لا يقل جديّة.

- مسافرة. إلى بلد بارد.

- إلى بلد بارد. لستِ بحاجة إلى الذهاب بعيدا. في الخارج، تصل درجة الحرارة إلى أربعة عشر تحت الصفر.

تلألأت عيناها السوداوان.

- أسافر إلى بلد أكثر برودة.

تمكّن الدبّ الصغير من تقبيلي. أشار لي بالذراعين، ثمّ وداعا، خرج من الغرفة.

وأنا، عدت إلى تحضيراتي الخاصة بالسفر، أواصل إدخال تنظيم في أمتعتي. أذهب هذه المرّة دون أمل في الرجوع. نسيتُ ليبل. نسيتُ اللعبة الجديدة التي اخترعتها لتسلي نفسها في الليالي التي تنزل على الثانية بعد الزوال. أنا أيضا أستعدّ للذهاب إلى بلد الصقيع، بلد الحبّ الميّت. الحبّ حينما يغرق. ما بقي لي أن أفعله يجب أنْ يكون بسيطا : لا شيء، لأنه غرق. والذهاب في سكون.

لا، لا يموت الحبّ الذي أحبَبنا به شَخصا ذات يوم. توجَد فقط تلك اللحظة التي ما تنفك تصل، حيث نثق أكثر في الشقاء، ونريد له أن يصل. وها هو يصل. ولا نسمع إلا صوته. فجأة، يبدو الأثاث قد تعب من الوجود هنا، دائما هنا ؛ وجميع الأشياء. ومعها العالم. العالم : يبدو صدئا مثل مخزن حدّاد تعرّض لسقوط الأمطار طيلة سنوات عديدة، سقوط الدموع. يجب المغادرة. تردّد : «يجب المغادرة». كيف نغادر ؟ «أن نغادر، بكل بساطة».

روسيا، أنا، من المسئول عن هذا الغرق ؟ ما فائدة معرفته ؟ لنفترض أننا تمكننا من معرفته، ذلك الغول، ابتداء من اللحظة التي يرتفع فيها صوته، لا يمكن لأيّة قوة أن توقفه، أية قوة.

لا يمكن للمحاولة إلا أن تُعجِّل بالغرق، تسحبنا إلى العمق، وبداخل هذا العمق، يواصل صراخَه، حتى وإن كان أخرس.

هكذا كنت أفكّر في بؤسنا، روسيا وأنا. بعد أن عذّبنا، ها هو يحطّمنا. لم يكن الخريف الذي مرّ علينا إلا خريف ذبول.

كنت غارقا في أفكاري، ولم أنتبه إلى ظهور نيفرتيتتي وهي محمرّة، تسيل عرقا، مزيّنة في ذلك البهرَج. لقد مرّ وقت طويل منذ أن ذهبَت. آه على تلك الليالي التي تنقَضّ علينا في وسط النهار ! تبخّر كل مفهوم للزمان. نظرتُ إليها بشرود. ثمّ انتابني الحزن وأنا أراها مُقمَّطة داخل تلك الأسمال. بحثتُ عن شيء أفعله من أجلها.

- ألا تريدين التخلّص من تلك...

ذكّرتني بافتخار :

- أعود من السفر. سفر كبير وأنتَ لا تزال هنا تحرّك هذا الركام.

في وسط الحدقة، لمعَ خيط صغير، مثلما يحدث غالبا للعيون السوداء، ليضع بداخلها قليلا من التيه.

- في بلد بارد جدا، أليس كذلك ؟ أرأيت، لم أنسَ

- الجوّ حار هنا، قالت بنوع من الوقار الملائم.

حينما نعود من بلد لابونيا، تبدو الملاحظة في محلها. نظرت إلى مطريّتها الوردية المفتوحة التي تحملها على كتفها، سألتها إنْ استعملَتها حقا. أجابت :

- نعم. هناك، يسقط ثلج كثير، كثير جدا.

وبيدها المثقلة بالحقيبة الصغيرة، قامت بحركة تشير إلى ذلك البلد البعيد.

- سيصيبنا البلل إذا لم تكن لدينا مطريّة.

فبعد أن سحبتُها من يدها بلطف وخلّصتُها منها، راحَت مستكشفتي ترمي فوق رأسها الأسمال التي كانت تُقمِّطها. أغلقت المطريّة وشدّدتها جيدا. تابعَت هذه العملية الحساسة بعين يقظة من تحت أحد قمصانها النصف منزوعة. تعتني ليبل عناية قصوى بأشيائها الشخصية ولا تتحمّل رؤية شخص آخر يقوم مقامها في ترتيبها. زيادة على أنّ هذه المطريّة ثمينة في عيونها. لقد أهديتها لها قبل أيام قليلة فقط.

أدارت لي ظهرها وتوجّهت نحو المطبخ، مُبتَسمة مريحة، برغم التقلّص الظاهر على وجهها. وبدأت تحكي قصصها لروسيا الموجودة في المطبخ قبل حتى أن تخرج كلية من الغرفة. لم يكن صوتها طبيعيا ؛ بدا كما لو أنّ أبواقا سبقتها لتعلن عن مجيئها. اعتمدَت عليّ لجمع قطع قِناعها المهملة على الأرضية. الشيء الذي قمت به قبل أن أعود إلى أمتعتي. وها هي نفس الأفكار تطاردني من جديد.

هي نفسها. أتذكّر. مثل تشابه هذه الأيام في طولها، جميع هذه الأيام التي تتشكّل ثلاثة أرباعها من الظلام. شبيهة بالأيام الأخرى، في الشتاء، ببرده القاسي. وتلك الأشتية الأخرى المتشابهة كلها. حينما تستقر فصول الشتاء، لا نتساءل عن وقت ديمومتها، ولا عن وقت انقضائها. تلك الأشتية بأيامها الليلية حيث لا يحدث شيء، ويمكن لهذا الشيء أنْ يتراكم بقوة حدث وشيك الوقوع، ويمكن لكل شيء أن يحدث.

أتذكّر.

حدث ذلك ذات شتاء، ولكن ما هو، أكيد أنه ليس الأخير، وخلال واحدة من تلك الليالي الممتدّة إلى ما لانهاية. حدث شيء ما. ولكن ما هو ؟ بدا كما لو أنه حلم. أقول حلما لوْ لمْ أحافظ طوال الوقت على صفاء ذهني. لديّ اليقين المطلق أنّني لم أحتفظ إلا بما أظهرته لي عينايّ المفتوحتان على اتساعهما، أنّني لم أرَ إلا ما حدث فعلا. أظن أنّ كل شيء انطلق من السرير. في السرير الذي عرفنا، روسيا وأنا، واحدا من تلك النقاشات التي أرهقتنا كلية، وهي غير قابلة للاغتفار مثل سابقتها. امتدّ الشجار إلى هزيع الليل، إلى أن حوّلنا إلى عفريتَين مهلوسَين. غرقنا في حالة بين اليقظة والنوم بحيث لم ندرك جيدا ما كنا نتقاذف به من اتهامات، ربّما كانت بذاءات، ببساطة، كنا نَهذي. رسَخ في ذاكرتي أنّه أغمِيَ عليّ من فرط اليأس، ومع ذلك واصلت الكلام، أقذف كلماتي الشنيعة. غفَوت دون أن أتوقّف عن الهذيان. في مثل هذه اللحظات،

نأمل أن ينقلب الكون علينا وننام ونحلم أننا نائمون في عمق ذواتنا.

كم دامَت غفوتي ؟ نظرا للحالة التي كنت فيها، لم يكن بمقدوري تحديد مدّتها. حينما استيقظت، لفّني إحساس بالبرودة اتّضح فجأة أنه إحساس بالغياب : كان مكان روسيا، إلى جانبي، شاغرا. اندهشتُ. هذا ليس من عادات روسيا، إنها لا تقوم ليلا بعد أن تنام. هناك شيء آخر غريب، كانت جميع المصابيح مشتعلة. مشتعلة في الغرفة، في المطبخ، في الرواق، وحينما نهضتُ وذهبتُ أستَخبر عن السبب، لاحظت من خلال جبهة باب المدخل الرئيسي المنفتح على الحديقة أنها تشتعل أيضا في الغرف السفلى، عبر النوافذ التي يتسرّب عبرها النور على ثلج مصعوق، زبد صلّبته نجوم صغيرة جدا. وكان مصباح الشرفة يلمع أيضا على الثلج المتّقد.

فتأملت صامتا هذا المشهد المسرحي الذي لا يحتله أحد ما عدا اللهيب المتخشّب. من المكان الذي وقفت فيه، بدا لي أنّ الكون قد غيّر مكانه، وقفز من أعلى هاوية مفتوحة أمامه، خلفه أو إلى جانبه. وبعد ذلك رأيت روسيا. ولكنني لم أفهم. شيء ما داخل رأسي رفض الاستقرار، رفض التوقف، كما وسط زوبعة. كانت عارية تماما، وتمشي فوق الثلج الرخامي. قطّبت عينيّ : إنها هي، وليس شبحا. كانت تتجوّل بخطوات ليّنة، خفيفة، شبه محلّقة، مانحة جسدها إلى النور الكهربائي، ذلك النور الذي يمسكه الجسد ويرسله على ذلك البياض المجمّد.

لا يوجد أدنى شك، إنها روسيا بلحمها وشحمها مثلما كانت دائما، مثلما عرفتها دائما، وكانت روسيتي تتجوّل هادئة داخل الحديقة الميّتة. كما لا يبدو أنها تخشى، أو تحسّ بلسعات البرد القاتلة في هذا الصقيع الليلي. هل هي عرضة لحالة من الرَوبَصة : مستحيل لا تبدو عليها مثل هذه الحالة الشاذة. كانت تبدو منغلقة داخل حلم من السعادة، أو بالأحرى محلِّقة في ابتهاج لا يوصف، ولكنها ليست نائمة. كانت يقظة. لا يبدو عليها مظهر ولا تعبير المتروبصة، بدا النور على جسدها حيّا، شهوانيا، يلفّها بهالة من البياض واللطف. ومع ذلك كان المشهد مرعبا في جماله، يمزّق الأحشاء.

وجَب عليّ الانسحاب، إيجاد شيء أضعه على ظهري والنزول لإدخالها. ذهبت، خطفت معطفا، التفت، كانت قد دخلت. أظن أنه ليس من غير اللائق أن أسألها عما دفعها إلى فعل ذلك. لم أطرح عليها أيّ سؤال. خمّنت دوافعها : اعتقدت أنني خمّنتها. فكّرت أنها لن تخرج من هذه الحادثة سالمة. الذهاب فوق الثلج بلا أي لباس على الجسد. ومع ذلك، في الصباح، كانت تنتقل من غرفة إلى أخرى، بلا أدنى مظهر للزكام، كما لو أنّ هذه الليلة لم تكن مختلفة عن الليالي الأخرى. لم تكرّر مثل هذا الخروج الغريب منذ تلك الليلة. ولكن مثل باب يبقى مفتوحا. يمكن لباب مفتوح أن ينفتح على شيء آخر، أن يخفي الخوف. تعتقد أنّ الخوف يوجد في الخارج. وتحسّ أنه بالداخل. انفتَحْتَ بفتحك الباب.

شتاء شبيه بالأشتية السابقة، ولكن ليس مع ليبل، التي بقي لها أن تأتي. وبعد هذا الشتاء. بعده بزمان طويل، وليبل توجد هنا، ذات شتاء، الأخير، أظن أننا قضيناه معا، روسيا، ليبل وأنا.

ومع ذلك حينما رافقتني روسيا وليبل في صباح الغدّ إلى المطار، لم يخطر على بال ليبل أن تلعب لعبة المسافرة مثلما فعلت مساء أمس. كانت درجة الحرارة مستقرة دائما في الرابعة عشر تحت الصفر، سألتها :

- هل الجوّ بارد اليوم ؟

كانت مكوّرة تلتصق بجسدي داخل الطاكسي الذي يحملنا، فأجابتني بحركة من رأسها أن لا. يمكنني تصديقها. أحيانا، تلتحق بمدرستها في بعض الأيام ودرجة الحرارة تنزل إلى العشرين، بل والخامس والعشرين تحت الصفر. هذا هو البرد بالنسبة إليها.

بعدما تجاوزتُ نقطة مراقبة الشرطة، وقفتُ خلف الواجهة الزجاجية الكبيرة، فرأيتها تشير بقبضتها إليّ مثلما كانت تفعل لحظة ذهابها إلى المدرسة، وهي تمشي القهقري إلى غاية باب الحديقة فيما كنت أراقبها عبر نافذة من الطابق الأرضي.

تَوقّفَت بَعْد لحظات، هزَّت ذراع روسيا لتطلب منها أنْ تنحَني وتسمع ما تريد قوله لها. بعد ذلك، رفعَتها أمّها وحملتها واقتربَت بها من الزجاج الفاصل، حيث أطبقت نيفرتيتتي

عليه شفتيها. فهمْت قصدَها، اقتربت بدوري وقبّلت الواجهة الزجاجية في نفس المكان من الجهة الأخرى.

حلّقت الطائرة في الفضاء. أعرف أين توجد في اللحظة ذاتها : عند الأرْطوفوني يصحّح عجزَها على نطق حرف الراء، عيب لساني نشترك فيه، ليليل وأنا ؛ وفي هذا البلد، لا يسمَح بمثل هذه النقائص. في تلك الساعة، كنت كائنا لم يعثر على مكان له على وجه الأرض، ولم يفهم لأيّ هدف خُلِق.

الإوزّ الوردي

تعيش هنا في نورٍ آخر، يخترق نور النهار : إنّه نورُ الصّمت. هذا الصمت يولّد الفضاء حولها.

فضاء شاسع لحضور بشري ضئيل.

تعيش أيضا بين أشجار فتية، من نوع السَنْدَر. تعرض رؤوسها المزيّنة بحليّ مطرّزة بخيوط مذهّبة خفيفة جدا في شهر أوت. وعلى أطرافها بذلك البياض الشفاف، زينة تشعِرك بقدوم الكارثة. ستُهمَل قريبا، منثورة كقطع نقدية.

شهر أوت قد يفجّره الخريف، ومع ذلك ها هي أشجار السندر في فتوتها غير المبالية تتمايل غنجا، وسط الصنوبر. غير مذهولة. تجرّها الصنوبرات الصارمة في دورانها وتجري لتتراصف في صف واحد بعيدا وتشير إليها، متحدية. ألا توجّه إشارات التحدي إليكم، وتدعوكم في نداء صامت إلى الالتحاق بها ؟ تتشابه وتتزاحم شجرتان، الواحدة مع الأخرى، كما التوأمين، أراهما كبيرتين فوق جيرانها، من نافذتي، بل من عمق غرفتي، من الأريكة الوحيدة التي أجلس عليها للقراءة

أو لسماع الموسيقى. عبر هذه المسافة، ترسلان، هما أيضا، إشاراتهما، تتحدّثان معي بلغة كلها حنان، تعرفان أنني في هذا المكان. أكثر من أيّة لحظة أخرى، تختاران الغسق حينما يؤجّج نيرانه ويلبسها، لتخاطباننني. حينئذ، تنتشر رائحة غابة تَحترق. تلك الرائحة الخفيفة التي تعمّ البلد كله. أستنشقها على بشرة روسيا، على جدران منزلها، بموادها المأخوذة من الصنوبر البري، إنها توجد في شعر ليبل، وفي كل شيء. ستعرِّفك على هذه الأرض وأنت مغمّض العينين. بقمّتَيها الناريتَين، تسهر الشجرتان طويلا بعد نوم الأخريات, وأنا أستَرق السمع إلى الذي يصمت بقوة، يصمت بصراخ مدوٍ.

صبيحة هذا الأحد، ألقي نظرة باتّجاههما. لا تتميّزان عن الأشجار الأخرى، إنّهُما صامتتان. ليستا مستعدتَين للحوار. وبعد ذلك وصلت ليبل، تبتسم برغم وجهها المُغلَق. ذلك لأنها ترتدي فستانا جميلا جدا ! تُلائمها جيدا تلك الابتسامة المكتومة، وبذلك الفستان. حتما يجب أن أحملها أمام المرآة. لا توجد واحدة على قدّها في البيت. تأملت نفسها بعناية وقامت أمام المرآة بارتسام نفس الابتسامة، في علاماتها الأولية. ينبغي تكرار العملية مرة أخرى، فأحملها ثانية إلى غاية المرآة حيث تمكث صامتة تتأمّل نفسها، بذلك الوجه المزيّن فقط بتلك الابتسامة الغامضة. سعادتها سرّ. تلك هي ليبل، سعادتها لها وحدها، وليسَت للعرض.

قبل أنْ أحطّها، صرخَت دون أنْ تغادر عيناها المرآة :

- ماما !... ماما !...

لم تتوقف إلا عند ظهور روسيا. مدّت ليبل ذراعها كي تقرّبها إليها، تضمّها إليها، إليّ. وبعد ذلك صاحت :

- ثلاث يساوي واحدا ! كاتو، أنظر، ماما. كاتو، بابا. نحن واحد !

يبدو لي أنني أتقمّص منذ فترة طويلة دورَ محاسب وجودي الخاص. لا، أجتهد لفهم بعض الأشياء. شيء خطير يوشَك أنْ يحدث. ولكن هل يوجد ما هو أخطر ممّا يتراكم بيني وبين روسيا ؟ عيوب شائنة. ومع ذلك، الشيء الغريب أنّ تفاهما يوجد بيننا ويريد الاستقرار، برز في وجودنا الذي تحوّل إلى نصف موت.

خرجنا هذه الظهيرة لحضور -من سيصدِّق هذا- حفلة لموسيقى الروك. نعم، حفلة لموسيقى الروك. ولهذا، ألبَسْنا ليبل هذا الفستان الجديد ! وليبل نفسها أنعشت ذاكرتي :

- هل نسيت بابا ؟ أنتَ الذي اشتريته لي من باريس.

فستان بلون أزرق لطيف، زهري، بلا أدنى زخرف سوى وردة لاصقة على مقدّمة الصدر، وكونه آتٍ من باريس زاده هيبة ومجدا، تفتخر به هذه التي تتبختر بداخله. يظهر هذا في كل حركة من حركاتها، تمشي ليبل، كدليل حيّ لأناقتها الخاصة، والجاذبية التي تنبعث من هذه الأناقة، كما الإوّز الوردي الذي

ينزلق على سطح الماء ويبحر مزهوا بنفسه. وردة زرقاء، إوّز وردي، هل يمكن أن نرى أجمل من هذا.

ها نحن نتزاحم من فرط حمّى الذهاب. لحظات من الفوضى، الأخيرة، قبل أن يدفعنا نفس الاستعجال إلى الخارج. لا ينبغي أن نتأخّر عن موعد الحافلة. فلنسرع إذن. في خطوات بين المشي والركض، وصلنا إلى الموقف مع قدوم الحافلة تقريبا. إنها فكرة روسيا.

بدأنا نصعد. فجأة صرخت ليبل :

- أين هو ؟

- ماذا ؟ سألنا في جوق واحد، أمها وأنا.

- كيكي، قالت في صوت قلق.

التفتَت إلى جميع الجهات، دفعَت بعض المسافرين الذين لم يفسحوا لها المرور، وهي تنادي :

- كيكّي ! كيكّي ! أين أنتَ ؟

يبدو أنها لا تراه، لا تجده. وبعد ذلك صرخَت :

- إنه ليس هنا ! ليس هنا ! لقد نسيناه ! إنه مسجون داخل المنزل !

رفضَت ركوب الحافلة. حاولنا تعقيلها، روسيا وأنا. بلا جدوى، سوف لن تذهب بلا كيكي. لم نجرؤ على توبيخها. يوجد حولنا جميع هؤلاء الشهود، كدت أقول هؤلاء الأجانب،

كانوا يراقبوننا بلا فضول. نتحدّث لغة مختلفة، وماذا بعد ؟ أحسسنا بأنفسنا مجرّدين من أي وسيلة دفاعية أمام هذا الحشد الذي يمدّ لنا وجوهه التي لا تُعَد، مثل مرايا يدوية، ولكنها مرايا منطفئة حيث لا نرى شيئا بداخلها. ونحن لم نعرف من أين نبدأ لأننا لم نتعوّد على توبيخ ليبل.

فباشرت الجدّة إجراءات التصالح التي تعوّدت عليها. ولكن هذه المرة، لم تنجح ؛ فبقيت جهودها ودبلوماسيتها، مثلما حدث معنا، بلا أثر يُذكَر. رفضت ليبل سماعها وطفقت تعلي من صراخها :

- كيكّي ! كيكّي !

صعد جميع المسافرين واتّخذ كل فرد مكانه. انتظر السائق صبورا. هنا، يولد الناس صبورين. وأظن أنهم يموتون كذلك. الظاهر أنّ جمهورنا لم يفهم ماذا يحدث أمامه. ليسَت ليبل من البنات اللاتي يقدّمن تنازلات، فاضطررنا، مع الاعتذار، إلى ترك الحافلة تواصل رحلتها. ولم يكن هذا ليضع حدّا لمطالبها. أضافت دعم الدموع، مردّدة هذه اللازمة : « يجب العثور على كيكّي ! » فتمتلئ الحديقة والحقول المجاورة بصدى صراخها.

لم يكن أمامنا من حلّ إلا الرجوع إلى البيت للبحث عنه. تطوّعت : لينتظرني الجميع عند موقف الحافلة، سوف لنْ أتأخّر كثيرا. اعترضَت ليبل، تريد أن ترافقني. قلت :

- سنتأخّر أكثر.

لم تكترث، أصرّت على مرافقتي. قالت بنبرة واثقة وعينين جافَتين :

- أنا أستطيع العثور عليه، أما أنتَ فلا.

أخذتها معي.

وجدَتْه في الحديقة يلعَب. إنّ إيجاد كيكي بلا تدخل ليبل جنون خالص أوهمت نفسي بالقدرة عليه. أتساءل كيف أمكن لمثل هذه الفكرة أن تنتابني.

نادَته بلطف، منحت له يدها وانطلقنا للالتحاق بالآخرين. أثناء الطريق أسرّت لي :

- لم يرنا ونحن نخرج. قل بابا، إنه لطيف، أليس كذلك ؟

- لطيف جدا.

لا داعي للاستعجال الآن، سوف لن تمرّ الحافلة المقبلة إلا بعد ساعة.

قضَينا ساعة أخرى تقريبا في تغيير الخط، وربّما أكثر، لا زلت لا أحمل ساعة يدوية معي. أخيرا وصلنا إلى هدفنا المنشود : حديقة على ضفة البحر، ولكنها في قلب المدينة، عرفنا موقعه من الموسيقى الصاخبة التي أحدثتها القيثارات الكهربائية. لم تنتظرنا الموسيقى لتباشر سفرها، وتدفع إلى الأمام قطارها الذي اضطررنا ركوبه بعد انطلاقه. اكتشفنا القطار الجنوني مباشرة، متدحرجا، فظا، صاخبا. كان الأطفال والفتيات يتراكمون على

الأرضية العشبية، حقول من الجماجم بآذانها، فجلسنا هادئين على العشب، روسيا، أمّها وأنا، واستمعنا هادئين أيضا. أما ليبل، فبقيت واقفة.

هناك في عمق الحديقة، داخل حفرة طبيعية شكّلها طي من الحقل، رأينا الأركسترا وسط الأشجار، يتشكّل من فتيان شُقّر هائجين. يلعبون أكثر بالأذرع والسيقان. بقيت ليبل واقفة، فبدأت تحرّك وركيها في مكانها، ووسّعت رجليها قليلا. اندمجت في الإيقاع بسرعة. برغم أن هذا النوع من الموسيقى يخيفها. عرفت ذلك يوم وضعت في البيت قرصا لموسيقى الجاز. انتابها هلع مفاجئ. قطعة موسيقية يؤديها كل من ديزي جيلسبي وشارلي باركير، في القيثارة، وماكس رواش في الباطري. موسيقى، فوارة من الأصوات اللاهبة ؛ كان ماكس رواش يطلق الرصاص على كل متحرّك. هذا هو الفن. لا يمكن أن نقول الشيء نفسه مع ما نسمعه هنا، ولكن ماذا ؟

- كيكي، هل يرقص هو أيضا ؟

انفلت منّي السؤال رغما عنّي. كان من الأفضل عليّ مسك لساني. جذبت لنفسي جوابا صاعقا :

- أليسَت لديك عيونٌ لتَرى ؟ إنّه يرقص ! ولكنه لا يحسن الرقصَ جيّدا. فإنّي أعلّمه.

بقينا نصف ساعة على أكثر تقدير : بعد هذا النصف ساعة، لم ترَ روسيا فائدة من البقاء أكثر. أوقفتنا في الحين.

تابعتُ الحركة بأسف، لم أعرف لماذا، على كل حال ليس من أجل الموسيقى...

أخبرَتنا أنّنا سَوف لن نأخذ الحافلة مباشرة، بل سنقوم بدورة في وسط المدينة، سنمشي قليلا طوال البحر. تحت شمس من الجصّ، تقدّمنا باتّجاه السراب الذي كنا نلمس شرائطه عند كل خطوة دون أن نزعم أنّنا ولجنا إليه في أية لحظة. من حسن حظنا أنّ لا واحدا منا كان مجبرا على حمل ليبل، وإنْ على مسافة قصيرة. لقد أخذنا معنا مركبتها المطوية، فوضعناها بداخلها. كانت راضية في تقمّص دور الرضيع، وفي المقابل واصلت إطلاق الحماقات بصوتها.

مَشيٌ لا يُريد أنْ ينتهي. ثم انفتحَت أمامنا أرصفة الميناء الرئيسي ؛ وبعد ذلك شوارع الوسط العريضة. راهنت مع نفسي أنّ روسيا لم تمر بنا من هنا دون فكرة مسبقة. كان تخميني صائبا : لقد برمجت وقفة داخل مقهى تعرفه.

خلال مدّة وجيزة، ذرَعنا رصيفا مُحاذيا جدا لماء البحر. بدا لي هذا البحر غريبا نوعا ما ؛ بلونه الرمادي الرصاصي في مقابل السماء التي بقيَت ثابتة في زرقتها. وبقي نور النهار بسطوعه العنيف، بهيبته العظيمة. ومع ذلك بدا هذا اللمعان كما لو أنّ ظلالا تترقّبه، تهدّد كل سطوع على الأشياء : الأرصفة، الآلات، العمارات، السيارات، السفن الراسية، بما في ذلك عمالقة سيلجالين.

لم نصل إلى المقهى إلا لنجد أبوابه مُغلَقة. إنه يوم الأحد. وقد نسينا أننا في بلاد اللوثريين. انزعجت روسيا مثلما يحدث لها أن تنزعج أحيانا، إنها ليست لوثرية. أما أنا فحدّث ولا حرج. ولكن من أكون تحديدا ؟ ليسَ وقت الانشغال بهذا الأمر. إنّه وقت مواجهة الحرارة، والذهاب للبحث عن محل مُماثل، مَقهى أو أيّ شيء آخر. اكتشَفنا واحدا مفتوحا. يا أرواح لوثر، هناك حيث أنتم، أنظروا كيف نرزح تحت القيظ : لا نستطيع الوقوف على أرجلنا، فنزحف على ركابنا، معنويا أقصد. كونوا رؤوفين بنا !

خلال فترة ليست بالقصيرة، درنا، ومشينا هنا وهناك تائهين. وفي عاصمة فارغة، عثرنا على الشيء، ذلك المكان الذي تمنيناه من صميم أمنياتنا. داخل دَرب حيث تفوح زواياه ببول السكارى. لم تنتظر ليبل لتعبّر عن اشمئزازها من تلك الرائحة الكريهة، فشدّت فجأة أنفها بأصابعها ورافقت حركتها بصوت موحيّ :

- آش ! (بالنُطق الألماني).

أمامنا، خارج المحل، وفي هيئة المضجرات من مكانها، تبعثرت بعض الكراسي البلاستيكية الشاغرة، غير آبهة بالمكان الذي تتواجد فيه. هنا أو في مكان آخر ! تركنا أنفسنا ننهار على أربعة منها ؛ جاءتنا في وقتها تماما. لم نكن لنصمد دقيقة واحدة زيادة. الحياة مثيرة للسخرية أحيانا، توقعك في وضعيات مضحكة وتريد منك أن تحافظ على كرامتك !

بمجرّد جلوسها، قفزت ليبل من كرسيّها : يجب أن نجد لها مرحاضا. شجّعتها أن تبول في زاوية، بما أنّ المكان...

- لست جادا فيما تقول، بابا ! نهضت لمرافقتها إلى داخل المقهى. أضافَت قائلة :

- إنك تمزح ! أنا، أذهب إلى مرحاض خاص بالسيّدات. لا يمكن لك أنْ تأتي معي. وهناك مَن يريد أن يبول أيضا : إنّه كيكي. خُذه أنت إلى مرحاض الرجال.

لم أكن أتوقّع مثل هذه الطلب، أبدا ! دفعَت الجدّة ليبل أمامها وعتّبَت باب المقهى. ولكن ليبل التفتت لترى إن كنت من جهتي أفعل ما طلبته منّي : الدخول مع كيكي.

بعدما عادَت من المرحاض، وبمجرّد جلوسها، انحنَت اتّجاهي، وتفرّستني بنظرة يتلألأ فيها بريقا تتاريا. هناك مجال للشك : هكذا تلقيت هذه النظرة وفكّرت في آن واحد. ماذا ستخرجه لي هذه المرّة ؟ بحثَت عن كلماتها، صاغت جملا في رأسها، كان ذلك واضحا في تقاسيم وجهها. ابتسمت لها ببراءة. قاستني جيدا بعينيها ببراءتهما الأصيلتين، إضافة إلى قساوتهما، وأخيرا طرحت عليّ سؤالا :

- بابا، أنت تعرف كلّ شيء، أليس كذلك ؟

تمايلَت من جهة إلى أخرى، يداها تحت فخذيها. قلت :

- كل شيء، أظن أنّ هذا كثير عليّ.

لم تأخذ ملاحظتي بعين الاعتبار.

- إذن، أجب عن هذا : لماذا نقول بأنّ النهار يطلع وأنّ الليل يسقط، في حين أنّ الاثنين يفعلان نفس الشيء ؟ رأيت ذلك جيّدا.

- شيء صحيح. لم أفكر في الأمر أبدا.

- عليك أنْ تفكّر جيدا وأن لا تنتظر طويلا.

- سأبدأ من اليوم. ولكن ليس الآن، الجوّ حار جدّا.

- لا أريد أن أسمعك مرة أخرى تقول لي أنّ النهار طلع وأنّ الليل سقط.

تحسب نفسك ذكيا لتحكي لي هذا النوع من الأشياء. من البلادة أن تقول مثلما يقول الجميع.

كانت روسيا تتأملنا، عيناها شاردتان، تبدو منهارة. ربّما بسبب ثقل الحرارة. إنها شقراء، وبدا وجهها ملتهبا. أنا معتاد على الحرارة، ومع ذلك أقاوم ضد الاختناق.

قالت ليبل أيضا :

- أوْ أنْ تقول لي أنّ النهار يطلع لأننا ننهض من النوم، وأن الليل يسقط لأننا نحن أيضا نسقط في النوم ويجب أن نلتحق بالسرير.

- سأقول لك ما أفكّر فيه حينما نعود إلى البيت، دييفوتشكا مايا.

- ماذا ؟

- في البيت.

- و لكنك قلت شيئا بعد ذلك.

- دييفوتشكا مايا.

- آه.

لا أقسم أنّني لمْ أسمَع نبرة استهزاء في تساؤلها. وفكّرت : «طيّب، إننا نتفاهم، بُنيّتي. نعرف، أنتِ وأنا، ماذا يعني الكلام. في العمق، لا يتعلق الأمر بما يفعله النهار، ولا بما يفعله الليل، إذا كان الأول يطلع، والثاني يسقط، أو العكس، وإنما بأشياء أخرى. دييفوتشكا، أليس كذلك ؟ مايا».

أضافَت، مفكّرة هذه المرّة :

- في البيت. هذا هو.

يبدو أنّ الحرارة لا تعذّبها كثيرا، برغم أنها تحمل وجها محمّرا تحت كوم من الشعر الأسود، وهو ما يمنحها أجمل وجه في الكون. ماذا نفعل بنيّتي داخل هذا الشمال اللامعقول ؟ نحن من حوض المتوسّط، أنتِ وأنا، من بلد الياسمين والبرتقال. هل سنبقى منفيَين أبديَين ؟

ومع ذلك لم تنتهِ محادثتنا. تتواصل تحت القناع، ذلك القناع الذي يتكلّم دون تحريك الشفتين، العينان شاردتان.

وجدتُ هذا عصيّ الاحتمال، فعدتُ إلى الموضوع بصوت مرتفع مع شعور بأنني أتخلّص من أذى :

- على سبيل المثال، حينما يظهر القمر والشمس في آنٍ واحد، هل نحن في الليل أم في النهار ؟

رمتني بنظرة من عينيها المتّقدتين وهي تهزّ رأسها في هيئة من لم يصدّق ما سمعه. كيف نطرح مثل هذه الأسئلة ؟ أجابتني وهي تضغط على كل كلمة تخرج من فمها :

- هذا القمر ليس حقيقيا. إنه قمر محروق.

- و إذا لعبَت ليبل السمراء جدا مع لورا-لي الشقراء جدا، هل نرى القمر يلعب أم الشمس ؟

- و لكن بابا، لم تفهم شيئا. أنا لستُ قمرا. أنا شمس محروقة.

مع هذه الكلمات الأخيرة، وصلت محادثتنا إلى آخر حدّ لها، حدّ لا وجود للكلام وراءه. من المفروض أنْ يترتّب عن هذا ارتياح كبير. تمرّر أول نسمة منعشة لهذه الظهيرة يدا حنونة على الوجوه. وماذا يوجد في المكان الذي لا يوجد فيه الكلام ؟ ليسَت الحياة هي المليئة بالنقص، بالثغرات : إنك أنت. أنت الذي يمكن لأيٍّ كان أنْ يَعبُرك : هل يجب أن تحمل زيادة على هذا إكليلا من الشوك ؟

ليسَت روسيا القريبة منّا إلا حلما تَعبُره حجارةٌ. وستكون هذه الحجارة هي أنا، صلبة مثل عين. وبعد ذلك أنظر إليها جيّدا، فأرى بحرا مُهملا على الرمال. البحر، كل البحر، والنهار فوقه. لا وجود للريح ؛ شيء ما يضع أصبعه على الفم. وأسترق

السمع. يوجد هذا حينما لا يوجد الكلام. يوجد هذا الخيط في الأفق حيث يولد البحر. قبل هذا، فهو أبديّ. وبعد هذا، فهو لا يُقهَر.

غَنِّ، أيها الطائر

زَقزَقات، أو شيء يُشبهها. تسرّبت عبر غفوتي، بئر لم أشعر أنني غطست نفسي داخله مبكرا هذا الصباح، بعد أن بقيت يقظا لفترة. كم تشير الساعة الآن ؟ أكيد أنها لم تتجاوز السادسة. كنت أبحَث عن باب، وأنا أفكّر : «يجب أن يكون هناك واحد». وبعد ذلك جاءت تلك الزقزقات. لا زلت أسمعها. أيّ طائر هذا ؟ كيف لي أنْ أعرف، أنا في أرض أجنبية. تتابعت صيحاته القصيرة –هل هي صيحات طائر السُّبَّد ؟ – خفيض، خفيض جدا، بييب، بييب، بييب... في النهاية، تخلّيت عن إيجادِ باب الخروج، لم أعد أحاول. دُرت إلى الجهة الأخرى. فجأة، أخرجت من غفوتي. كما البحر الذي يلفظك خارج مياهه بضربة واحدة، واحدة فقط. ورأيت. إنها ليبلتي. شبّكت ذراعيها على عمود السرير المُستعرض وحطّت رأسها فوقهما : كانت تراقبني من مضجعها وأنا نائم، فيما ابتسمَت عيناها السوداوان، ابتسامة متلألئة. ببساطة، كانت تنظر إليّ من تلك العينين وتزقزق. نهضتُ. سبقَتني إلى الوقوف ومدَّت لي ذراعيها. أخَذتها، عُدت معها إلى السرير وأنَمتها بقربي.

وهي، عوض أن تضع رأسها على الوسادة، فضّلت وضعه على رقبتي. ولكنها لم تبقَ مدة طويلة في مكانها. غيّرت وضعية نومها، فحطّت رأسها فوق بطني، وهي ممدّدة على عرض السرير، ورجلاها موطدتان على ظهر أمّها. أحدث لي هذا الثقل إحساسا غريبا : الإحساس بأنّ ليبل ليست فوقي وإنما في عمقي ؛ لقد أثقلت حقا. إنْ كان لهذا الإحساس اسم، فإنّه إحساس بالسعادة.

عندئذ، صعدَت إلى غاية أذني وهمسَت :

- بابا أحمر في منامته الزرقاء.

ها هي طاولة المطبخ الآن، بعد أنْ نُظِّفت، قد تحوّلت إلى ميدان أنبَتَت فيها ليبل مدينة. بدأت باستعمال أحجار لعبة الدومينو الصغيرة كمواد للبناء، ثمّ غرقت في لعبة بناء مع المكعبات الخشبية الملونة. ولم تتوانَ عن إضافة كلّ ما يقع تحت يديها، أيّ شيء. كانت هوايتها المفضّلة وإلى غاية أيام فقط تتمثّل في رمي قطع الدومينو بالجملة عبر المطبخ والركض بعد ذلك لالتقاطها وهي قابعة على رجليها ويديها على الأرضية، وهي تصرخ :

- هيّا بابا ! ابحَث معي !

انتهى كل هذا. انفتح عهد المنشآت الكبرى. هكذا، أصبحَت جميع الأشياء، بلا أي تمييز، جزءا من قضيتها، من مخططاتها، وتساعدها على تمديد مساحتها، في حجمها، وتضيف فروعا لمدينتها وفق منطق مؤكّد وغير متوقع في آن

واحد. مدّدتها إلى غاية إنتاج أزقّة متداخلة مع الساحات والزوايا والمفترقات والعمارات، ويتضاعف رضاها، يتشكّل حلمها كلّما عثرت جميع الكائنات (حيوانات، شخصيات، جنود الرصاص، سيارات، لعَب أخرى متعدّدة) على مكانها المناسب. حلم زاحف. ذلك أنّ إمكانيات التلاعب تتضاعف باستمرار، وتضاف إلى الترتيبات الكثيرة المتصورة، المواد مع المواد، الأجزاء مع الكل، المجموعات مع المجموعات. في نهاية المطاف، تُصنَع المدينة من تلقاء نفسها، من حركاتها الخاصة. لم يبقَ إلا متابعتها في مدّها التلقائي. تشكّلت المدينة من لحظة إلى أخرى أكثر تعقيدا، فاكتسبت شكلها الافتراضي، التجسيدي، كمدينة. طموح، رغبة، حلم، - لمَ لا ؟ ولمَ لا تكون ارتساما لما يمكن أنْ تكونه لييل في المستقبل، تَوقُّع أو إسقاط متحرك في حالة انتظار، إلى عدم الاكتمال الضروري ؟

ونسجّل باختصار. تتدَحْرج هذه الشبكة من الدروب الملتوية وتتوقّف باستمرار، وفي آن واحد، كما تولّد مائة وجه غريب، من تلك الوجوه التي ننتظر ارتسامها دون يقين، شمس إزاء شمس أخرى برغم عدم التأكيد من ظهورها، من وجودها، وفي نفس الوقت تدير هذه الشبكة قصة محبوكة وسط الفضاء الحضري المتنامي داخل الفضاء الممتدّ دوما للقصة التي تحكيها لييل وأننا نقرأها عبر تاريخ بناء هذه المدينة. وحينما تنتهي القصة، ليس لأنّ للقصة نهاية، ولكن كان يجب أن نتوقف عند لحظة ما، مثلما كانت تفعل شهرزاد أمام شهريار الذي يمنح لها الإذن بالتوقف واستئناف الحكي في يوم الغد. صحيح أنني لست

السلطان شهريار وأنّ ليبل ليست بحاجة إلى أوامري حينما ترى الوقت مناسبا لتترك كل شيء، لأنها فعلا اللحظة المناسبة.

لحظة الذهاب إلى المدرسة مثلا.

فبعْد أنْ قرّرَت هذا الصباح أنْ تكتفي بما أنجزَته، بقيَت تتأمّل المدينة التي صقلتها يداها - صامتة، حالمة. يكون الربّ قد ألقى نظرة مماثلة على كونه بعد إنهاء عملية الخلق. أنا، بطبعي المتطيّر، انتابني إعجاب ممزوج بالخوف الذي لم يعثر عن كلماته، وإن كانت، فستكون كلمات عاجزة. تأمّلتُ العملَ، ثم صاحبة العمل، هذه الشخصية التي تقف أمامي والتي كانت انعكاسا لي أو لم تكن، والتي تنهّدت كعادتها وهي تواصل احتضان رائعتها بعينيها. على حين غرّة، ودون انتظار منّي، مسكَت يدي بحركة فظة، ربما دون أن تعرف ما كانت تفعله تدقيقا.

أو ربّما كانت تعرف. وقد حانَت اللحظة.

- بابا، سترافقني إلى غاية الحديقة لأنني سأذهب حالا إلى المدرسة.

جذبتني، يدي بيدها. انحدرنا عبر الأدراج الدائرية النازلة، ثمّ خرجنا إلى مدخل المنزل. فجأة، عبّرت عن قلقها إن كان ما تركته خلفها سيبقى في مكانه, طمأنتها :

- يمكن لك الذهاب إلى المدرسة مطمئنة. سأسهر بنفسي على مدينتك.

لم تقتنع بهذا الوعد. أخذَت مِني وعدا آخر بأن لا أضيف أيّ شيء من عندي خلال غيابها، ولم تبدأ نزول الأدراج القليلة للمدخل إلا ممتلئة بوعودي الإضافية. ومع ذلك، أضافت بهيئتها المعهودة :

- أنا أعرفك، بابا.

من حسن حظّي بنيّتي ؛ ولكن ماذا تقصد بالضبط بقولها هذا ؟

مِن النادر جدا أنْ تستأنف مسار حلمها المؤسّس ابتداء من النقطة التي تركتها فيها. قالت :

- الآن قل لي إلى اللقاء بابا.

نزلت بدوري الأدراج القليلة :

- و لكن بابا ليس من هنا. قل لي إلى اللقاء من الأعلى !

مدّت ذراعها لتريني أين. بحثتُ، فلم أجد. من الطابق الأوّل ؟ كرّرَت، وهي المتعوّدة على الصبر معي حينما لا أدرك قصدها من الوهلة الأولى :

- من الأعلى. من الأعلى...

هذه المرّة، أدركتُ قصدها : من أعلى مدخل المنزل. فصَعدتُ. تلألأ وجهها بابتسامة. قالت :

- قل لي إلى اللقاء.

وهو ما فعلتُه توّا. في تلك اللحظة، جاءت روسيا وأخذَتها، كي لا أقول جرّتها.

ومع ذلك التفتت ليبل وأشارت بيدها الحرّة إليّ، مواصلة تمثيلها دون أن تلتفت، إلى غاية الباب الخارجي حيث استمعتُ إلى اصْطِفاق انغلاقه.

هذا المشهد، مثل هذا المشهد، لا أعرف كم مرّة تجدّد : ومع ذلك يختلج قلبي في كل مرة وتنفتح بداخلي صحراء العزلة نفسها.

بقي لي شغلي. سأذهب للاحتماء به. الاحتماء به ؟ أو بالأحرى الضياع بداخله، نعم. لم تعد نزهات الغابة تغريني. كما أصبح تفكير جميع هذه الطبيعة أمام الباب يُضجرني، يثقل كاهلي. يعجّ بأشباح تلك وذلك الذي كنّا، روسيا وأنا. إنّي لا أحبّ. **عندما ينسَون أسماءَهم العاطفية، عندما يذبل الحنان في صحراء العزلة ؛ عندما لا يعرفون كيف يوهمون، ويتنازلون عن الإيهام ؛ عندما تواصل شفاه أخرى بلا حواف قول الحبّ الذي يعيشون بفضله، ويبقى هذا القول نفسه الذي بلا حواف ماكثا على الأطراف ويسكنهم باستمرار.** لا، إنّي لا أحبّ الالتقاء بهم، ولا اقتفاء آثارهم. سأغادر هذا البلد قريبا. أمر ضروري. لا يمكنني مواصلة إقامتي عند روسيا أكثر من هذا. لم يعد لي مكان عندها.

وليبل، قضيت معها وقتا قصيرا برغم حضوري. ماذا يحدث عندما سأدير لها ظهري ؟ سوف لن أراها أبدا. إنها

مُصادَرة. لقد تمّت مصادرتها. في مثل سنّها، فمن الطبيعي أن تعيش في وئام جسدي وروحي مع روسيا. سوى أنّ هناك شيئا آخر، سوى أنها لا تعرف إلا بلد روسيا، أنها لا تتكلّم إلا لغة روسيا، أنها لا تأكل إلا أطباق روسيا، أنها لا تحتفي إلا بأعياد روسيا. أشياء كثيرة، حواجز منتصبة بيني وبينها. إنّ جميع ما يخصّني، أعيادي، أكلي، لغتي، الأشياء التي شكّلتني وصيّرتني مما أنا عليه، تبقى أجنبية عنها، ممنوعة عنها. أنا أحبها ولن أتصرّف مثل روسيا، سوف لن أبعدها عنها، لن أخطفها. أبدا. سوف أمنع نفسي من هذه الأفعال. كما أمنع نفسي من التفكير فيها، إنها إهانة لليبل، تشويه لها. ماذا يجب فعله إذا ؟ إيجاد اتفاق ما ؟ أيّ اتفاق : تجهل روسيا معنى هذه الكلمة. اتفاق ! لا تعرف إلا الاتفاقات التي تقرّها بنفسها، والتي تستجيب لمصالحها الضيّقة. الاتفاقات التي تتوافق معها، مثلما أنّ مبرّراتها أفْضَل المُبررات.

ها هي ليبل عائدة مع روسيا، هي الأخرى عائدة من المكتبة. لقد أخذت ليبل لمجَتها في المدرسة ولا تريد زيادة. ها هي منشغلة. لا تعرف كيف تكون، لا تعرف غير أن تكون منشغلة. كل شيء يُشغلها. تقولون إنها تلعب. فليكن. يتحوّل كل شيء عندها إلى لَعِب، إلى لعبَة، ليس بالضرورة ألعاب، ليس بالضرورة دُمًى. مع أنه لا تنقصها هذه ولا تلك، بل تملك منها الكثير، سِلل غاصة. إنّ الألعاب لا تهمّها عموما. ومنذ فترة، تنشغل ببعضها. بدأت تتعاطف مع بعض منها. تقول عن حيوان صوفي مثلا : «حيواني لطيف». ثمّ تمرّر اللعبة

على خديها. يميل تفضيلها إلى الصغار. أظن أنها تحبّها وتحن عليها أكثر مما تلعب معها. هي الطفلة المحبوبة، الحنونة. أظن أيضا أنّها تتدرّب على الحنان نفسه، ولكن على شيء آخر غير والديها ؛ على أداة تكون في مستواها. مَع أنّ هذه الأداة لن تكون أبدا عَقبة لذوقها في ألعاب البناء، في الأقلام، في أوراق الرسم. ستنسى الأكل والشرب، ستنسى كلّ شيء. خاصية لرسومها، كي لا نتكلم إلا عنها : لكل رسم عنوان. تصرّ على أن يكون عنوان لكل رسم. تملي العناوين التي تبتكرها لأمّها كي تدوّنها في زاوية من الورقة. بعض الأمثلة ؟

صاحبة العيون المنجّمة

سمكة بقبعة على رأسها

الشمس بالنظارات

العالم الكبير بشعلة حمراء، يوجد منزل صغير لا أستطيع رسمه لأنه بعيد

أزهار كثيرة بصيحات الفرح.

ناقة بلا عيون

حالة وردية شفافة بأجنحة كبيرة.

لم يبق إلا تخيّل الرسوم نفسها، تصوّر نزواتها المفجّرة انطلاقا من العناوين.

بالأمس فقط، أنجزَت مُلصّقة. لم تكن أولّها، لقد اكتشفَت هذه اللعبة بمفردها. أقرأ الوصف الذي أعطته لها، ولكن بتدوين يد روسيا :

«إنهما جبلان، واحد أبيض، الثاني أسود. يُوجد جسْر يربط بينهما. في الوسط، ثقب القدر ومن الجهة الأخرى، يوجد اللّباب الصلب».

نظرة واحدة تقنعك. يوجد الكون هنا مرسوما. كون مثلما تشكّلت صورته داخل قلب طفلة صغيرة، مثلما يمكن مراقبته. ويُضيف التعليقُ غرابَته لغرائب الرسم التشكيلي. هكذا يبقى ساكتا عن العوالم الستّة، كواكب، نجوم، مدن - أم أنها فراغات بسيطة، ولكن هل توجد فراغات بسيطة حقا ؟- التي نراها تدور حول هاوية القدر. لأيّ سَبب ؟ كان رقم ستّة عند القدماء بداية البدايات : لنفكّر في أيام الخلق الستّة. لقد أطاعت أصابع ليبل، ولكن هل أرادت فعلا انبثاق استعارة اللامرئي وعرفت أنها تكشف عن فضاء منغلق عن أيّ تصوّر ؟ فضاء غير مُجزّئ، غير منقطع : شامل في المقابل، منسجم، حيث يستجيب كل جزء للآخر، يندمج معها. صورة أساسية، تخيّل طفل. سيبقى السرّ محفوظا، ولن تكشف عنه ليبل. سرّ قلب إلى القلب : قلب ليبل، قلب يصعب تموقعه في الكون. يجب الاعتقاد بأنّ السرّ المتعذّر سبر أغواره يمكن استكشافه أحيانا. يخضع الاندفاع الغامض للفضاء المغاير إلى حركات

طفلة، ولكن دون كشف سرّه. دون أن يكشف سرّه في أية لحظة.
ألأنّه يتعرّف على نفسه في الصورة التي رسمته ؟

توت العُلَّيْق

هذا الصباح، أخذتها إلى حديقة الأطفال. إنّها على بعد بضعة كيلومترات من المنزل، لذلك ركبنا الحافلة. يوجد الموقف قرب إيلانتو، محل الخدمة الذاتية. ننزل مباشرة مقابل الحديقة- المدرسة. لا نملك سيارة، ولا يجب المبالغة في الشكوى. انتظرنا في الموقف : وصلت الحافلة، تتمايل، توقّفت. لم يستوجب ذلك أية إشارة من طرفنا، انفتحت الأبواب آليا، صعدت ليبل أوّلا ودون مساعدتي واختارت وحدها مقعدا وجلست. كان موقفنا تقريبا في رأس الخط، وكانت مُعظَم المقاعد شاغرة. براحة يدها، طقطقت المستعملة المجرّبة على ظهر المقعد لتشير إلى مكاني. توجّهتُ نحوَها. كانت الحافلة قد انطلقت ثانية.

تدحرجنا وسط مناظر الحقول والحدائق المعروفة جيّدا ومع ذلك تحافظ على جاذبيتها. تحتفظ المنازل بجاذبيتها أيضا رغم أشجار السندر التي تتزاحم حولها. منازل بالقرميد، مظلمة بالداخل، مضيئة بالخارج، مصبوغة مثلما هي، واحدة بالأزرق الحاد. تتتالى وهي تختلس النظر عبر فيض الخضرة. منازل

جميلة من زمان آخر، مزيّنة بزخارف عتيقة. العين يسكنها الحنين.

هزّت ليل ذراعي لتذكّرني بأنّها إلى جانبي. تبتسم لي بالنظر حينما ألتفت إليها. سألتني وعيناها مغروستان في عينيّ :

- بابا، ستكون ميّتا ذات يوم ؟

را قَبتُها. بقيَت العينان اللتان تنظر بهما إليّ غامضتَين، الوجه بريء بسؤاله.

- نعم، بنيّتي. أظن أنّه قدَرٌ لا مَفّر منه.

- وماما أيضا ؟

حاولتُ أنْ أضَع أكثر قَدْر مُمكن من الحنان في نظرتي. بَراءةُ الوَجه، براءة السؤال. قلت :

- وماما أيضا.

- وأنا أيضا ؟

- نعم.

فكّرَت مليا.

- ربّما ستموت أنتَ الأوّل.

- ربّما. ولكن لستُ مستعجلا.

وفي حماس مفاجئ، قفزَت فوق ركبتيّ، وهمسَت في أذني :

- لا تجزَع، بابا. سنلتقي نحن الثلاثة.

- آه ؟

- أنا متأكّدة.

سكتَت قليلا ثمّ استأنفت، وهي جالسة دوما على ركبتي وبصرها أكثر لمعانا :

- نعم ! كما الليل. ننام ؛ وبعد ذلك نستيقظ ونجد أنفسنا مجتمعين !

انتابها الشعور بالخلود وكانت الفكرة غريبة كي تشعل نورا ماكرا في عينيها.

- سنفترق معا وسنعود معا، بابا. سترى.

فتَحتُ بابَ قسمها برفق. استقبلها أصدقاؤها بصيحة كبيرة :

- ليبل ! ليبل ! ليبل !

تلفّظ الجميع بصيحة واحدة. استقبالٌ يليق بزعيم سياسي. أما هي فتوقّفت عند العتبة، انتظرت نصف جادة ونصف مبتسمة نهاية التهليل. بعد ذلك جاءوا إلى لقائها، أحاطوها، إنها فعلا مختلفة عنهم. بادَرت لورا-لي إلى وَضع ذراعها حول خصر ليبل. أخذتها ليبل بنفس الطريقة. ذهبتا هكذا مُتعانقتَين

عبر قاعة القسم المزيّنة برسوم وملصقات هؤلاء الأطفال. شكّل الآخرون بقية الوفد المرافق : وكانت ليبل بمنفضتها الريشية تتقدّم كعصفورة برأس أسود وسط طيور الكناري. على كل حال، يجب رؤية هذا الاستعراض كي تصدّق. استعراض تنظر إليه المربيات بعيون حنونة ولا تبدو الدهشة على وجوههن. لقد سبق أن قلت أنهن يتعاطفن كثيرا مع ليبل، وأكيد أنهن متعوّدات على رؤية مثل هذه الاستعراضات. كانت ليبل هي محور أفراح هذه المانسيكات، فاكهة توت العلّيق، الاسم الذي تحمله مجموعتها : إنها هي، أعرف ذلك. قائدة اللعب والشيطان الموهوب لجميع أنواع الاختراعات.

أصبحتُ منسيا في تلك اللحظة، فلم يبق لي إلا الاختفاء. انسحبت على أطراف الأصابع. عدت أختفي في ترجماتي حيث ستأتي للبحث عنّي. داخل المنزل، عادة ما نلعب، هي وأنا، لعبة التَخْبِئَة.

عادت مع أمها وسط الظهيرة، وخدّها الأيمن مزيّن بخدش جميل يبدو حديث العهد. رفضَت قطعا التحدّث عما حدث لها، كما رفضت إخبارنا بهوية الفاعل، بافتخار وعنجهية. ولم نلح كثيرا، لا أنا ولا روسيا.

ثمّ وبعد أنْ أخذَت الوقت الكافي، ربّما لأنّ ألم الجرح قد قلّ ومعه الإحساس بالبطولة، تكلّمت بعد أن أرضت كبريا ءها. فكشفت عن المذنبة : لورا-لي. تلك الشقراء البريئة، ذلك الحمَل، أعزّ صديقاتها ! تبدو هادئة إلى حدّ الجمود، فكم تكون

قد عانَت ليصدر منها مثل هذا السلوك. الكثير طبعا، كثير الكثير.

ولكن ليبل أسرعت لتضيف أنهما تصالحتا. قالت وهي تهزّ رأسها للتأكيد على صحّة الخبر :

- نعم ! تصالحنا، ولم أبكِ.

كنّا نستمع إليها، روسيا وأنا، بإمعان ولكن دون تعليق، فأضافَت بابتسامة فاتنة، كما لو أنها شكّت في إقناعها لنا :

- أصبحنا أعزّ صديقات العالم.

ألقَت لها أمّها بعض الكلمات بالروسية. ابتعدت ليبل وهي تقفز على رجل واحدة.

تناولنا الشاي في الحديقة. عادت روسيا بالصينيّة التي عبأتها بكل شيء : الفناجين، الإبريق، علبة البسكويت، والغلايّة. دخلت البيت ولم تخرج. تكون قد عثرت على انشغال ما. تجد روسيا دائما شيئا تنشغل به. وإلا لم تكن هي روسيا التي أعرف. لا يمكن أن تراها جالسة لا تفعل شيئا ولو لدقيقة واحدة. في هذه الحالة، تجلس على حافة كرسي، مستقيمة، بهيئة المستسلمة. يوجد هوس في انشغالها. لماذا إذَن ؟ إن مظهرها الذي تريده دائما، منشغلة بالعمل، عنيدة في اندفاعها، يمنح لها مظهر شخص شارد دوما لا يبدو أنه يستهلك حركات كثيرة، وينجز مهمة وراء أخرى دون أن يمنح لنفسه راحة، إلا

ليدفع عنه إرهاقا، أو يحاول، صامدا، مُتجذّرا. البلد يريد هذا أيضا. لا يتعرّف السكان على أنفسهم إلا في صورة المنشغلين الدائمين، قانون العالم المقدّس تحت ستار الحزن. يبذلون أقصى جهودهم ويمدّون الستار على كل شيء. والشبح. الشبح الذي يسكننا وبعيونه نرى الآخرين، نرى الأشياء، إنه يسكن روسيا أكثر من غيرها، ترى الآخرين، ترى الأشياء عبر عيونه.

لا أتحرّك من أريكتي. أنا مريح مثلما أنا. لا يوجد شيء أجمل من حديقة غارقة في السكينة، في شفافية نهاية ظهيرة مثل هذه. يبدو الزمان مُعلّقا، مُتوقّفا، أخفّ من الهواء. روح مبتهجة. لولا الزرقة الضئيلة التي تتسرّب لتشكّل نور النهار، وتمتزج بجميع الألوان الأخرى، لنسيتُ أين أوجَد. لتصوّرتُ نفسي محلقا في سموات أكثر رحمة. إنّ الإفراط في الوهم يوقف الوهم، فنستسلم له، لا نقاومه، ما هو غريب يصبح مألوفا. أذوق طعْمَ الهواء، إنه لذيذ. مَن يتذكّرني إنْ لم يكن هذا الهواء، مع تنفسي، يزورني ويعيد زيارتي ؟ تسكت الأشجار، تنظر، تسترق السمع من جميع أوراقها. وبعد ذلك يبدأ كل شيء في التحرّك، مثل صورة تكتسي حياة جديدة. غريب أنا طوال الوقت، مثل شخص يقيّد نفسه، ثمّ يتحرّر في مثل هذه اللحظات. أيها الرسول الذي لم نعد ننتظر مجيئك، برغم عيوننا المبحلقة بعيدا. تحرّكت الأشجار وجميع أوراقها في لحظة واحدة. خاتمة كاملة لسؤال بلا جواب.

تلعب ليبل، التي لم أتوقف لحظة عن الإحساس بوجودها بين قدمّي، مع القطّة على العشب الذي تتناثر فوقه إبر الصنوبر. كما لم يفتني ذهاب ورواح الجدّة المنشغلة في الأروقة. تنزلق، ساكتة، خفيفة، مثل شبح، وهي تلبس الرمادي مثل عادتها ؛ مثابرة مثل روسيا تقريبا. الآن، إنها هناك قرب السياج، أراها منحنية فوق الأزهار والنباتات، أجهل ماذا، أجهل ما هي، تعكف على الاعتناء بها. تحافظ روسيا على غيابها في هذه اللوحة فتزيد الطين بلّة.

لا أتدخّل في تنظيم سير واعتناء منزل وحديقة دأبت المرأتان على تهيئتهما على ذوقهما. إنهما سيّدتان في منزلهما ولست أنا إلا عابر سبيل. طبعا أستجيب لندائهما في حالة ما بدا لهما أن تصليحا أو إنجازا ما لا يُسنَد عمله إلا لرجل. ولكن تحت طلبهما، ولا أقوم بتلك الأعمال إلا تحت توجيهاتهما. كانت رقبتي مسندة على رأس أريكتي، وعينايّ مثبتتان على الفجوة الزرقاء الكبيرة، بحيرة فاغرة هناك في الأعلى وسط الرؤوس المشبوكة لأشجار الصنوبر. تمسك مياهها - بفضل ماذا : معجزة العلو ؟- دون أن تنهار على جماجمنا، مهما كان نوعها، جماجم أطفال أو كهول. في هذه اللحظة، انعكس مغزل غيمة وتدحرج في العمق، مشعشعا بياضه. استعادت البحيرة المعكوسة زرقتها الأصيلة. لم تلوّث الغيمة طهارتها، لقد أجّجت نوعا ما طراوتها. وها هي : تنسحب الآن كما النداء الأبكم، كما صرخة نظرة، ويبدو لك أنك لا تستطيع فعل شيء.

في اللحظة نفسها، تلقى جسدي ضربة بذرة وتدحرج صداها في مكان ما عبر الفضاء الذي أشكله. تغطّت بشرتي بالأشواك. انتابتني رجفة. هل ستشتغل تلك الآلة التي تبرز من أيّ مكان وتسحق كل شيء ؟ لا، يسترجع النهار هدوءه.

إنّ ما يبهرني ليسَت أشجار الصنوبر، وإنما أشجار السندَر المنطلقة، حينما تنفصل في السماء. تبدو قممها على وشك الدخول في رقصة هائجة دون سبب ظاهر. تتحرّك، تبادر إلى تشكيل بوادر رقصة. ولكنها تسترجع جمودها. إن الحياة بداخلها التي تتوجّه من الداخل إلى الخارج، تعكس اتجاهها في هذه اللحظة، من الخارج إلى الداخل. ثمّ، ودون أدنى إشارة إخبار، تبادر إلى التحرك من جديد، تدور على نفسها في تمايل الرأس، بطيء جدا، لطيف جدا، بحيث لا يستبعد الابتهاج. ولا يبدو أنّ نسمة ريح قد فجّرت هذه الحركة. عند الأسفل، تمكث الحديقة غيورة على هدوئها. لا تتحرك ورقة، ولا يهتزّ أي جذع من أشجار السندر. حينما ترقص الرؤوس، أو تستأنف رقصها، تبقى الأجساد الكبيرة غارقة في جمودها. انتابتني نشوة من رؤية ما تفعله هذه الأشجار، أنا الغريب، صاحب قلب الضباب والصمت.

- بابا ! بابا !

- نعم.

- لماذا لا تجيب عندما أكلّمك ؟

- عفوا بنيّتي، كنت أفكّر في أمر شغل بالي.

- و الآن، هل انتهيت من التفكير في هذا الأمر ؟

- انتهيت منه في هذه اللحظة.

- بابا، أنت حقا بابا ؟

- أظن أنّ لا أحد يتجرّأ على قول العكس.

- إذَن أنت لست غبيا.

قالت هذا الكلام دون أن تنظر إليّ، كانت منشغلة بتقليب القطة على ظهرها ومداعبة بطنها بيدها. تمدّدت القطة المقلوبة بكل طولها وتركتها تفعل. قلت :

- كيف عرفت ؟

وأنا أفكّر : «تدخلين لعبة نتائجها معروفة سلفا». هذا ما بدا لي من الوهلة الأولي.

- لأنني لست غبية. بل أنا أقل غباءً منك.

هذه مسألة حساسة. إذا كان شيئا أستطيع فهمه، فكيف تشرحينه ؟

- أنت ورائي، أليس كذلك ؟

كان تأكيدها قاصما بحيث حرمني من كل جواب، ولم يترك لي إلا الانضمام إلى رأيها. وهو ما فعلته :

- أنت متقدّم عنّي، هذا أكيد. ربّما في الزمان ولكن ليس في المعرفة.

تجاهلت جوابي لتواجهني من جديد :

- لا تستطيع مثلي تمييز فُطر جيّد عن فُطر رديء، مُميت. صَحيح أم غير صحيح ؟

- صحيح.

- إذن ما فائدة جميع الأشياء التي تعلّمتها ؟

- لم أطرح السؤال على نفسي بعد، ولكن الآن جاء أوانه، ويجب عليّ التفكير في الموضوع بجد. ولكن هل من المفيد معرفة الجواب...

- قل لي كم تحوي برتقالة من أبراج.

- برتقالة، كم من أبراج ؟ أعترف... أعطي لساني للقط.

- ها ها، أترى ! تسعة ! تسعة ! لا تفيدك في شيء الأشياء التي تعلّمتها. في أي شيء. أين كان رأسك وأنت تتعلّمها ؟ كما لو أنك لا تعرف شيئا !

- يبدو لي الأمر كذلك، بعد كل هذا الزمان. زيادة إلى الزمان الذي قضيته في تعلّمها.

فجأة، وقفت القطة على قدميها. انطلقت كالسهم : عصافير تتشاجر هناك عند أسفل أشجار الصنوبر. وعند مسافة معيّنة توقّفت جامدة، مدّدت جسمها مع الأرض وبقيت تترقّب.

نهضت ليبل في اللحظة نفسها. طارت العصافير ولكنها لم تحلق بعيدا في محاولة منها لإفراغ شجارها. نظرت ليبل

وابتسمَت. راحت القطة تقفز إلى الأعلى، القطة التي يبدو أنها تريد دخول مدرسة العصافير وتتدرّب على ذلك. الأمر أصعب مما نتصوّر. تسقط أرضا برغم خفتها الكبيرة. التفتت لييل نحوي :

- شيء آخر. هل بمقدورك سماع العشب وهو ينمو ؟ العشب أو الأزهار.

- لست متأكدا.

- أما أنا فأستطيع.

- كيف ذلك ؟

- بالصيف خاصة، مثل هذه اللحظة، مع النوافذ المفتوحة ليلا. أكون نائمة وأسمعها حينما تكبر. كما التنهد الذي نسمعه عندما نتمدّد. أستمع إلى صوتها الصغير الجميل وأقول لها في قلبي : «هيّا يا أعشاب، يا أزهار، وأنتن أيضا أيتها الأشجار، تشجّعوا ! تحوّلون الأرض أكثر جمالا ! » في النهاية، أنام بموسيقاها في أذنيّ، وتصبح الكلمات صماء بكماء. ولكن يجب أن تكون النوافذ مفتوحة ولا تكون هناك رياح. وإلا، يستحيل سماعها. أنت لا تعرف شيئا من هذا.

بمجرّد أنْ أنهَت تصريحها، انسحبَت بدورها وتركتني هنا. ذهبَت تلتحق بجدّتها، رأيتها تنحني لتراقب عملَها. لا أستغرب إنْ كانت قد بادرت إلى إعطائها النصائح.

وأنتَ، هادئ بعينك المفتوحة، تستعد إلى ما يدعوك في الخارج. تصلح، أو ربّما أنت، برفقة ليبل، بصدد إصلاح جرح الزمان منذ طفولتك.

اليوم الذي ينتهي

من جديد أُهمِلت إلى رفقتي الوحيدة. إنها الرفقة الوفية الوحيدة التي تبقى للإنسان في نهاية المطاف. أجتر الهواء من جديد. أراقب ما هو ثابت في الحديقة، يزيد من سرعته إلى أن يصبح ثابتا من جديد. وتتحوّل الحديقة إلى قدر شفاف. وحدها الأشباح تعبره. أبحث عن السماء عبر قمم أشجار السندر. إنها الآن قد تخلّصت من غيمتها الوحيدة. إنها بزرقة مذّهبة، زرقة ناضجة. سماء الإسلام. لو فتحت ذراعيّ ؟ من يعرف إذا لم تأتِ كل هذه الزرقة للاحتماء كما طائر كبير. رائحة الصمغ الصنوبري الخافتة. وقت يمر دون مرور. لحظة تريد التوقف ولا تستطيع. يبدو أنّ وهما يشير إليها من بعيد، من بعيد جدا كلما تقدّم. ولكن بنوع من الحذر لا يبتعد كثيرا. قد تكون هي نفسها الوهم ولكنها تجهل ذلك. وهذا يجرّها في مَشي بلا نهاية، تحفر مسافة فاصلة، ليست أقل ولا أكثر طولا، ولكن لا شيء يملأها.

ها هي روسيا تنتصب أمامي.

– ماذا تريد روسيتي ؟

- الأريكة.

- ماذا ؟ الأريكة التي أجلس فوقها ؟

- لقد خيّم الليل ويجب إدخالها.

- خيّم الليل ويجب إدخالها ؟

أردت التأكد إن سمعت جيدا. أو بالأحرى عدم سماع ما سمعته. لا، إنني سمعت. تنتظر، لا تبتسم. بقيَت هنا، بلا حراك، في هيئة شاردة أكثر منها صارمة. صحيح أنّ جميع الكراسي الأخرى، وكل الأشياء المتناثرة هنا وهناك، قد أخذَت ووُضِعت تحت الحماية. داخل المرأب. انتبهت لذلك فجأة.

لا يمكنها إذًا أن تترك لي أريكتي، ما في هذا ضرر. ولكن من يتحدّث عن الضرر ؟ لا تخطر هذه الفكرة على بالها. أعطيتها لها، أريكتي، وبدأت أبتسم. ولكنني لم أتمالك نفسي. فغرقت في ضحك جنوني. ولكن متى بدأ هذا الضحك الجنوني ؟ تحوّل الهواء إلى جدار بيننا. بعد أنْ استرجعت جأشي، حاولت أنْ أقول لها من الجهة الأخرى للجدار : حدث ذات زمان انطوت فيه حياتك على حياتي، كما انطوت حياتي بدورها على حياتك، طي حسب طي». ولكنها لم تسمعني. أعتقد. بسبب الجدار. أعتقد.

أذهب للجلوس على إحدى الأدراج الخمسة للمدخل الرئيسي. في هذه الليلة الصيفية التي لا ننتظر سقوطها، شيئا فشيئا، تتحوّل الحديقة إلى قدر شفّاف، وتعبرها ظلال كثيرة دوما.

لقد خسرت بلدا، أو بالأحرى خسرني بلدي. فبحثت عن واحد يقبل التكفّل بي. فكّرت : ربّما يكون هذا، أو ذاك. وقادتني الصدفة إلى هنا. الصُدفة وروسيا. اليد في اليد. إنه في طرف الدنيا، أدركت ذلك من الوهلة الأولى. ولكنّني فكرت مباشرة بأنني لن أستولي على مكان أحد. توجد أماكن كثيرة في هذا البلد. كاد الوضع أنْ يكون كذلك. ولكن مهما كانت أرض فارغة ومنكوبة، يكون قد سبقك إليها شخص، ولهذا الشخص حقوق عليها. فكّرت : «وحبّ امرأة ؟ ألا يمنحك حقوقا ؟ ألا يمنحك هذه المكانة التي تبحث عنها ؟ قوة الحبّ». لم تكن لديّ إلا أسباب اعتقاد ذلك ممكنا، لأنني لم أتصوّر نفسي أعيش بدون روسيا، ولا هي، أتصوّر، بدوني. واجتهدَت في الفترات الأولى كي توفّر لي مكانا على أرضها. حينئذ، اكتشفت أنّه كلّما كان بلد على هامش العالم، كلما قلّ من تعذيب الدخلاء. وبعد ذلك اكتشفت أنّ الحبّ لا ينسجم مع الدوام إلا لفترة محدودة، جوازات شعرية لن يقبل بها أيّ حبّ بعفوية. مع أننا أنجبنا طفلة. ولكن ليبل، هذه الطفلة، ليست في سنّ امتلاك بلدها كي توفّر لي مكانة. أعود إذن إلى نقطة انطلاقي، دائما الانطلاق، التنقل. عُدت لأرى روسيا، لأرى ليبل، وأرجع من حيث أتيت. إنّ قانون الأجانب لا يريد لي أن أبقى أكثر من فترة محدّدة. ليس القانون فقط. كم وقت يدوم هذا الوضع ؟

تشبّثت بيديها بالطاولة وعكفت على دفع كرسيها إلى الوراء فتركته ينقلب على قدميه. بعد لحظات وجيزة ؛ وتعيد الكرّة ثانية. كانت خيمة النور التي غرسها المصباح المتدلي

من السقف حول عشائنا تجمعنا، روسيا، الجدّة، أنا، وليبل طبعا، زيادة إلى الصمت. كان كلّ واحد منّا منشغلا بهمومه. وخلال ذلك، واصلت ليبل لعبتها، ترفع كرسيها، تتركها تسقط أرضا، ولا تريد الاقتراب من الأكل. أصرّت عليها روسيا لتأكل حساءها، وسوف لن تكرّر أمرها أكثر من مرّة. كان صمتها أكثر ثقلا من صمتنا. أما ليبل، فبقيت تتمايل، غير آبهة بأمر أمها. وبعد ذلك طفقت تقهقه قائلة :

- أنظر بابا ! أنظر ما سأفعله !

مالت هذه المرة بكرسيها إلى الوراء أكثر فأكثر، والإفراط يؤدي إلى فقدان التوازن، أو هكذا أعتقد. وها هو الكرسي يسقط أرضا وهي فوقه محمرّة. ومسرورة أيضا. وبخفة انحنَت الجدّة إلى جهتها، والرأس مقابل الرأس، همسَت لها كلاما في الأذن، أجهل أي نوع من الكلام، كان بالروسية. أكيد أنه وعد. هل سترضخ ليبل لوعود جدّتها ؟ في تلك اللحظة، نظرتُ إلى جهة أخرى وقلت بصوت مرتفع :

- كم تُحسِن أكل حساءك، كيكي !

بمجرّد تلفظي لهذه الكلمات، انتابني الندم. لقد تغيّر وجه ليبل. فات الأوان لاسترجاعها. عملت كما لو أنني لم ألاحظ شيئا، وبالأخص وجهها المعجّن، وعوض التراجع، واصلت، مخاطبا كيكي في المكان الذي يفترض أنه يوجد به، بطريقة ساخرة نوعا ما :

- ستنهي حساءك قبل حتى أن تتناول ليبل المغرفة الأولى.

استأنفت أكلي دون زيادة كلمة. أيّ جنّ شرير أوحى لي هذه الفكرة ؟ لم أفهم لماذا قمت باستحضار الطفل الشبح إلى طاولتنا. اختلست نظرة خاطفة إلى ليبل التي عكفت على صحنها، خافضة الرأس، صامتة، وهي تعبّ حساءها، تلحس وتبتلع، متسارعة بحيث أفرغت صحنها في لمح البصر. فعرضَته مقلوبا. صحن نقي. بدت ليبل منتصرة، تلمع عيناها ببريق أسود :

- قل بابا، من منا أنهى صحنه الأول، أنا أم كيكي ؟

قلت متصنعا الدهشة :

- ماذا تقولين ؟

- لقد أنهيت حسائي، بابا ؛ أنظر !

صرخت في ذروة الاندهاش :

- هل صحيح ما أرى ؟

التفت وقلت :

- و كيكي، أين وصل ؟ لا يزال لم يُكمل نصف الصحن !

أكيد أنّ ليبل كانت تنتظر الكلمات التي تلفّظت بها. تبيّن ذلك من طريقة استقبالها لها ؛ قالت ببساطة :

- أرأيت بابا ؟

تفرّستنا جميعا، سعيدة لنفسها ولنا، وقد توقّفت عن حِرانها، بصرها لامع من التهيّج والمتعة. كان لمُتعتي أنا طعمُ تطهير. أتوقّع، بقليل من الجبن، أنها لن تلومني على حيلة أشبَه بخيانة، وحتى هذا الأمل لم يجعل قلبي أكثر خفة. بقيَت فاغرة الفم، والعينان مفتوحتان، ترتسم على ملامحها شبه ضحكة لم تبدأ بعد. ربّما ستبدأ قريبا. ولكن متى ؟

إنها نائمة الآن. ولكنها ستناديا من لحظة إلى أخرى. تُصِرّ دائما على إرجاع الرضاعة التي تأخذها قبل النوم بعد أنْ تكون قد أفرغتها. ليبل ليسَت رضيعا، ولكنها لا تنسى أنها كانت كذلك منذ فترة قصيرة فقط. لا يكون حنين هذه الفترة قد فارقها. لا نكفّ عن قيادة أنفسنا من اليد في الحياة. عندما تصل ليبل إلى أبواب النوم، فهي تحتاج، أظن، إلى رفقة هذه الرضاعة كي تساعدها على اجتيازها.

في المطبخ حيث أوجد مع بقية أفراد العائلة، أراقب اللحظة، أحسّ باقترابها. لن أنتظر، أتسلل في ظلمة الحُجرة. أصل في الوقت المناسب لأتلقى الرضاعة الفارغة، سوف لن تكون بحاجة إلى نداء أحدنا كي تمنحها له بيديها مثلما تحب أن تفعل. إنّها فرصةٌ لي كي أقبّلها، على انفراد، وليس في الدورة العامة لتبادل قُبَل ما قَبْل النوم.

انحنيتُ فوق عمود سريرها، ولكنّني لم أسمع شيئا، لم أميّز شيئا. في هذه الليالي الصيفية التي بلا ليل، نَضطر إلى

جَذب الستار كاملا لتسود الظلمة داخل الغرفة. أمر ضروري إذا أردنا لها أنْ تنام. والشيء نفسه بالنسبة إلينا، إذا أردنا النوم. هل تكون قد نامت ؟ مُمكن جدا. هذا من طبيعة سنّها أنْ تغرق بسرعة – بلوف ! – في النوم. غالبا ما تكون لا تزال تتلفظ بكلمات حتى تجدها تغطّ في سبات عميق. وفي هذا الأمر، روسيا تشبهها.

في الظلمة، وفي وضعية انحنائي، أحسَسْت فجأة بيدَين صغيرتَين تَمسكان بوجهي. لم أتحرّك. هي كذلك وقد احتفظت برأسي بين يديها. لا أراها ولكنّي أدرك تنفسها، حرارتها.

بقينا في تلك الوضعية لحظات.

ثمّ أمسكت أذنيّ بأصابعها. دلكتهما بلطف بين الإبهام والسبابة، مثلما تفعل مع أذنيها حينما يُخاتلها النعاس، فهمسَت بالروسية :

– أوشْكي، أوشْكي. (الأذن، الأذن).

وترخي الأصابع شدّها ؛ الآن تنام.

أبحَث دَوما عن أرض حيث أضَع عليها رجليّ معا، كي لا أضطر إلى وضع واحدة هنا وأخرى هناك ؛ حيث أمدّد جسدي مع حَجَر أحطّ فوقه رأسي. «ستكون في الحياة الدنيا كالغريب»، مثلما يقال. أنا أبحَث عن أرض ترضى استقبالي.

حالة الغياب

مرّ عام، كنا في الصيف، وها هو الصيف من جديد. صيف آخر. لا أرى دائما ما سأفعله. لا أجد شيئا. ولا أتخيّل كيف مرّت هذه السنة. أحاول. لا أستطيع. إنّها الفوضى في رأسي. دائما الفوضى. إذا أمعنت التفكير، أقول إنها حرب. لقد افترقنا، روسيا وأنا، يائسَين من حربنا، الحرب المتواصلة، ولكن بداخلي ! لم نستطع مواصلة تلك المُعاشَرة. وفقدت ليبل. بقي هذا الشيء الوحيد، شيء ثابت، لطخة دكناء، حفرة تجري كل أفكاري لتلقي بنفسها داخلها. بقيت بتلك الحفرة في رأسي. هل سأراها يوما ؟ حينما تصبح كبيرة. ربّما. حينما يصبح في مقدورها أنْ تبحث عنّي. حينما تصبح حرّة في تنقُّلها. ستبحَث عنّي. ستفعل. ولكن من تجد في تلك اللحظة ؟ أيّ أب غَريب ؟ ويجب أن أعيش إلى غاية تلك الفترة إنْ وجَب لها أنْ تحدث. ذلك أنّني لا أتوهّم شيئا. سوف لن تبعثها روسيا، ولا تسلّمها إليّ ولو لساعة واحدة. سَوف لن تسلّمها لي أبدا. إنّ تغذية مثل هذا الأمل، يعني إيهام نفسي بسراب.

منذ تلك الفترة، أصبح الوقت ثقيلا، يجرّ نفسه، أو يزدحم. لا أعرف لماذا. للوقت أيضا حُفرة في الرأس.

الصيف الآخر، قضيناه معا في قرية بمنطقة الأَرْدين : جميعا، روسيا، ليبل، الجدّة، أنا. ها قد وصل هذا الصيف. أجد نفسي وحيدا. في نفس القرية، نفس المنزل. إنه الآن منزل غاص بالأشباح. شبح ليبل في كل مكان، من القبو إلى السطح، مرورا من كل حُجرة، وكذلك في الخارج، في الحديقة. كرسيها، مكانها على طاولة الأكل ؛ صحنها، منديلها، مِفْرشها ؛ كتبها، دُماها، علب ألعابها، أشرطتها التسجيلية ؛ سريرها ؛ رسومها، الورق، الأقلام ؛ صيحات صوتها، رنّات ضحكاتها. ولكن لا تعوّض جميع هذه الأشياء حضورَها. أنتظرها مِن لَحظة إلى أخرى، أنتظر أنْ تلج الغرفة التي أنا فيها و... لا، إنّها في مكان آخر. هي، بكلامها المسترسل، بنظرتها الجادة والساخرة في آن واحد، حيث تُسند بها حكاياتها. لوْ أعرف فقط أين ؟ ليس أبشع من حيل الحضور هذه التي تتملّص، دائما في مكان آخر، أبدا في المكان الذي نظن أنها توجد به، حيث كان من المفروض اكتشافها. ليس بعيدا، قريبا من هنا. في الغرفة المجاورة حيث تنتظرني. وأركض : لا أحد، الفراغ. فراغ يُفرغني. ويتكرّر الشيء نفسه ؛ لا أحد هنا، ولكن قريبا من هنا، حضور مُعفّر بالغياب، عنيدة الغياب. غياب الحضور الشاق. الغياب الملتهم.

لست على ما يرام. عام كامل، ولا أزال أدور في حلقة مفرغة. عام بأكمله وأنا أنظر خلفي، وأمامي لأرى كيف يمكن لواقع معروف جدا أن يغيّر وجهه، أن يُثقل نفسه بالأقنعة. أنا أيضا، وكما جميع هذه الأقنعة، تواصل الاتّصال بي عن طريق تلك الإشارات الصغيرة، وحدها اللبّادة صاحبة الشعر الطويل تحسن تأديتها، تتصل بي بلغة تكلّمني حتى وإن كانت تلك اللغة تتشوّه، وتتبدّل من لحظة إلى أخرى. إنّ ما أجده في ختام سباقي الدائري هو زمان ما قبل روسيا، بعد كل هذه السنوات. زمان ما قبل ليبيل. زمان أيامه متشابهة، كله صمت. لقد سُلِّمتُ إلى بياض اللحظات التي لا يحدث فيها شيء، إلى بياض ما يمكن أن تصبحه كل لحظة. داخل يقيني بأنّ لا أحد ينتظرني في أيّ مكان، تخندقت في استحالة أنْ يسمعني أيٌّ كان. هل الإنسان الذي يطرح السؤال هو نفسه ؟ من هو هذا المُتَغَنتِر العائد ؟ أكيد أنه ليس ذلك الذي ذهب.

« تعود متغذيا، متخما، مثقلا بماضٍ جديد، مُتغَنترا، عندما لا يكون إلا الحاضر، إلا هذا الحاضر، وأنت غريب في هذا الحاضر وليس شيئا آخر ».

عبء كما يمكن أن نكونه لأنفسنا. عبء كما يمكن لنور النهار أن تكونه طالما لا تزال تلمع، لتتحوّل إلى وجه هاوية من الظلمات حينما لا تبقى إلا هذه الهاوية بعد رفع آخر قناع، يبقى هذا القبر الذي تعبره الدموع من بعيد لبعيد. جنون، هوس. كنا سعيدَين الواحد للثاني، روسيا. كنا طائعين

الواحد للثاني، نتبادل أحلامنا، كل الأشياء تبحث عن نفسها بداخلنا : الأيادي، النظرات، الأفواه، الأجساد. كنت أرتاح عندك وترتاحين عندي. وبعد ذلك... لا شيء. لم يعد للأحلام مكان. تخلّصَت الأيادي نفسها والنظرات نفسها والأفواه نفسها والأجساد نفسها من حرارة الآخر وطعمه ولطفه. انفكّت عن جميع هذه النعم. لم تعد تبحث عنها، وإن فعلت فبدون إيمان ولا أمل العثور عليها، كمن يكذب على نفسه. العطش، الغطس اللذيذ في البرودة المنعشة المتجدّدة : ينبوع جاف. وكان هذا هو الأسوأ. لم نتمكن من رؤية بعضنا بعضا وسط النور، والعيون فاغرة. عندئذ، خيّطنا عيوننا كي نتجّه مباشرة نحو الجدار، نحو الأبواب التي لم تعد تنفتح، - بضمان أكثر.

حلمي مدفون هناك، في منظرها، في ذلك الثلج اللانهائي. أَصول وأجول هنا وهو هناك تحت ذلك البيدَر الناصع حيث يشكّل بياضه كلّ وزنه. يُغمَى علينا في نهاية المطاف ولا نصبح أحدا، بل مجرّد شبح نواصل السير إلى هناك، لا يهمّ الاتّجاه، حيث تهذي البوصلات، تنمحي الحياة، حيث يصبح للأصوات، إن وقعت، رنّة حادة، زنّة الفولاذ، فلا يوجد أيّ صوت، ولا يواجهنا إلا الصمت. إمبراطورية الفراغ ؛ تواجهك العزلة في بياضها المتوقّف. زهو الموت العصي الاحتمال : يواجهك، البياض الذي يخلف نفس البياض، آخرة حضرت هنا.

هذا الصباح، فهمت فجأة. في ريْمس حيث قضينا يوما كاملا في الصائفة الماضية. يجب عليّ الذهاب للبحث عنها في ريْمس. ليبل هناك وسأجدها هناك بكل تأكيد.

بلا انتظار - ولماذا أنتظر : لا شيء يشدّني هنا- إلى الأمام ! 150 في الساعة على طريق وطني بسيارة قد لا تحتملها، حتى وإن لم تستطِع، فلتتحمّلها من أجلي. بقيت هادئا، يدايّ محطوطتان على المقود، غير متشنجتين، برغم هوسي بالسرعة المفرطة. هادئ إلى العمق، المخّ بارد. هكذا كنت، هكذا أعرف ماذا ينبغي أنْ أفعله، لذلك انطلقت مُندفعا. ضاعَفت السُرعة فيما كان الجوّ يميل شيئا فشيئا إلى التحسّن. إنّه أول يوم صيفي تسطع فيه الشمس كاملة، فكانت الحرارة خانقة، أنزلت زجاج أبواب السيارة كاملا. أتذكر جيدا، تملأني ذكرى ذلك اليوم، مثل السنة الماضية في مثل هذا الوقت تماما، كانت الشمس تمدّد أشعتها بسرعة فائقة على الريف، وتُلمِع إسفلت الطريق، تملأ حُفَر سراب مائي فيما كان كل شيء فوقها يرتعد.

دخلت إلى ريْمس. توجّهت دون أيّ تأخير إلى خلف الكاتدرائية حيث أركن، هذه المرة أيضا، سيارتي. وبعد ذلك، ولجت راجلا عبر زقاق دائري، هو نفسه، الذي يتّسع ويضيق، ملتصقا بالجانب الأيسر من الكنيسة الخارقة للعادة، قبل أن ينفتح على الساحة، حيث تكون وجها لوجه مع الحشد العجيب للسياح الذين تضرب أمواجهم الأرض والذين يجدون أنفسهم،

هم أيضا، في مواجهات موجة أخرى، عمودية الاتجاه : موجة حشد الأنبياء، الملائكة، الرسل، القديسين، أجساد مخفّفة، مصقولة، الذين لم يعودوا من الحجر فقط بوجوههم التي تنمحي، وعيونهم الدائرة إلى الأعلى، ينظرون بعيدا، يسكنهم نور مظلل.

نتواجد هنا، بالاتجاه نحو الأمام، ليبل وأنا، ترفّ الجفون في مواجهة الشمس الصباحية الحادة، مقابل الكاتدرائية السوداء لأنها تنتصب ضد هذه الشمس. تسألني. تتلقى منّي أجوبة ولكنني لا أعرف لحدّ الآن عن أيّة أسئلة. في اللحظة التي نمرّ فيها تحت أقدام القديسين المنهمكين في ارتفاعهم، بدا لنا أنّنا نحسّ بارتجاف هواء يداعبنا وبفساتينها تلمس شَعرنا. نعم، تلامس شعرنا، وبعد ذلك يلفّنا ظلّ هامس، عظيم ويتنفّس. وكل شيء يذوب، وكل شيء ينهار على بعد مسافة كبيرة. وهنا تطلع شموس لطيفة جدا، عجلات طاووس مزيّنة بعيون من الألوان. يتزاحم حشد كثيف تحت تلألئها المتّقد واللطيف. دون أن نعرف، نجد أنفسَنا داخل حركتها، طَوافها الدائري، همهمتها. كما لو أنّ المجرى يريد جرّنا نحو ظلام أكثر. انسَلخنا عنه وبقينا على الهامش. سوف لن نذهب نحو تلك العتمات. هنا، نميّز الأشياء ولوْ قليلا. مثلا هذه النجود المتدلية على الجدران. أبقَينا أبصارَنا مرفوعة إلى الشخصيات التي تمثّلها. أمّا أنظار هذه الشخصيات، فتتّجه من الدائرة المشكّلة حولها إلى امرأة شابة جالسة، وطفلها على ركبتَيها، طفل عارٍ منها،

ينبثق إشعاع الأمهات. ولكن الإشعاع ينعكس عليها ثانية بسرّ عصيّ التصنيف.

تأمّلناها بصمت. يتفرّسنا السرُّ. لم تَعد ليبل تسألني، لم تعد تقُل شيئا. ثمّ جذبَتني من اليد. اتّجهنا نحو الخروج، لقد رأينا ما ينبَغي رُؤيته. أما الباقي المُثمّل في الواجهات الزجاجية الجديدة بزرقتها المجمّدة، ولوحات داكنة، وأعمدة وانطلاقها نحو تشابك أقواسها القوطية، لم تثر في أنفسنا إلا اهتماما ضئيلا. ولن نتحدّث عن رفوف البطاقات البريدية، والألبومات والكليشيهات التي يُتاجَر بها داخل هذه الجدران.

تزأر الشمس أكثر فأكثر في الخارج. قمت بدورة حول الساحة، نظرت إلى جميع تلك الوجوه المتدفّقة بالعشرات، بالمئات، أجانب أكثر منهم غرباء، وأنا وحدي بينهم. أن أتعرّف على نفسي، أتعرّف، أيّ حيٍّ، أيّة مدينة ؟ هذه الأزّقة تحديدا والتي تتّجه أمامي مثل الأشعة، هي نفسها دائما ؟ كيف أجد نفسي في هذه المدينة، أجد ليبل ؟ البُستانة. نعم، البُستانة أولا، على اليمين عند خروج الكاتدرائية. بُستانة صغيرة جدا، يحوطها سياج حديدي، ولكنها بُستانة أنيقة، مسندة إلى عمارة. (وفي الطابق التحتأرضي يوجد المرحاض، شيء تحسن معرفته). احتمينا بظلال أشجارها، لأننا لم نخرج من الكاتدرائية إلا للوقوع في جحيم، جحيم بنيرانه المشتعلة في الساحة فوق رؤوس ملاعينه. انتظرنا أنْ تغادر روسيا وأمّها البناية الدينية. انتظرناهما تحت حماية تلك الأشجار، وليس

في البُستانة نفسها : على الجانب خارج السياج، وليبل تلعب، تحاول تسلّق الجدار. تفعل ليبل ذلك عند كل فرصة سانحة، تتسلّق الجدران الصغيرة، ثمّ تقفز من فوقها. لا يمكن أن تمنع نفسها عن الفعل. تتشبّث بقضبان السياج، تصعد، تقفز. طلبَت منّي مرّة أنْ أقف أمامها فاتح الذراعين. قلت نعم ووقفتُ أمامَها. أعَدَّت نفسَها جيدا وارتَمت عليّ، عادتها المحبّبة، التي لا تريد أن تحرم نفسها منها إن أمكنها أن تفعل. في ذلك اليوم، كرّرت العملية مرة أخرى، تلقّيتها من جديد بين ذراعيّ. كمْ من مرّة فعلت !

في تلك اللحظة، ولم أصدِّق عينيّ، لاحظت عبر قضبان السياج حبّات التوت، بعضها بنفسجية اللون، وبعضها بيضاء، تنقّط أرضية البُستانة، مشكّلة سجادا شرقيا. عندئذ، استيقظ الطفل النائم بداخلي من سُباته العميق، عيناه تلمعان، ليجد على طرف دهر طريقا مغبرا وتهيّج شمس شرسة. كان يَجري تحت تلك الرمضاء، لم يكن وحيدا : كان برفقة ثلاثة أو أربعة أطفال، مَن هم، مَن يعرف منذ ذلك الزمان البعيد. أطفال يشبهونه. كانوا يركضون، مثله تماما، باتّجاه الأشجار الوحيدة المغروسة في السهل كما قلوب الظل. حينما وصلوا إلى أسفلها، أدركوا ضخامتها، ولكنهم لم يأتوا من أجل ظلالها. كانت الظلال آخر اهتمامهم. ومع ذلك استرجعوا أنفاسهم تحت برودتها، فتحوّل العرق إلى حمام بارد تحت القميص الذي لم يعد قميصا وإنما جلد ماء، جلد ثانٍ فوق جلودهم. من أجل الظلال، لا، وإنّما من أجل التوت ! إنّها أشجار توت. يعرفون

ذلك. أشجار توت صاعدة إلى غاية السماء حينما نكون تحت أغصانها، كبيرة كما أشجار جنّة آدَم. جاءوا من أجل هذا. الطريق مجرى غبار، منقّطة بالفواكه التي انْقَضّ عليها هؤلاء الزرازير النهمين. أتذكّر أنّ الناس كانوا يقولون : «من أجل التوت تموت ؛ ومن أجل حبّ الملوك تُقطَع رأسك». كان الأطفال يكرّرون هذه الكلمات مُقهقهين ؛ إلى غاية التخمة ؛ يتمايلون من الضحك. هم على الأكثر ثلاثة أو أربعة عفاريت.

حبات التوت الآن، تماما مثلما كانت هناك. دخلت البُستانة، بي رغبة وحيدة : أن تذوق ليبيل طعم التوت. وإلا، أين ستعرف طعمها ؟ في بلدها، غير ممكن، لا تنبت فيه هذه الأشجار، سوف لن تصمد أمام البرد بهذا الطول في الشمال. قطفت واحدة من الشجرة ؛ لن ألتقط واحدة من تلك الساقطة على الأرض، لا يليق هذا بمقام نيفرتيتي. مددتها نحو فمها، توتة سوداء، تراجعت إلى الوراء، وعلى وجهها علامات الرعب، وحافظت على موقفها المريب. أخذت الفاكهة إلى فمي.

نظرت إليّ وأنا أمصّها، مع الريب في تقاسيم وجهها. وعندما رأتني ألفظ النواة الداخلية، بدا كما لو أنها استساغَت التجربة، أو أنها أرادَت إرضائي. فتذوّقت التوتة البيضاء التي حططتها على لسانها، وفي عينيها نظرة متردّدة، متفحّصة، تخويفية. تفحّصتها بدوري. وجدَتها لذيذة وطالبَت بأخرى. تمكّنتُ من قطف بعض الحبات من الأغصان المتدلية، ولم أجد منها الكَثير. ليس مِن اللائق أنْ نلتقط تلك المرمية أرضا فوق

الأعشاب، ذابلة، وقد سحقتها الأقدام. حينما كنت طفلا، لم أكن أتوقّف عند مثل هذه التفاصيل : حتى وإن كانت معفّرة بالغبار، تبقى صالحة للأكل. ولكن هناك، يسمّى هناك. ومع ذلك. في ذلك اليوم التقَت طفولتان، طفولة ليبل النازلة، أو طفولتي الصاعدة نحوها.

سأعثر على ضالّتي. توجّهت عبر شبه شارع مرتبط مباشرة بمدخل الكاتدرائية. وجَدتُ نَفسي في الزاوية أمام المطعم الذي تناولنا فيه غداءنا نحن الأربعة. الكوليبْري. لم أخبَر بوجوده قبل ذلك، وهو ليس اسم مطعم على كل حال. أشرت بذلك إلى ليبل. لا تعرف ما معنى الكوليبْري. أنا متأكد من ذلك. ستبتهج بمعرفته، خاصة أنها ستأكل في منزل طائر، دون أن تكون لها الشهية لذلك. مرَرتُ قربه وألقيتُ نظرة خاطفة إلى الداخل. لم يتغيّر شيء منذ سنة : نفسه المصرف الكبير بشكله الهارب وآلة عصر القهوة الكبيرة عند طرفه ؛ نفسها ألوان المعدن الأبيض والنحاس والمرايا وانعكاس الأضواء الخافتة عليها، الدافئة، المضيئة في وضح النهار ؛ نفسه الباب الخشبي الذي ينفتح هناك في العمق على قاعة المطعم، وبداخل تلك القاعة، نفس الأسْمِطة البيضاء، وأواني الأكل، والطاولات المعدّة لاستقبال الزبائن. ولكن لا أحد في هذه اللحظات، لا زبائن ولا نُدُل، لا من الرجال ولا من النساء، لا يزال الوقت مبكرا. ومع ذلك كان هناك إحساس بالانتظار يُبقي كل شيء معلّقا يترقّب حدوث الإشارة الحاسمة. واصلت طريقي واعدا

نفسي بالعودة حينما تُعطى تلك الإشارة. كما وعدت نفسي بالجلوس على الطاولة نفسها التي جلسنا إليها، طاولتنا.

تجوّلت تَحت أقواس قاعة «الأوبرا» وضواحيها، وعبر الطريق الراجلة على اليسار بمحلاتها العديدة. حاذيت الواجهات الزجاجية المُضيئة، ألامس بالنظر كنوزها التي لا يبدو أ نّ أحدا يرغب في اقتنائها. هكذا قضيت وقتي. لست هنا إلا لقتل الوقت، وبدأت أتساءل إنْ قتلت بما فيه الكفاية، إنْ كان يكفي هذا الكمّ. وبعد ذلك قرّرت، رجعت القهقري ؛ وجهتي الكوليبري. أردت أنْ أكون هناك قبل ساعة الحشد.

كانت قاعة المطعم فارغة دائما. كنت أوّل من يضَع فيها رجليه، جيّد، هذا ما كنت أريد. كانت طاولتنا هناك في الزاوية، عند المدخل مباشرة. اتّجهتُ نحوها للجلوس. انبثق خادم بستار أسود وقميص أبيض، يتلعثم مُعتَذرا. ماذا حدث ؟

- إنها طاولة لأربعة أشخاص.

- نعم، أربعة. وماذا بعد ؟

- أنتَ بمفردك.

- كيف ؟

حينها أدركت أنه على حقّ. أنا وَحدي. لم أكن وحيدا قبل قليل، والآن أنا وحدي. أخذت وقتي لأقنع نفسي بهذه البداهة، - هل حسبت جيدا ؟ ولكن من يكون وحده في جميع

اللحظات ؟ بدا الخادم متعاطفا مع حيرتي، فضاعف حسن استقباله، ودعاني إلى مرافقته إلى الطابق الأعلى.

أضاف كما لو أنّه يواسيني من حزن ما :

– سيكون لك منظر جيّد على الكاتدرائية، أجمل المناظر. وستخدمك فتيات جميلات.

أذهب، أبقى. ماذا سأفعل ؟ أخيرا سلّمت أسلحتي. اخترت البقاء. ولكن قلبي لم يكن منبسطا عندما صعدنا، وأنا أسبقه، السلالم الخشبية التي كانت تهتزّ وتصرّ تحت رجليّ. أوصلني بنفسه إلي طاولة صغيرة، حيث كنت وحدي فعلا. لم يكذب فيما يتعلّق بالكاتدرائية والفتيات اللاّتي خدمنني. حاولت تذكّر ما أكلت ليبل في ذلك اليوم من الصيف الماضي، على تلك الطاولة التي أبعدوني عنها. كانت جالسة على يميني ؛ من جهتي، تناولت السمك. لم أميّز ما قُدِّم لها. هكذا، في تلك اللحظة، ضاعَت أجزاء حيوية منّي، كانت لها دائما شهية معتدلة، شهية كوليبري.

غادَرت هذا المكان عند ابتلاع آخر لقمة من غذاء لمْ أعرف بما كانت تتشكّل أطباقه.

زَهرة الهِنْدَب البريّة

لم تنتهِ قصتي مع ريْس، للتاريخ وقتُه، - أو بالأحرى للوَقت تاريخُه. من جَديد أجد نفسي في الشوارع نفسها، غير بعيد عنها بالمرّة. مِن جَديد قاعة «الأوبرا» على يميني، ومرّة أخرى، بدا لي أنني لن أنتهيَ مع أيّ شيء، مع لا شيء. سلكتُ الطريق المُخصّص للراجلين على يساري، وصلت إلى أخرى أصغر منها، تقاطعها تعامديا. في عمق هذه الأخيرة، تصادفك زهرة الهِنْدَب البريّة في شكلها الدائري، ولكن هل يوجد ألمع وأوفر منها ؟ نور شَعْشَعٌ، تبدو كأنها تزرع ثمارها الجرابية في جميع الجهات وتسدّ الرؤية. قادني إليها شعور غامض. الآن لم يعد غامضا. أتذكّر. جئنا نتجوّل من هذه الناحية، ليبل وأنا. اقتربنا منها، نتساءل عما يكون هذا الشيء. ظنّت ليبل أنه قنفذ بأشواكه المنتصبة، ينكمش على نفسه، نائما أو في حالة الدفاع عن النفس. ماذا أقول، هل توجد زهرة بهذه العظمة ؟ قلت إنّها تحفةُ نَحْت حديثة. هيّا نقترب منها، قالت ليبل. خطونا خطوات وئيدة باتجاهها. فلاحظنا عمالا ببذَل زرقاء مُنشغلين حول الوَحش الذي يحمل النايات في ظَهره

على شكل سهام. نايات ولكنها صامتة وستبقى كذلك. راقبنا المشهد، كان الرجال يتحركون في سرعة معتدلة. الجوّ حار.

ثمّ فجأة، استيقظ ناي من النايات، لم يبعث لحنا وإنّما دَفْقَة ماء سقطت على رأسينا. أخذنا حماما صغيرا، نطّت ليبل في مكانها وهي تطلق صرخات فرح. أنا أيضا ارتحت لتلقي هذه البرودة. أحسَست أنّ لي دَينا اتجاه العالم.

اليوم يتفتّح القنفذ في زهرة متلألئة، خفيفة بقدر ما هي هشّة، في مجد من اللآلئ، أسْدِيَة مزيّنة بألوان متقزّحة. رجَعنا على خطانا، مُبلّلين وسعداء بذلك، توقّفنا في زاوية الزقاق أمام مركبة بائع المثلّجات. وبعد ذلك انطلقنا للبحث عن روسيا وأمها التائهتين داخل المحلات، لا يخرجن منها، وليبل تحمل كما المشعل قَرنَ المثلجات بدوائره الثلاث من «الكريم» المجمّد، واحدة بذوق الفَرَوْلة، الثانية بالوانيليا، والثالثة بالفستق. الآن، أتأمل وحدي زهرة الهندَب البرّية التي تلمع وتبهر بلآلئها، وألوانها القوس-قزحيةَ. وحدي، دون ليبل. مشهد مثير لـ... كيف أقول، ينزع عنّي قليلا من الضجر الذي أحسّ به يغمرني. ينبعث من ازْهِرار المياه نوع من الحبور الحاذق، التواصلي. حبور حاذق، تواصلي، ولكنّه مفجِّر، مُحرِّر في آن واحد. تزرع زهرة الهندب البرية البذرة الجديدة كي تبدأ الحياة.

ابتعَدتُ. خُطوة وَراء أخرى. مشيتُ، فحملني هذا المشي نحو ذاتي، غيّرني في مساره. سأنتهي، سأنتهي مع نفسي. لقد تغيّرت. لا أطارد شبحَينا، شبح ليبل يحلق مع شبحي. انتابني

حبور خافت، كتوم، يليق بحالتي، وقمت بدورة حول النافورة التي أدين لها به. اليوم، تجاوزتها لألج مُنبسطا تتراصَف فيه مقاهي تفيض سطوحا. اقترحْتُ على نفسي اختيار واحد للجلوس فيه دون أن أفقد رؤية زهرة الهندب البرية. لماذا لا يكون السطح الأول، بواجهته الزجاجية. بمُجرَّد دُخولي، غمرتني موسيقى صاخبة. فهربْت قبل أنْ تعوِّمني. ثمّ اكتشفت المقهى الذي يناسبني : تحت أشجار الدُلب، والطاولات في الهواء الطلق، وشكرا لملاتكتي الطيبة –يمشون دائما بالأزواج في حالة ما إذا أخطأ هذا أو ذاك– لا أثر للموسيقى، سوى تلك المرافقة لأصوات الناس.

ومن أجل هذا، طلبت كأس شامبانيا زيادة إلى قهوتي، بما أننا نمشي هنا فوق بحيرة تحتأرضية من هذا المشروب، هذا العفريت بسرواله الفضفاض (الموضة) وقميص خفيف من الحرير الخام الذي تجسّد أمامي. إنها طريقة للاحتفال بالعيد الذي أحمله بداخلي منذ بضعة دقائق. ولكن مجزرة الأطفال الفلسطينيين تتواصل. أسمع صراخهم وإنْ تعالى بعيدا عني. هناك، لا تزال زهرة الهندب البرية تلمع دون أن تفقد من تألقها.

لا هي، لا جوّ هذا النهار، جميل جدا للأموات، لا المكان والساعة. لا شيء. الصوت خاص بالعفريت، ولكن لا شيء يمنعه من التصفير في أذني، قريبا جدا، يطاردني بأمره : «يجب عليك العودة إلى قريتك في أسرع وقت، يجب، يجب». دفعت

ثمن المشروبات، وفي خطوات مُتسارعة التحقتُ بالسيارة. اندفعتُ في سباق جنوني شبيه بالذي جاء بي إلى ريمس.

وجاءتني فكرة كان يجب أنْ تسكنني : «ماذا لو تسبّبت في حادث قد يؤدي إلى وفاتي ؛ ربّما كانت هذه الطريقة أضمن للالتحاق بها، أضمن لإيجادها ثانية. إنها اللحظة المواتية. اللحظة المواتية فعلا، اللحظة، اللحظة...»

لم أطفئ محرك السيارة بعد ولم أُدخِل السيارة إلى المرأب، أسرعتُ إلى داخل المنزل. لم يواجهني إلا الفراغ. ويتراجع هذا الفراغ، يتملّص أمامي، يتوارى عند كل خطوة. أبدا هنا ؛ أي مكان أفترض وجودها فيه، حيث أجري لمفاجأتها. توجد درّاجتها في المرأب. ولكن لا أثر لها. تعلّمَت ركوبَ الدراجة معي. بعد ثلاث أو أربع محاولات، لا أكثر، تمكّنت من تحريك الدوّاستَين.

(كانت تَستطيع استِخْدام الدرّاجة بمُفردها منذ أيام حينما سقطت وجُرحَت ركبتها. يا لها من قضية ! قَضيّة ضَخمة. مأساة. الجدران تأثرت من التأوّهات التي أطلقتها ليبل في تلك الظروف، الجدران بكَت. كان لِزامًا علينا تضميد الجرح، بمشقة كبيرة، ولفّ الركبة كاملة. ثمّ تمديدها على السرير. وهي تردّد أنها ستموت ؟ هذا ممكن. مَع أنّها لا تجهل أنّها خالدة. ولكن كلّ شيء مُمكن مع ليبل. لم تنفع مواساة روسيا في شيء. أمّا الهمهمات الحنونة للجدّة لم توقف دموعها وشهقاتها

الحادة التي كانت تطلقها من عمق صدرها إلا قليلا. وبعد ذلك تستأنف تأوّهاتها. لدينا معوقة حقيقية في البيت.

في الأيام الموالية مشَت برجل واحدة. وكانت تعلّق الثانية في الهواء. لم يكن ممكنا أنْ تمشي مثل جميع الناس. لا تعرف إلا النطّ متّكئة على كل ما تجده في طريقها من جدران وأثاث وأشخاص. أمّا المذنبة، الدرّاجة اللعينة، فتمّ نفيُها إلى المرأب كي لا تخرج منه أبدا. ويوجد هذا الحيوان في مكانه الذي وُضِع فيه.)

توجد هنا، ولكن هي غير موجودة.

قبل هذه الحادثة، حينما تنزل من الطابق الأوّل حيث تنام، لا تدخل إلى المطبخ لتناول فطورها الصباحي إلا برمي القدمين معا إلى الأمام، ضاربة الأرضية بعقبيها في رقصة متَعَفرتة. أليسَت نصف روسية ؟ تتابع دروس الرقص، ولكن ليس لتتعلّم هذا النوع من القفز. تعلّمت رقصة الهوباك الروسية بالغريزة وحدها. نحن مجتمعون حول الطاولة. دخلت على طريقة فرسان القوزاق. لم تكد تجلس حتى حان دور مَن منّا، هي أم أنا، سيطرح اللغز الأوّل. لم يكن الوقت مُهمّا، سواء كنا على طاولة الفطور أم الغداء أم العشاء. لا يمكننا أن نفوّت فرصة تحدّي بعضنا بعضا حينما تحين، وتفويت الإحساس هذه المتعة. نعرف أيضا دون الإفصاح عنها أنّها طريقة لمقاومة الصمت الذي يجمّد كلام الكبار ويثقل بظلاله هذه الاجتماعات، ويقضمها من جميع الجوانب.

كعادتها دائما إنْ كانَت هي التي تطرح اللغز، تستعجل إعطاء الجواب. عفريتة حقا. نرى على وجهها أولا كيف يشتغل مخّها. أراه في هذه المرآة، وفي مرآة عينيها المبتسمتين. تتسارع بقدر ما تستطيع للانتصار على الصعوبة. فيأتي الانفجار. إنّ انتصارها صاخب لأنّها تصرّ على إيجاد الجواب، وهي تجده إلا في استثناءات نادرة. ويزيد صخبُها أكثر إنْ حدث لي أن تعثّرت، قبلها، في إيجاد الجواب. في هذه اللحظة، تكون رؤوفة وساخرة، فتشجّعني بصيغ من مثل :

- هيّا بابا، إنك قريب ؛ هيّا أسرع !

أووه، لا تضعف صورتي أمام ابنتي ! في أغلب الأحيان، أجد كلمة اللغز، ليس بنَفس سرعتها، وإنما بسُرعة مَقبولة. ينبغي الاعتراف بأنها بارعة في هذا المجال. لقد أعطيت أمثلة الفخّاخ التي ينصِّبها كل واحد منا للآخر لامتحان فطنة الثاني. لن أقاوم إغراءَ ذكر لغزين إضافيَين، ليس أكثر، اثنان يشترطان جوابا واحدا، جواب واحد للاثنين :

1

هو أنا

أنا هو

لا يعرف

بأنّني أنا

أما أنا

فأعرف من هو.

2

يفعل كل شيء مثلك

وأنت لا تعرف.

يتبَعك في كل مكان

وهو غير موجود

في النهار هو معك

في الليل ليسَ معك.

- حينما نعيش يجب أنْ نُبدع، قالت ليبل.

إذا كانت الصعوبة تدقّ رأسينا، فلا تخيفنا، بل تعجبنا، نبحث عنها، نحبّ التهيّج الذي تثيره فينا. شيء إضافي نتقاسَمه.

تساءلت مرارا من أين أتاني هذا الطعم، الذي بقي فيّ برغم تقدّم العمر، والذي ألصقته لليبل. أطرح السؤال من جديد. أظنّ أنني أعرف. اكتسبته من جدّتي. حينما كنت أزورها وأنا طفل، كانت تُبقيني عندَها أياما وأياما متواصلة. كنتُ أنام مَعها في غرفتها. عند المساء، بمجرّد النوم، هي وأنا، بعد إطفاء المصابيح، يستيقظ عالم آخر من أجلنا، يتلألأ. عالم العجب العجاب. يفتح أبوابه المذهّبة. حذارِ، لا يمكن أنْ تسمح لي بعتب أبوابه إلا ليلا. لماذا ؟ لا تنسى ولو مرّة تكرار

نصيحتها : «أبدا في وَضح النهار. لا تطالب بالحكايات ولا تسمعها. في وضح النهار. ستصبح أصلع الرأس، وينتهي بك المطاف بجمجمة عارية كما الركبة».

هل هي جادة في قولها ؟ ولكنّي كنت أومن بهذا الشرّ المعلّق فوق رأسي الذي سيأكل شعري. كنت حريصا على الاحتفاظ بشعري. لم أهمل ذلك التحذير. يمكن القول بأنّ خشية خفيفة لا تزال بداخلي إلى اليوم. أحسّ بذلك للتردّد الذي ينتابني كلّما بدأت قص حكاية من تلك الحكايات، حينما تطلبها منّي ليبل : ألقي نظرة رغما عنّي، بخفقان خفيف في القلب، نحو النهار الساطع، إن كان الوقت نهارا، ثمّ نحو غدائرها الجميلة. قد يتحقّق تحذير جدّتي، من يعرف ؟

كان لجدّتي إيثار للألغاز والحكايات العجيبة. إن لم يخطئ حدسي، كانت تجد متعة ماكرة في إخضاعي للتعذيب وهي تتركني أتلمّس طريقي داخل ظلمة غرفتها ومخّي. إنّ إعطاء جواب صحيح يعني في لغتها أنّك تحرّر نفسك، كما لو كنت سجينا أو عبدا. يستحيل عليّ الآن تذكّر إنّ كنت في تلك الفترة أحرّر نفسي بالسهولة التي تمتاز بها ليبل الآن. ولمَ لا، ربّما كنت مثلها تماما أو أفضل. كانت لدي طاقة أخرى أحرّر بها نفسي : اللجوء إلى النوم الذي أترك نفسي أذوب فيه، حيث يواصل صوت الجدّة ملاحقتي، وليست الكلمات، ثمّ تبتعد رويدا رويدا لتوصلني إلى مرفئي الهادئ. وكان هذا ما تبحث عنه جدّتي، ما كانت تريده فعلا.

فبَعد أنْ بدأتُ الحديثَ عنها، لا يمكنني عدم كشف سرّ من نوع خاص : بعيدا عن الزمان وفَرْق السنّ، كانت ستكون نسخة طبق الأصل لروسيا، توأمتها لو عاشت إلى اليوم. شبَه كبير قَد يَصل إلى حدّ التطابق العجيب ! أدركتُ ذلك من الوهلة الأولى. تقاسيم وجهها، هذه البَشَرة الصدفيّة، القدّ المتوسّط، الخصر المقوّس قليلا، الهيئة الحاسمة، وبالأخص، بالأخص العيون الخضراء التي تبتسم بذاتها حتى وإنْ بقيَ الوجه جادا. ما يُوجَد عند واحدة يُوجَد عند الثانية. ولماذا لا نقوله صراحة : يوجد عند الواحدة كما عند الأخرى هشاشة الروح والتوازن معا.

ماذا يَنبغي أنْ نستنتج من هذا ؟ لا أريد استنتاج أيّ شيء. هل نَحن مضطرون إلى تفسير شيء قد لا نعرفه جيدا ؟ ماذا بقي للتشبيهات أنْ تقول بعد أنْ قالت ما أرادت أن تقوله ؟ تحرِّر طرقا وتسدُّ أخرى. الآن، لم تعد تلك التشبيهات تهمّني، لا هي و لا أخرى.

أمّا ليبل، فلم تأتِ من أية واحدة من المرأتين، فاكهة بريّة، خُطّاف البحر برأس أسود. إنها مثلي أيام كنت طفلا. قلت لها :

- توجد أشياءُ تَجهلينها.

- مثل ماذا مثلا ؟

- بأنّك واحدة في الوجه والقفا.

- بابا ! أنت تهذي.

- أهذي ؟ أنظري. أكتبُ اسمَك.

مزّقْت ورقة من كنّاشي، وسطّرت حروف ل،ي،ي،ل، بالبنط العريض كي يسهل التمييز بينها والتي تعرّفَت عليها بسهولة.

- أرأيتِ ؟ هذا اسمُك، ليليل. أليس كذلك ؟ خُذيه من هذه الجهة أو من تلك، من الوجه أو من القفا، يبقى دون تغيير.

انتفخَت شفتها السفلى ازدراءً، وتقدّمَت :

- تتبجّح دائما بما تعرف.

- أنا ؟ متى سمعتِني أتبجّح ؟

- لا نَسمعك، إنها هيئتك.

- وما لها هيئتي ؟

- لديك دائما هذه الهيئة، هيئة من يتبجّح بكل ما يعرف.

هي، قويّة بصفاء ذهنها المرعب، بحقّها، بشجاعتها التي تستغلها إلى أقصاها، أنا، في المقابل، يُضْجِرني كلّ شيء ولستُ متأكدا من شيء أبدا، فبيننا حرب بأسلحة غير متساوية، حيث تنتصر باستمرار. أفكّر أحيانا : «يجب عليّ أنْ أكون حذرا أكثر». لماذا ؟ ماذا سأخسرِ إنْ كنت منذ البداية قد خسرتُ كلّ شيء ؟

أبٌ و غياب

كلّ صباح، بعد الفطور، بمجرّد ابتعادنا عن الطاولة، تبادر إلى السؤال :

- بابا، هل تريد أن نلعَب ؟

هذا الصباح أيضا، لم تشذ عن القاعدة، طرحت السؤال نفسه. في قرية من الأرْدين، لا توجد بالضرورة حضانة. كان رأسها مائلا جانبا، وعلى شفتيها ابتسامة : هذه الابتسامة هي التي تطالب، تسعى. كيف لي أنْ أقاوم ؟ كيف يمكن ذلك ؟ مُقاومة هاتَين العينين. مقاومة هذا السحر. أيّتها الطفلة، سنلعب معا. لقد قبلت قبل أنْ أجيبَك. قبل حتى أنْ تَطرحي السؤال.

إنّ الألغاز ليسَت لعبة، ما يسمّى لعبة. أعرف. اللعب أكثر جدية من هذا. طيّب، الآن سنلعب بجدّ. أسجّل أيضا أنك لا تعطين الأوامر. إنها نقطة لصالحك. في هذه الظروف، أحسّ بضرورة الاستجابة للانتظار الذي يعبّر عنه شخصك من الرأس إلى أخمص القدمين. ما هو العمل المهمّ الذي يمنعني

عن الاستجابة لطلبك بمجرّد التعبير عنه ؟ ومُستَعدّ لرَمْيه في سلّة المهملات ! صدِّقيني : لا شيء. أضيف بأنّني سعيد جدا. سعيد جدا أنْ تأتي للبحث عنّي، أن تأتي لتخلّصيني من السُخرة اليومية التي يفرضها عليّ كَمّ الصفحات المترجمة، صفحات أخرى إضافية.

أخذَتني من يدي بغتة وقادَتني إلى الغرفة المشتركة. كل شيء يحدث ها هنا، وليسَت المرة الأولى. ولم تنسَ جذب الباب وراءنا، ليسَت المرة الأولى أيضا، الشيء الذي لا يعجب أمها كثيرا. ولكن كما جميع الأصْباح. هناك في بلدها، كانت تفعل الشيء نفسه، ولم يكن يعجب روسيا أيضا. ربّما كانت تنزعج أقل. لست موافقا على غلق الباب، ولكن ليبل مصرّة على غلقه. لا أعرف السبب الذي يجعلها تصرّ على غلق الباب وراءنا. لأسباب تخصّها طبعا. لا أرغب في الاستخبار عنها. أما روسيا، فإنه موضوع إضافي يُمنَح لها للمناقشة. في بعض الأيام، تغضَب صراحة، بنوع من البلادة. هل تشعر بنفسها مرفوضة عند غلق الباب ؟ لا يمكن أن يكون إلا هذا الشعور الذي يدفعها للضجر، إلى الإحساس بالتهميش، هناك، خارج غرفتنا. هذا غَير مُمكن. هي لا تلعَب أبدا مع ليبل. وليبل لا تسمَع إلا الصوت الذي يقول لها أنّ هذا الباب يجب أن يُغلَق، ويَبقى مُغلَقا. هكذا هي : ترفض أنصاف القياسات.

لدينا جدول أعمالنا، لقد دققنا تفاصيله يوما بعد يوم. ونمرّ كل يوم عبرَ جميع نقاطه. يبدأ بدور السيرك. لا يتغيّر. أنا

المدّاح الذي يجذب الجمهور بإغرائه بوعود عروض خارقة للعادة. في البداية، لم يكن هذا الدور موجودا. هكذا جاءتنا الفكرة : كنت منذ أيام موجودا في أعلى سلّم مزدوج، أخاطر بنفسي بقطع أغصان الكروم التي تنبت خارج المنزل، محاولا تثبيت أغصانها على أسلاك حديدية. كانت ليبل عند الأسفل تنظر إليّ وتحرسني في آن واحد. ولكنها لم تكتف بالنظر فقط. بعد لحظات بدأت تنطّ وتتعلّق على القضيب الأفقي للسلّم. بدأت الطفلة المغامرة تتأرجح تحت قدميّ. تؤدي حركات بهلوانية ! شجّعتُها بخطبة حماسية مع كل الخطر الذي يحدّق بنا نحن الاثنَين. مثلما نراه في السيرك. أنا الذي أصبحت حارسا عليها الآن، حارسا علينا، بأننا سوف لن نتعفّر في التراب. هكذا كانت الانطلاقة، وجاءتها الفكرة. ولي أيضا.

هذا الصباح، عند البداية مباشرة، أعلنتُ :

– تقدّموا، تقدّموا، سيّداتي سادتي! تعالوا لترَوا أروَع مشهد، المشهد المذهل الذي لم تشاهدوه أبدا في مدينتكم ! فلا تضيّعوا هذه الفرصة النادرة !

أتوقّف لحظة، كما لو أنني أتأكّد من أثر كلامي على الجمهور المفترض، ثم أضيف :

– إنه آخر يوم لنا هنا !

فكرة جيّدة لجذب الناس أكثر. ثمّ نمرّ مباشرة إلى توزيع التذاكر وقبض النقود. إنه دوري أيضا. بدأت ببيع التذاكر

لأنّ المتفرجين بدأوا يتوافدون علينا، يتدافعون حول الشبّاك. أخبرهم :

- مارك واحد للكبار. أمّا الأطفال فبالمجّان !

التوصية الثانية من اقتراح ليبل، لا يجب للصغار أن يدفعوا شيئا، وأن تكون عملة بلدها هي السائرة وليس أية عملة أخرى. وخلال هذه الفترة، كانت تستعد. إنها جاهزة، يمكن للباب أنْ يُفتَح. هكذا يحتلّ أسدٌ المشهدَ، يتمايل على أقدامه، غيرُ مُستعجل : إنها هي، وأنا المروِّض. أين ومتى وجدت نفسها أمام الأسود ؟ تتصنّع هيئة ملائمة، هيئة أسد جليل. وأنا المروّض أصف للجمهور شراسة ملك الحيوانات. أحذّرهم بأن لا ينخدعوا بمظهره البشوش. إنه ليس شيخا هرما مثلما تَتصوّرون. سأواجهه أمامكم. أنظروا كيف يُخرِج أنيابه، ويُظهر مخالبه، يُهدّد بالعضّ والغزّ. له فوهة فرن. اسمَعوا زئيره، ألا تقشعر منه الأبدان ؟ لا تظنوا أنه يكتفي بالتثاؤب فقط ! هذا غير صحيح. إنه يستعد لابتلاع مروّضه. ولكنّني أحترس جيدا، سوف لن ينالني بسهولة إن أراد فعلا التهامي. أنظروا إلى ذيله (تحرّك ليبل يدها خلفها) : يضرب، يسوط. نذير شؤم : والآن ماذا يفعل ؟ يتسلّق بقفزة واحدة على أقرب مقعد، ومنها إلى الطاولة، ثمّ على ظهر الأريكة، وعلى جميع الأثاث الذي في متناول أسد. وأيّ أثاث لا يكون في متناوله ! يستعدّ لضربة مباغتة، هجوم لا نعرف من أين سيأتي. ماذا تريدون لوحش الغابة أن يفعل غير هذا ؟ أنا الآن أكثر إصرارا على

إيقافه عند حدّه، أن أروّضه بحق : سيدرك هذا الأمر بعد قليل. ويبدأ الهجوم، وفي كل مرّة أكاد أقطّع إربا إربا. آه، لولا سوطي الذي يصطفق عند أنفه لابتلعَني في مضغة واحدة. ثمّ ماذا بعد... إن جلالته ليسَت في واقع الحال إلا لطفا وحنانا ! لقد تعب من شراسته : ويبدو هذا ظاهرا في عينيه. تقدّم إليّ، داعب يديّ بقدمه المُشَعّرة، ولكنّها قدم خفيفة كالريشة. ألا يذهب به لطفه إلى حدّ الانتصاب على قدميه الخلفيتَين، رغم ضخامته، ليحيط عنقي بقدميه الأماميتين ؟ ها أنتم تشهَدون أيها المتفرّجون على هذا الانقلاب العظيم، تأملوا هذه العناية اللطيفة ؛ سيّداتي، سادتي، لاحظوا حنان ذلك الذي يقال عنه أنه حيوان متوحّش !

لا أقضي وقتي في الخطاب الحماسي فقط، لديّ أشياء أخرى كثيرة أقوم بها ؛ الآن أقوم بدور الجمهور الذي يصفّق راضيا لأتحوّل مباشرة إلى دوري الأوّل، دور الثرثار الذي يغدق هذيانه على ذلك الجمهور.

ولكنني لم أنتهِ من قول كلمة الختام حتى أتَت ليبل الفارسة. جاءت الأمازونية على فرسها الذي يتدحرج بافتخار، يقوم بدورات حول الحلبة : ذروة الجمال، حلم الجمال. أمدح خصالها سلفا ولست مخطئا. فبعد أنْ ركضَت في رقصة بطيئة، دفعت مطيتها إلى عَدْوٍ جنوني تعْبُر مجموعة من الدوائر الحديدية المعلّقة في مسلكٍ سباقها. لم نجد الوقت الكافي لإدراك تفاصيل هذا السباق حتّى انطلقت في تصفيق حماسي، مناديا

الجمهور ليتقاسم معي ابتهاجي بتصفيقات أكثر باعتباري قائد اللعبة.

تتابعَت أدوار أخرى بلا توقف. وبعد ذلك لعبنا دورا دراميا لا علاقة له بألعاب السيرك، حيث تقمّصنا أدوار حيوانات غابية في ألعاب صيد وصيادين. بابتهاج وشراسة. قصّة اخترعتها ليبل أيضا. كنّا بلا رحمة اتجّاه الصيادين وكلابهم معا. كنّا نستولي على أسلحتهم ونسدّد رصاصها اتجاههم. ثمّ نأكلهم بعد طهيهم بجميع أنواع المرق، ولا أصف لكم لذّتنا. وحينما يكون عددهم كبيرا، نحتفظ بالباقي في الثلاجة.

وفي هذه المغامرات الانتقامية، ودون استرجاع أنفاسنا، نقفز إلى موضوع آخر : القطّة الصغيرة التائهة. أنا سيّد أتجوّل في الغابة ولم أندهش حينما أصادف قطّة صغيرة، منكمشة داخل أجمة وتموء إلى حدّ إثارة الشفقة. اقتربت من البهيمة الخائفة. ما ألطف هذه القطة ! طمأنتها، أخذتها بين ذراعيّ. فنامَت في حضني كما في عُشٍّ، كما لو أنها بادلتني ثمن لطفي. فقرّرت أن آخُذها معي إلى منزلي لأتكفّل بها. كانت هذه القطة-ليبل من نوع العفاريت الطيّبة. اتّضَح أنّها تحترف كلّ شيء : تصيد في البرّ والبحر، تطبخ لنا نحن الاثنين، تحضّر طاولة الأكل. ولم يرَ أحدٌ مَنزلا أحسن صيانة ونظافة من منزلنا. زيادة على هذا، فإنها لطيفة ومتواضعة. في الليل، تنام على الأرض، فلم تكن بحاجة إلى سرير.

إذا كانت ألعاب المشهدَين لا تتغيّر من عرض إلى آخر، في المقابل، الحوار حرّ، نتصرف فيه ونرتجل مثلما يحلو لنا.

تخرج القطة الصغيرة. أو بالأحرى، تتجسّد من جديد في شخص أميرة وأنا أبوها الملك. أميرة تسُود على رأس بلد مجاور لبلدي. العاصمتان مختلفتان كل الاختلاف. عاصمتي من أعتق ما يكون، وعاصمتها من أحدث ما يكون. أنا أيضا شيخ مثل عاصمتي. لم أغادر مملكتي أبدا، فهي كل آفاقي. لا أعرف هذا بعد، ولكن سيتغيّر كل هذا قريبا. بدأ كل شيء بالسفر الذي قاد الأميرة ذات يوم إلى أقاليمي لرؤيتي. وصلت إلى واحد من المتاحف العتيقة كما القطارات التي كانت تسير في بلاد الأجداد. يا له من سفر ! مغامرة. إنّ القصة التي خرجت من فم الأميرة تُختَصر في كلمات قليلة : **بروم، تريك، رام، بيف، باف، كروف، بانغ، دوم** ! تتخلّلها شلالات من الضَحك، والتكشيرات، والالتواءات التي لا تسمح لي كرامتي بالخوض فيها مع الأميرة. ولكن ابنَتي لم تأتِ لزيارتي من أجل هذا فقط : دعتني بدورها إلى مدينتها التي تريد لي أن أكتشفها. فليكن. أتلهّف على زيارة مدينتها. ذهبنا فورا، امتطينا قطارا عتيقا خارج الزمان، ومن جديد : **بروم، تريك، رام، بيف، باف، كروف، بانغ، دوم** ! وصلنا إلى عاصمتها ونحن مرهقان، نرزَح تحت ثقل الضحك، وهنا، أخرستني المفاجأة، حيث انتقلت من روعة إلى أخرى. يا إلهي، كل الأشياء التي أراها لأول مرة في حياتي ! عمارات شاهقة أبقتني مذهولا، محلات، تلك الكبيرة الفاخرة، كما القصور، الصغيرة الجميلة

مثل الحليّ. كلّ شيء يلمع، يعكس نورا ساطعا مبهرا. كما أعجبتني المصاعد التي تقودك إلى السماء في لمح البصر، أكثر من غيرها. أبقى مبهورا أمامها وهي تصعد وتنزل في الأعمدة الزجاجية الملتصقة مع العمارات الشاهقة. وحينما أكون بداخلها، لا تساوي دهشتي إلا ابتهاجي.

جاءتني الفكرة وسط هذا البذخ. لماذا هذه الفكرة، لا أعرف. جاءتني. سألت :

- وكيكي ؟

لم أتلقَّ جوابا ؛ واصلت :

- ما مصيره ؟ لم أره مُنذ فترة.

لم نرَه ! كيف نقول هذا عن كيكي ؟ وأنا القائل، أنا الذي يتكلّم ليرى. تجمّدت ليبيل. دام جمودها لحظات. وبعد ذلك دام طوال الوقت. توقّف اللعب. ذهبت بعيدا، اقتربت من إحدى النافذتين الكبيرتين. وأنا المصدوم بالحديث عن حالة كيكي، ورؤيته، واصلت :

- هل تعرفين لماذا ؟

- كفى !

هذه الصرخة. لم تلتفت. مكثَت واقفةً مقابل النافذة، ضغَطت وجهها ضد الزجاج ولم تعد ترى شيئا، أنا متأكّد من ذلك.

أما أنا فلم أتوقّف :

- ماذا حدث له ؟

قالت بين أسنانها :

- سوف لن يعود.

الصوت ليس صوتها، الصوت الذي اتّخذ لنفسه مساحة، وانسجَن داخل تلك المسافة، حتى وإن كانت ليبل هي التي تضغط أكثر وجهها، تضغط عينيها ضد الزجاج. لا ترى شيئا عبر هذا الزجاج، أنا متأكد من ذلك. قلت :

- ولكن ؟

حتى وإن لم يقابلني إلا ظهرها، لا أجهل أنّ ذقنها بدأ يرتجف. جبهتها ضد الزجاج وذقنها يرتجف. صرخت :

- و لماذا ليبلتي ؟

- لن أقوله لك.

- و لكن لماذا ؟

غادرت الغرفة بسرعة، وجهها دائر إلى الجهة الأخرى، رافضة رؤيتي. بعد قليل، سمعتها تقول لي من الحديقة :

- إنّه سرّي وسأدفنه في الرمل !

اقتنعت أننا سوف لن نتحدّث أبدا عن كيكّي. أنا آسف، ليبلتي. لا يمكن لكِ أن تقدّري عُمق ندمي.

نورَس، يا نورس

نيفرتيتي-ليبل، لا تَنتَمين إلى أمّك بقَدر مما تنتَمين إليّ. لا تنتَمين إلى أحد، سوى لنفسك. لا يهمّ أين يوجد عُشّك لحدّ هذه اللحظة. إنه مؤقّت لا غير. سيكون مؤقّتا دائما. حلِّقي يا نَورَس... أحرّرِك من نفسي ؛ حرّري نفسك منّي.

حلِّقي عاليا، يا نورَس !

- احكِ، بابا.

إنها ليسَت هنا ؛ ولكنّي أحكي. إنّها ليسَت هنا ؛ ولكنّي أرى الثغرة التي تلج من خلالها الحكاية، من حيث تلج الكلمات والأشياء والعالم بكبَره ؛ أرى عينَها السوداء. وتأتي الكلمات في الترتيب الذي يليق، وليس ترتيبا آخر، كي تتشكّل الحكاية. انطلاقا من لحظة معيّنة، تتشكّل الحكاية من تلقاء نفسها. لأنّ الكلمات ابتداء من هذه اللحظة لا تخضع إلا لها. كِدتُ أقول حكاية حقيقية. آه، لماذا هذا العبوس ؟ حقيقية، أزعَجتك هذه الكلمة ؟ تقولين لا برأسك ويهزّ هذا النفي شعرك حول الوجه. لا، لماذا ؟ قليل من الصبر ؛ استمعي أوّلا. إنّ الحكاية

التي ستسمعينها لا تشبه الحكايات الأخرى. ذات يوم، كنتُ متواجدا في شارع، أحد أكثر شوارع المدينة حيوية والتي إن أردت معرفة ذلك، تملك معالم كثيرة مشتركة مع المدينة التي أنت أميرتها. «عمّا جئتُ أبحَث هنا ؟» يُحيّرني هذا السؤال منذ لحظات. أتذكّر أنّني أسرعت، وكان يجب أنْ أسرع، لسبب معيّن. والآن أنتظر أن تعود إليّ، وإذا كنت أمشي كمَن نسي ما جاء من أجله، لم أكن أقل حماسا. ليس هذا الشارع مكان نزهتي المفضّل : أمشي وسط الحشد مجتهدا لمعرفة أين أذهب ولماذا. فرأيته يعبر القارعة، ذلك الكَنيش الصغير.

كان يهزأ من السيارات المُجبَرة على الفرملة بغتة كي تفسح له المجال للعبور والعجلات تتنافس على التصفير الحاد. أمّا الكنيش، فلم يستعجل هيئته المهيبة، ولم يرفع قدما أعلى من أخرى. لذلك يلتفت الجميع ويتأملون مظهره المهيب. الناس، جميع الناس. وكان الشارع غاصّا بهم. فكّرت من جهتي : « إنّه يتصنّع البلادة، يُحسن أداء دورها، ويفعلها بمتعة كبيرة ! » وماذا ألاحظ ؟ يتجّه نحوي، مُجعّد كخروف حديث الولادة. لا ريب في ذلك. لقد رمقني، اختارني وسط ذلك الحشد حيث تكثر تلك الجميلات التي لا ينبغي لها أن تتنفّس إلا هواء الأفلام النقي. وقد دغدغ هذا الاختيار مشاعري. كما سحرني بلا شك مظهر شعره الأشقر اللامع، كما لو أنّه مرشوش بالشرارات. أمام مثل هذا الشعر، يصعُب علينا تحويل أنظارنا. أنظر إليه وأفكر : «كما يُمكن لشرّ أن يولَد من خير !» هذا إذا اعتبرنا وجودَنا في مكان ما وقد نسينا السبب شرّا.

قد لا تجهلين كيف تفعل الجِراء حينما تقترب من شخص. تُنجز دورةً حوله، تشمّه ثم ترفع أنفها، كما لو أنها تقيس مظهره. كنت موضوع نفس الاهتمام. كلّما طال تفحّصه، كلما بدا راضيا. أكّد على ذلك بحركات راجفة من الذيل، رغم أنه ليس إلا ذيلا صغيرا. وبعد ذلك، ارتمى عليّ عبر قفزات متواصلة. عرقل تقدّمي بتلك الحركات اللطيفة التي يمكن لكلب أن يقوم بها. رغم ذلك، انتابني شك. «يكون قد التبس عليه الأمر فأخطأ في شخصي. في نهاية المطاف، ليس إلا حيوانا فتيا». ولكن لا يبدو عليه ذلك. تأثرت كثيرا وكنت مسرورا أيضا. نعم، مثلما يمكن لخير أن يولَد من شرّ : تأثرت وفرحت وعوّضني عن نسياني الذي عكّر صفاء ذهني.

كان المارة، وهم كثُر، ينظرون إليّ بعين حاسدة. لا يبتعدون إلا نادمين، بعد لحظة توقف، بعد أن يبطئوا السير قليلا، بعد أنْ يكونوا قد انتظروا دورَهم، تأكلهم الحسرة لأنهم لم يكونوا هدف تلك الهجمات الودودة. يفترقون والحزن يعلو سيماهم، يشعرون بالعزلة أكثر من السابق، بعزلة أبدية. أستنتج أنّ حظّي يعود إلى خصال خاصة.

ومع ذلك، قدّرت أنّ مثل هذه المناسبات السعيدة لا يمكن لها أن تكون إلا قصيرة الأمد. وضعت حدّا لهذه المداعبة، وواصلت طريقي.

تبعني.

قد لا تجهلين يا ليبلتي أنّ مثل هذه الكلاب المجهولة، خاصة صغارها، التي ترافقك شطرا من الطريق، شيء مألوف. تركت الحيوان الودود يتبعني. لماذا أغيظه ؟ سينتهي به الأمر إلى الابتعاد عني مِن تلقاء نفسه.

لقد قضى وقتا لا بأس به إلى جانبي، يركض زاهيا. يركض قرب قدميّ، بهيئة زاهية في فروته الرمادية. هيئة زَهو وافتخار معا ! على كل حال، هذا ما كان يريد أن يعبّر عنه ذيلُه المرتفع. أو هذا ما فهمت من حركاته على الأقل، ولا يمكن لأية كلمة أنْ تعبّر عنه.

بعد قليل، أخذ أصبعي.

هوو، هوو ! فكّرت. إنه مثل هؤلاء الأطفال الذين، عوض إعطاء أيديهم، يفضلون شدّ أصبع من يد أمهاتهم أو آبائهم، وهذا ما فعله الكنيش الودود. أليس هذا مثيرا للغرابة ؟

واصلت التقدّم. الآن يشدّ أصبعي بقوة، بقوة كبيرة.

فكّرت : هوو، هوو ! خاف أن أبتعد عنه أو أن يتيه. فواصلت سيري كما أنّ شيئا لم يكن، هو مشدود إلى أصبعي، وأنا أحاول نزعه، فأضحك بداخلي.

فكّرت : إلى متى ونحن على هذا الوضع الشاذ ؟

فجأة، أضحى ثقيلا، ثقيلا جدا.

هوو، هوو، ما هذه الطريقة ! ماذا حدث له ؟ أرى بأنه لا يرفض المزحة. إنها أحد أدواره.

ومع ذلك، اجتهدت للحفاظ على هيئتي، نفس الهيئة. بدأ القلق ينتابني : ضعي نفسك في مكاني. بدا لي أنني أجرّ ثورا بدل جرو. لم أنبس ببنت شفة، كما امتنعت عن النظر إليه.

لا أظن أنني أردت ذلك، على الأقل بصفة إرادية، فأدرت رأسي لأواجهه، أحنيت عينيّ عليه. ما اكتشفته ملأني رعبا. قدّري بنفسك : الكنيش الصغير أضحى كبيرا، كبيرا جدا ! ألقيت نظرات مختلسة حولي ؛ لا أحد، قلت فعلا لا أحد، بدا أنه لاحظ أنه تحدث أشياء غير عادية.

تظاهرت أنا أيضا بإيجاد هذا الأمر عاديا. لا أطلب إلا أن أحرّر أصبعي، إن استطعت. خلال كل هذا الوقت، لم يُرخ شدّه. ولكن كيف سأجبره على ذلك ؟ هززت يدي مرتين أو ثلاثة. بلا نجاح. بالعكس، لم أفعل إلا أن زدت من شدّ أصبعي كما في قيد. لقد قرّر فعلا أن يرافقني حيثما أذهب.

توقّفت. بدأ الخوف، بطريقة ما، يتسرّب إلى كياني. ولكن لم أرد أن أعرض نفسي للفرجة. ثمّ وبنبرة ساخرة، كما لو أنه من المألوف أن نتحدّث مع حيوان، قلت شارحا :

- يكفي، اتركني في حالي الآن. ورائي أشغال تنتظرني...

وعلى وشك أن أضيف : «اذهَب، أنت أيضا، إلى أشغالك»، فتذكّرت أنني أحدّث كلبا وابتلعت نصيحتي. ربّما كنت على خطأ.

لقد فهمني، سجّلت ذلك في هيئته. لا يمكن للإنسان أنْ لا يشعر بالارتباك حينما يخاطب بهيمة ويرى أنها تفهم قوله. أتأمل هذا السرّ وفي الآن نفسه ألعن حظّي، -الحظ الذي جعلني أتلقى هذه الصداقة المزعجة هديّةً. هل يمكن للشرّ أن يولَد من الخير ؟ يبدو أن هذا ما يحدث معي.

لا ننتظر الردّ من كلب وإن كان أذكى واحد في جنسه. وإلا حدَث خللٌ ما في صفاء ذهنك. فَعل هذا بأفضل ما يمكن. لقد تصرّف بطريقته أفضل مما يمكن فعله بالكلمات وبالجمل التي استغنى عنها، مستخدما لغة واضحة كلّ الوضوح وإن كانت لا تُسمَع، فهي تقول وتدعّم خطابه الجميل الأخرس بفضل نظرة الكائن البشري التي تلقيها عليك، هذه الحيوانات :

أولا، لا يوجد ما يفعله في غير هذا المكان، ولا يريد أن يذهب ؛

ثانيا، يفضّل البقاء معي، ويريد أن أبقى معه ؛ سيتبعني إلى أيّ مكان إذاً ؛

ثالثا، يجب أنْ أحمِله ابتداءً من الآن.

أحمله : هذا غير مَعقول. بحجمه كحجم الحمار ! يا لها من وقاحة أو أنني بليد حقا. قطّبت حاجبيّ ببشاعة : لا فلا !

فنظر إليّ بنظرة الكائن البشري المسجون في جلد بهيمة. لا يبدو أنّه يوافق على موقفي. لست أشجع من غيري. ماذا ستفعلين أنتِ أمام مثل هذا الوحش ؟ هل تواجهينه ؟ على

الأقل لو كان يستعمل كلمات البشر التي تمكّننا من التفاهم بلا مواربة. ولكن لا، يبدو فعلا أنّ شرّا على وشك الخروج من خير.

عندما كنت أحتج، تعنّت على تفرّسي بعينيه اللتين تثيران الدوران، وهذا هو الإحساس الذي انتابني. كما أظهر مخالبه أيضا، وليسَت مخالب، ولا مخالب كلب. إن لم أخطئ، يتعلّق الأمر بأوتاد أشبه بسكاكين فولاذية بسنن حادة مرصوفة في صف واحد.

ماذا سيحدث، وسيكون شنيعا ؟ شيء سيَحدث بسرعة بحيث لا يكون لديّ الوقت لمعرفة طبيعته. فكّرت :

«الهدوء، الهدوء، أنت بحاجة إلى هدوء ؛ أنت على وشك أن تفقد رباطة جأشك».

ماذا أصابني، ما الشيء الذي يمسك بي : فورة غضب !

لست إلا متوحّشا مندفعا، متوحشا يصرخ بملء فيه دون أدنى نظرة إلى المارة :

- ابعَد عنّي، وإلا مزّقتك !

وها هو يصغر أمام عينيّ. فاسترجَع مظهر الكنيش الصغير الذي اقترب منّي قبل قليل. ومبتهج مثلما كان، بمروحته المختلجة، ونفس الأقراط المتلألئة على جسده الصغير والتي ترسل لي كل واحدة منها ابتسامة. فذهب دون أن يطلب شيئا، تماما مثلما جاء.

نظرت إليه وهو يبتعد، متألقا، يرفع قدما وراء أخرى، كما لو أنّه كان تحت تأثير موسيقى ما، متّجها أمامه، فاتحا طريقه دون انحراف باتّجاه بدا له معروفا بغتة، حيث هناك من ينتظره. هكذا نسَيتُ القضية التي قادتني إلى هذا الحيّ الذي ليس مكان نزهتي المفضّل بكل تأكيد.

خيط احمَر، خيط اصفَر وخيط مليء بالدُّرَر. الكبيرة لي، الصغيرة لَك.

- و لكن بابا، ما دخل الدّرَر هنا ؟

- هذه الدّرَر ؟ إنها إشارة معروفة. إشارة نهاية الحكاية. كانت جدّتي تنهي حكاياتها دائما بهذه الطريقة. حينئذ يمكنني إغماض عينيّ وسدّ أذنيّ، والاستعداد للنوم.

- و لكن حكاية هذا الكلب، من أين أتيتَ بها ؟

- لا أعرف بنيّتي. إنها حكاية أيضا، مثل غيرها من الحكايات. رويتها لكِ مثلما تبادرت إلى ذهني. عفوا.

زيّنَت ابتسامة متواطئة ثغرَ ليبل، كما زيّنَت عينيها ووجهها، مجموعة من الأهاليل. بقيَت هنا بابتسامتها الخافتة التي تصنع الأهاليل.

كما ابتسمتُ لها أيضا.

الطفل العاري

السبت 23 جويلية، عشية عيد ميلادك، وهذا الحلم، روسيا : كنت متواجدا في نفس المستشفى. ينبغي عليّ أنْ أستيقظ وأتخلّص من هذا الحلم ؟ ولكن أليس من الأفضل لي أن أبقى داخله ؟ وأواصل التواجد هنا وهناك ؟ أن أكون معكم برغم هذه المسافة الفاصلة بيننا. لا يوجد إلا الحلم ليقرّب بيننا. لقد أصبحَت المسافةُ قضيةَ حسابٍ منكِ إليّ. كمْ من ليلة بلا وكم من ليلة مع، كم من قُبلة، كم من نظرة... لسنا إلا لُعَب هذه الحياة، وأنتِ تجهلين. يحلم بنا شخص، أو شيء، ويسخر منا في الآن نفسه. أيها الوهم إلى حدّ الإرواء، إلى حدّ التخمة، -إلى متى. أردت أن أقول هذا فقط : الحظ، إنْ كان رجل وامرأة قد التقوا به، هذه المرأة، هذا الرجل، هي أنتِ روسيا، هو أنا. كم من أشياء كنّا قادرين على إنجازها ! طبعا أنجزنا شيئا خارقا للعادة، ولكنه واحد من تلك الأشياء التي لا نعتقد أنها خارقة للعادة أثناء إنجازها. هكذا كان إفلاسنا. حَظّ من النادر أنْ يُعطى للكائنات البشرية، وقد مُنِح لنا، هذا الحظ، وتركناه يفلت من بين أيدينا. كيف وصلنا إلى هذه النتيجة ؟ حدث

هذا... لا، لم أعد أعرف. لم يكن من حقّي اقتفاء أثرك. كان هذا الرضيع بين يديك واقتفيت أثرك. تتوقّف الذكرى هنا، بلا زيادة، هنا.

أحلم وأعرف أنّني أحلم. كما لو أنّني أنظر في المرآة : أكون أمام نفسي ولا أكون ؛ الآخر غير موجود، أو أنّ ذاتي هي غير الموجودة. ولكنّنا نُوجَد هنا، ذاتي والآخر. لا أريد الخروج، -الموت أفضل. تتكسّر المرآة، فتصبح مماتا. وتفرغ الحياة من ذاتها.

أراك جالسة على ركبتيّ : هذا الرضيع هو أنتِ الآن، ليبل. تراقبني عيناك. إنهما هادئتان. تبقيان هادئتين. يبدو أنّ نظرتهما تشقّ الفضاءات الشاسعة لتعبرني وتذهب بعد ذلك لتتيه بعيدا عنّي، داخل السرمدي. وبالهيئة الهادئة نفسها، تُحطّين قبلة على خدّي. ولا تتوقفين عن تأملّي بتلك النظرة الهادئة. أحوطك بذراعيّ، وبدوري أقبّلك. لا كلمة بيننا، دائما بلا أية كلمة. بقينا نتفرّس بعضنا بعضا. حينئذ لاحظت لونَ عينَيك : أخضر المحيطات. ليسَتا بسُمرة الدخان، ولا بسُمرة العنبَر، ولا بسمرة محروقة إلى أن تبدوان سوداوين مثلما كان ينبغي لهما أن تكونا. سمعت نفسي أفكّر : أليسَت هذه إشارة على أنّني ضيّعتها ؟ كسَّرتُ الصمتَ وقلت : «لا تمنح لنا الحياة أيَّ شيء تمكننا من الاحتفاظ به. لقد أخذَت ما أعطته لي، بأسرع مما منحته لي. ولكن أنا عاجز عن فكّ قيدي». يقودنا ملَك أعمى. ألتفتُ خَلفي بَين الفينة والأخرى وأقرأ طريقي في

محْجريّ المُفرغَين. جَبهتها : لامعة، ولكن يوجد تحتها سواد الهاوية العميق، حيث أفكّ معالم دربي.

روسيا، إنّك استوليتِ على أحلامي. أعثر فيها على ليل، ولكن هذه الـ(ليل) هي أنت. أواصل طريقي بعيدا والتقي الملَك الأعمى : هذا الملَك هو أنت ويتقمّص عينيك، فلا يُعتبر أعمى. بعيدا، أبعد من ذلك بكثير، هناك حيث يبيّض ثلج الصمت، أصادفك في طريقي.

أن نلتقي وننسَى. ننسى أننا تعذّبنا الواحد بسبب الآخر وطبيعة ذلك العذاب. لو يُمكن لهذا أن يكون صحيحا، روسيا : بأن يكون الخراب، الأطلال، خلفنا. لا ننتهي من الموت، من الولادة من أجل الموت، وربّما متنا عن الحبّ، موتا لا رجعة فيه. عندئذ ما ألعننا نحن الذين نحمل هذه البشاعة بداخلنا ولا نتقزّز من احتضانها بحرارة. لتكون هذه النيران التي نشعلها ونؤجّج لهيبها بلا توقف بحطب من العنف، بلا توقف نؤجّجها لننام فوقها، طريقتنا الوحيدة للحياة. هذا الذي اكتسى أهمية، وهذا الذي فقدَها وبررّ سلوكنا الراهن، الكائن الذي أصبحتِ، الكائن الذي أصبحتُ، أنا الذي ظننت أنني وجدت فيك قدري -بأخضر المحيطات ذاك، أضاءت نظرتك كل شيء فجأة-، ما تبقي منه.

ما تبقي منه. لا أتكلّم ولا أحيَ إلا مع الأشباح. هل أصبحتُ الآن واحدا منها، من فرط معاشرتها ؟ كيف يمكن التأكّد حتى وإن صرخَت المظاهر بالعكس : أتردّد أحيانا عن

الالتفات ورائي لأرى إنْ كان خيالي يتبعني. رغم هذه المظاهر، قد يكون المَلَك الأعمى ؟ نريد، نأمل أن لا نبقى دائما على صورتنا القارة، تلك التي نتصوّر أنها تشكّل كياننا. إنّ الرجُل الذي يقول، أنا، يعرف.

منذ أن عرفتُها، لا ترتدي جدّةُ ليبل إلا الرمادي. بحضورها تعدّ العالم لاحتمال غيابها، تمحي آثارها. إنها مهيبة بثيابها الرمادية التي تجعل منها سيّدة محترمة. لا تضحك، وحينما يحدث لها أن تبتسم، فإنها ابتسامة شبح متأسفة. وعلى روسيا أيضا، بدأ الزمان، أو شيء لا أعرفه، يحطّ صَبَره، أو شيء انفعالي يَصنع الشبح. لم أعُد أراها إلا داخل نوع من العمق، من الابتعاد. مظهر نبات السحلبية وسط ضباب يقضم وجهَها، نظرتَها، يقضمها كاملة، ومن جميع الجهات. أن نَرى تلك التي نُحبّها من بعيد، فقد لا نرى إلا شبحا يتراجع باستمرار. لقد قرّبنا الحبّ إذاً مِن وَهْم. لم يجد قوّته إلا فيه. لقد ترك الخريف ثلما مذهبا في الأسس، وخلال بعض الوقت، كان ذلك النور. في تلك اللحظة، امتلأ المكان بذلك النور، العيون يسكنها تمثال. تمثال غريب، منفصل، إن لم يكن شبحا، هل هذا أفضل ؟ ولكن أحيانا، تتضبّب النظرة بالشفقة. من أجلها، من أجلنا ؟ أريد أنْ يُنيرك سرّي، روسيا، وأن يُمطر من جراحك قليل من دموع الدم وكثير من دموع النور. ذلك النور الذي يُذهِّب عينيك.

أنت النعمة روسيا، امتداد الشُقْرة ؛ وليبل السُمرَة، لفح الشمس، القرْفَة. ليبل بعَدم قدرتها على تدوير حرف الراء وتمارينها المتكرّرة للتمكن منه، وفق نصائح الطبيبة المختصة في الأورطوفونيا : دار لين دو، دار لين دو. هذا ما جعلني أسمّها بـ»دارلين دودو». خرج مني شخص آخر وابتعد. أما أنا فبقيت. كلمات الحبّ. يمكننا نسيان أننا تلفظنا بها. ولكن الذكرى لا تنمحي من حيث انبثقت. تعرّفت على قلبك بجسدي، وعلى نظرتك برغبتي. تكمن الذكرى هنا في مكان ما. يُمكن لي أنْ لا أعرف كيف أتكلّم. مع أنّها توجد هنا.

- بابا، قرأتَ كل الكتب الموجودة ؟

- كل الكتب الموجودة : لا أتذكّر أنني قلت مثل هذا الكلام. قرأت عددا منها فقط.

- والآن ستقرأ الكتب المتبقية.

- سأحاول قراءة بعضها على الأقل.

- بابا، تقرأ كثيرا، لماذا ؟ لكي تصبح ذكيا.

- أنا فضولي...

- ألا يمكن أن تكون ذكيا بمفردك ؟ دون الكتب.

الآن، انتهى كل شيء، ليبلتي، لم يَعد وجودها ضروريا مثل الأحلام. بالأحلام نلتقي، أجدك. ولكن ليس في الكتب. ليس في الحياة. لذلك أصبحَت الأحلام هي الحياة. ليسَت الأبواب مزيّفة، تنفتح حينما أدقّ وأستطيع الدخول، لأستريح

مِن تَعب الطُرق. تنفتح، ويستقبلني بيتٌ بعمق الذاكرة. أحيانا تستقبلني الحدائق، جنّات بطيورها : حدائق الصيف. أدخل، تغرّد الطيور، وأنتِ هنا، تُرفَع الغشاوَة عن عينيّ، والقيود عن شفتّي. تعود إليّ ذاكرتي. يعود إليّ كل شيء.

لا أعرف الكلمات التي سأجدها كي أعبّر عن هذا. كان لديّ كلام الهوس، وها هو هوس الكلام يستولي عليّ. هذا الذي يمتَنع عن القول، هذا الذي يرفض ويتعنّت. نتلقى سكوتَها كدَفْقة رصاص، تأخذ بتلابيبنا، لماذا، مَن يتجرّأ على قوله لك ؟ ربّما كان هذا الدرع الرصاصي إنْ دفنَك في ذاتك، إنْ حماك أيضا من كل ما يشترط أن يقال. ربّما. إذا لم يذيبك في الدياجير. دياجير السكوت، دياجير الهوى. أيتها الدياجير، ثلج في سوادك الحالك حيث يوجد الطفل العاري، وأنا أقابلك.

دار لين دو. دار لين دو. تلك التي يُكتَب اسمها «ليبل» ويُنطَق «ليُول».

سكتَت. يبدو أنها تريد إظهار شيء. ولكنها لا تقول ماذا.

– نعم، قالت وشفتاها معقوفتان.

بقيَت تستَمع. تمدّ نظرها، وليس أذنها. هذه النظرة، العنبر الذي يبتلع السطوع المحيط ويبقيها سجينة، العنبَر الذي يحمل النور الأسير إلى تركيز بحيث يبدو أسود اللون. قالت في نهاية المطاف :

- و لكن بابا، أتعرف ؟ يبدو لي أنك.. هذا هو، يبدو لي أنك... أنتَ كما لو أنّك...

كلمات تبحث عن باب الخروج، مخرج غير الفم، دون أن تجدها. إنك تمشي على منظر من الثلج، ولكنك تجهل أين الطريق، لا يوجد أيّ طريق. مَنزلٌ هناك. لا تذهب، لا تدخل. لا تسكنه إلا الأشباح.

تضيء عيناه الداكنتان الوجه وما يحيط الوجه. نحن في المدينة، يمرّ الترامواي كجوقة منفصلة، مفكّكة، تصرّ وتغمز. ننتظر إعلانا ينقص اسمُه، تاركا مكانه باللون الأبيض.

الأرض الصهباء بإبَر الصنوبر الجاف وبعد ذلك... ولادة البحر. رفعتُ بصَري نحو زُرقة السماء العذراء للغاية، العالية للغاية، اليقظة للغاية. غاية كل ما نريده. كما لو أنّنا فوق قارة أخرى. ارتفع غناء، حزينا ولطيفا. هكذا كانت تغنّي تلك التي أعطتني الحياة كما أعطتني موتي معا. كما لو أنّنا فوق قارة أخرى.

هناك في أعلى الشجرة

نَم رضيعي، نَم.

كي تستحق هذا الاسم، يجب على الذكرى أنْ تكون جميلة، أجمل من الشيء المذكور، أجمل من الحياة.

رمَت برأسها إلى الوراء وضحكَت. لا، لا يوجد خطر النسيان. وبعد ذلك انتفخ فمها في برطَمة حائرة. لا تعكس العينان إلا

لونهما، وهما دائم الروعة في عمقهما. لم تقل شيئا، ولكنها أشارَت أن نعم بالرأس، فتحرّكت كتلة الشعر كاملة. نظرت إليّ بتلك الصرامة التي أحسدها عليها وأنا أريد أن أموت.

- يجب أن تكون بليدا للغاية.

- نعم، بنيّتي.

اختَفى السارِدُ، دون صوته، أو غير مهم الصوت الذي يقول، أنا، الذي يكلّم نفسه، يتكلّم من تلقاء نفسه. لقد ذاب في صوته، تحت قناع الرصاص الذي سبق أن لبسه، والذي أضيف إليه قناع آخر. من الرصاص أيضا. فأفلس الصيف حسب نظام خاص به والذي ينتقم له لأنه آمن به كثيرا. كان يقود حتفه، ولم يكن يعرف. تجمّد نوره، ولم يكن يكترث. الآن، نميل معه. يطلق الطحلب رائحة اليود.

إن الأشياء التي صنعت وجودنا إلى حدّ الساعة لا تكون أبدا مثل عهدها السابق.

تنتظر أنْ أُضيف لها شيئا آخر. تنتظرني، تراقبني مع ابتسامة قابعة في زاوية العين. ابتسامة على وشك المجيء، ولكنها ليست بعيدة. أن أوافق، أن أقول نعم، أن أقبل. قالت :

- إذَن مثلك.

- لا ليس مثلي. إنك أنتِ.

- هذا هو. لقد وجدت الكلمة المناسبة.

إنها مقتنعة، هي. وأنا ؟ أنا أيضا. إنها في غاية السعادة. وكل شيء هنا. يا سيّدي، كل شيء هنا.

إن الذي يقول، أنا، ليس إلا صوتا، لا يحيَ إلا عبر هذا الصوت. إلى غاية الآن، لم يفكّر إلا فيما يفكّر فيه، هو، ما يفكّر فيها، ماذا يفكّر حول هذا، ماذا يفكّر حول كل شيء. ولكن هل فكّر فيما تفكّر فيه هي ؟ ماذا تفكّر، بتاجها غير المرئي على الرأس، رأس تحملها عالية مع كتلة شعرها الأسود. إنه موقف ملكي، بالغريزة. لا وجود للشكوك أبدا، لا تدير ظهرها للأشياء أبدا. هل فكّر، هو، في تلك التي أدخلته إلى سلالة الأمراء ؟

من هذا ؟ من أراه يتقدّم نحوي ؟ كيكي !

- صباح الخير كيكي. تقدّم.

ها قد عاد أخيرا. ربّما تصوّر أنه سيجد ليبل هنا. قلت له :

- لا. إنها هناك في بلدها.

ثمّ صحّحت :

- بلدكما.

لم ينطق بكلمة. مِمّا أدى بي إلى إضافة :

- و لكن يمكنك البقاء معي إنْ أردتَ.

يبدو أنه لا يراني، يبدو أنه يسمعني، ليس أقوالي، وإنما شيئا آخر. وبعد ذلك بدا كما لو أن دعوتي له للبقاء وصلته، لحقَته بعد مدّة طويلة. تعنّتَ بهزّ الرأس، أكيد أنّ حركته لم توجّه إليّ، كما لو أنه كان وحيدا، ليقول أنه لا يريد، فابتعد. هو أيضا يبحث عنها.

بعد مرور كيكي، اتّخذ الزمان لونا أبيض، أنا أيضا اكتسيت باللون الأبيض، لقد اتخذنا، الزمان وأنا، أبيض الألوان البيضاء، بياض الأشباح. واصل الخريف تقطيع أوراق شجرة البلّوط داخل ذهب أسمر. يأتي ساعي البريد كل يوم بالرسائل، إلا تلك التي ننتظر. بدا الثلج نفسه قريبا منّا، لم يغادر الهواء كلية، حاضرا دوما، مثل تلك الأشياء التي نعتقد أننا نسيناها في الوقت الذي نفكّر في شيء آخر. تحلّق رائحة الثلج، لطيفة. ذات يوم، سيُدير الزمان رأسه وسيبرز وجهه الأبيض : وجه ثلج مقابل البياض الناصع، مقابل المطلق. كامل الثلج، كامل الامتداد.

فهرس

الزائرة 09
فالو 21
روسيا 29
تقول ليبل وهكذا 39
صباح تتَرية 49
ألعاب من أجل غفوة 57
الجزيرة الثرية 69
المكرَرة. 83
درّة السعادة 91
الآيتان 103
اليد والذاكرة 117
القسط الآخر للأشياء 129
المُستكشِفة. 139
الإوزّ الوردي 149
غنِّ يا طائر 163
توت العليّق 173

اليوم الذي ينتهي 185
حالة الغياب 193
زهرة الهِندَب البرية 205
أب وغياب 215
نورَس، يا نورس 225
الطفل العاري 233

رجل من الجنوب وامرأة من الشمال. وبينهما الغابات والسموات والثلوج الشمالية. وبينهما خاصة ابنتهما، الصغيرة ليبل.

إنها قصة زواج مختلط، تنتهي فترة الحب ويبدأ التمزّق، ليعود الرجل إلى غربته وعزلته. أو كيف تُسرَق طفلة من أبيها، ليتحوّل هذا الأخير إلى غريب مزدوج في عينيها.

ثلوج من رخام، آخر جزء من ثلاثية الشمال تشمل أيضا سطوح أرسول وغفوة حواء، قصة رجل يعيش الاغتراب والتمزّق العائلي، يرويها لنا الكاتب في أسلوب رائع، مؤثّر ورصين.

يُعتبَر **محمد ديب**، المولود في 21 جويلية 1920 بتلمسان، والمتوفى في 2 ماي 2003 في لاسيل سان–كلود، أحد الكتاب الجزائريين المؤسِّسين للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. تشمل مؤلفاته الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والشعر..

مكتبة نوميديا 191

Telegram@Numidia_Library

9 789961 638835

CHIHAB